المعنى والمبنى

عبد الرحمن منيف

بسبب التراجع في الموقف العربي والفلسطيني، في مواجهة إسرائيل والضغط الأمريكي، كان لا بد من وقفة للمراجعة، وخلق مناخ جديد، ثم شروط مختلفة، لعملية التفاوض التي بدأت منذ أوسلو ولم تصل بعد إلى نتيجة فعلية، رغم مرور ما يزيد على سبع سنوات، خاصة وأن الاستيطان الإسرائيلي قد اتسع وزاد، وتحديداً في ظل حكومة حزب العمل التي تتظاهر أنها أكثر استعداداً للوصول إلى نتائج من الليكود واليمين الديني!

في ظل وضع مثل هذا كان يفترض ظهور عوامل جديدة لتغيير المعادلة، فكانت الانتفاضة، صحيح أن زيارة شارون إلى المسجد الأقصى كانت السبب المباشر في اشتعال الانتفاضة، لكن الدواعي العميقة لمثل هذه الانتفاضة كانت موجودة وقوية، وبالتالي كان يفترض أن تنفجر لهذا السبب أو لسبب آخر، وإن اختلف التوقيت قليلاً.

إن انفجار الانتفاضة تعبير عن صحوة، وإشارة إلى تكوّ ن وعي جديد، كما يمثل استعداداً للتضحية من ناحية، ورفضاً للصيغ المقترحة، المذلة والمجحفة من ناحية ثانية، وهذا الذي يفسر اتساعها وامتدادها، والذي يفسر أيضاً الضراوة التي تتسم بها، كما تظهر ردود الفعل، على أكثر من مستوى.

فالجماهير الفلسطينية العريضة التي اندفعت، ولا تزال، للمشاركة في الانتفاضة، تجاوزت الحدود التي تضعها السلطة عادة أو تحتملها، وهذا دليل أكيد على عدم الرضى الذي يسود الشارع الفلسطيني من الشروط التي تريد إسرائيل فرضها، ودليل أكيد على مدى الاحتقان، الذي تمتلئ بهما النفوس وتنتظر اللحظة المناسبة للتعبير واتخاذ مواقف جديدة، لتغيير المعادلات السائدة.

أما عن مدى شمول الانتفاضة والقوى التي شاركت فيها فقد امتدت إلى كل أنحاء فلسطين، دون استثناء أو تسيير، وشارك فيها الجميع: عرب ١٩٤٨؛ سكان المدن والقرى التي تغيرت أسماؤها أو أزيلت عن الخريطة؛ المسلمون والمسيحيون بتفاعل وتآخٍ قلّ نظيره، خاصة بعد محاولات الفتنة التي

جرت في أكثر من مكان خلال السنين الأخيرة، وتحديداً في الناصرة. سكان الضفة وغزة، حتى البدو الذين يراد عزلهم وتحييدهم، كل هؤلاء كان لهم وجود ومشاركة في الانتفاضة الجارية الآن، بحيث أعيد رسم الخارطة الفلسطينية وفقاً لمنطق جديد لم يكن مألوفاً خلال السنوات السابقة. لقد توحدت فلسطين من جديد والانتفاضة هي التي وحدتها، وخلقت الإمكانية كي يتم التعامل مع القضية تبعاً لنظرة حاولت إسرائيل ومعها أميركا تغييبها، إذ بعد أن عزلَ الاحتلال عرب فلسطين ١٩٤٨ واعتبر أن لهم وضعاً خاصاً عادوا للاندماج من جديد في الجسد الفلسطيني العربي، وأثبتوا جدارة كنا ننكرها عليهم طوال السنين الماضية، الأمر الذي يستدعي نظرة جديدة وموقفاً جديداً.

كما أن المطالب التي كان يحاول تأجيلها، خاصة مطلب عودة النازحين، أصبح الآن مطروحاً وملحاً. يقابله الحزم المتزايد المعبر عن الرفض المطلق لوجود المستوطنات، والرفض المطلق لتجزئة الأرض الفلسطينية التي تحولت إلى ما يشبه أقفاص الطيور المعزولة، حسب تعبير محمود درويش.

إن النتائج المباشرة للإنتفاضة أنها خلقت وضعاً جديداً، بمعنى أن الصيغ التي كان يجري الحديث عنها أو التفاوض عليها لم تعد صالحة أو ممكنة الآن، وهذا ما يفسر الاضطراب والاختلاف والصراع الذي يجتاح القوى والحياة السياسية في إسرائيل، بما في ذلك إعادة التحالفات، والدعوة لإجراء انتخابات جديدة، وما يفسِّر أيضاً العنف الأعمى الذي يميز السلوك والتصرفات للقوى السياسية، والجيش، والمستوطنين.

يقابل ذلك على الجانب الفلسطيني: اضطرار القيادات من سلطة وتنظيمات سياسية إلى الإصغاء لنداء الشارع، والاستجابة لمطالبه. ومما يلفت النظر في هذه الانتفاضة أيضاً أن أصبح الشارع هو القائد، وهو الذي يملي المواقف. كما أن الجماهير التي دفعت بقادة جدد ورموز جديدة أصبح لها الناطقون باسمها، خلافاً لفترات سابقة، حيث كان هناك صوت بمفرده هو الذي يفرض نفسه ولا يسمح للأصوات الأخرى إلا أن تكون صدى أو امتداداً له.

من خلال الانتفاضة أصبحت قوى أي مسؤول فلسطيني مستمدة من اعتراف الشارع وتأييده، لا من المنظمة التي ينتسب إليها أو الموقع الرسمي الذي يحتله، وهذا يدل على قوة الشارع ومدى قدرته على فرض مواقف وصيغ تتجاوز ما كان يراد فرضه وتأييده، وهذا يستوجب إعادة النظر بالصيغ التنظيمية ومحاولة تلافي النواقص والأخطاء التي ميزت المرحلة السابقة.

لقد استطاع الشارع الفلسطيني، وإلى حد ما الشارع العربي، أن يستعيد دوره وأهميته، وتراجعت، في ذات الوقت، رابطة العصبوية أو التقسيمات السابقة، إذ مثلما ارتفعت الانتفاضة عن الانقسامات والتقسيمات الدينية والمذهبية والمناطقية، فإن جدارة التنظيمات والأحزاب والأفراد تتمثل وتقاس بمدى المشاركة وبمقدار التضحية، وليس اعتماداً على الأطر التنظيمية الضيقة وحدها.

ومن جملة الانعكاسات للانتفاضة: آثارها في المحيط العربي، إذ لأول مرة، ومنذ سنين طويلة، يُرد الاعتبار، ولو جزئياً، للشارع العربي، والذي أثبت وجوده وجدارته على أكثر من مستوى، وفي أمكنة جديدة، فقد تحرك هذا الشارع، معبراً عن التضامن من ناحية، وعن موقف من سلطاته الحاكمة

من ناحية ثانية، ولعلها من المواقف القليلة في التاريخ العربي المعاصر التي تمتلئ شوارع المدن العربية من المغرب حتى عُ مان بهذا المقدار من الغضب والرفض، وأيضاً في إدانة سياسات قائمة، وإدانة تحالفات الأنظمة الحاكمة مع دول خارجية، خاصة أميركا.

وإذا استطاعت الأنظمة الحاكمة أن تلتف على الغضبة الشعبية، وأن تستجيب لبعض المطالب، من خلال مؤتمر القمة العربي أولاً ثم الإسلامي بعده، وأن تشتري سكوت الجماهير عن طريق التغاضي عن المظاهرات والمسيرات، وأن تعلن تبرعاً بمبالغ معينة لدعم الانتفاضة، فإن ما كسبه الشارع من تجاوز لحاجز الخوف، ومن التعبير عن الإدانة، يمكن أن يعتبر رصيداً للمستقبل، إذ مجرد أن يكون الشارع موجوداً ومشاركاً ، وأن تكون الجماهير جاهزة وغير خائفة، فإن أموراً كثيرة يمكن أن تتحقق غداً ثم في اليوم الذي يليه، خاصة وأن الأنظمة العربية حجرت على الجماهير منذ مدة طويلة، وحرمتها من أية مشاركة أو تعبير، والآن جاءت الإنتفاضة لتكسر هذا الحرم، ولتخلق مناخاً نفسياً جديداً ومختلفاً عن السابق، الأمر الذي يساعد على تطوير هذه الحالة وإلى دفعها للأمام.

يضاف إلى ذلك، ونتيجة استمرار الانتفاضة واتساعها، تزايد عدد الضحايا، فإن انعكاسات ذلك على الرأي العام الدولي في زيادة مضطردة، إذ علاوة على المظاهرات التي قامت في أنحاء متعددة من العالم تأييداً للانتفاضة، وإدانة للعنف الإسرائيلي الموجه ضدها، فقد أعلنت اللجان الخاصة بحقوق الإنسان، بما فيها المنبثقة عن الأمم المتحدة، استنكارها وإدانتها لمواقف إسرائيل.

ورغم الضغط الأميركي والنفوذ الصهيوني المسيطر على وسائل الإعلام العالمية، فإن التململ تجاه ما يجري، والإدانة المتزايدة لإسرائيل وسياستها وعنفها، يعم أوساطاً واسعة في أوروبا وآسيا، الأمر الذي يطرح القضية الفلسطينية برمتها تحت أضواء جديدة، ويساعد على كسب الرأي العام، وتجاوز الحصار الصهيوني.

هذا التحول في نظرة الرأي العام، تجاه القضية الفلسطينية ما كان ليحصل لولا الإنتفاضة، وما ولّ دته من نتائج وآثار، الأمر الذي يسهل لاحقاً إعادة طرح القضية باعتبارها قضية تحرر وطني ومقاومة للاحتلال ومطالبة بحقوق مشروعة، وبالتالي كسب رأي عام دولي متعاطف، كما حصل تجاه قضايا مشابهة، مثل قضية فيتنام وقضية جنوب إفريقيا، فقد كان الرأي العام في هاتين القضيتين ذا تأثير واضح.

لهذا يمكن وصف الإنتفاضة بأنها كسر للقفص الذي يراد سجن القضية الفلسطينية داخله وفقاً لإرادة إسرائيل وضغط أميركا وعجز الأنظمة العربية؛ كما تعتبر تطلعاً نحو أفق جديد قد استطاع الوصول إليه من خلال تمتين العناصر الإيجابية في هذه الإنتفاضة، وقدرتها على الاستمرار، وتحمُّل الصدمات وإمكانية خلق وحدة وطنية أكثر صلابة، دون الانجرار إلى تحقيق مكاسب فئوية أو تنظيمية.

وإذا كانت إسرائيل قد استفادت من دروس الإنتفاضة السابقة، ولجأت إلى اعتماد وسائل جديدة لمواجهة الإنتفاضة الحالية، فيفترض بالفلسطينيين أيضاً الاستفادة من دروس تلك الإنتفاضة، وأن يحاولوا الآن تجاوز النواقص والأخطاء، والانتباه للخطط والأساليب الجديدة التي تحاول إسرائيل اتباعها.

إن أساليب العنف التي تجاوزت كل الحدود، والتي يتبعها الجيش الإسرائيلي والمستوطنون حالياً ، وهذا الصمت والغياب لما يسمى اليسار الإسرائيلي، خلافاً لما حصل في أوقات سابقة، حيث كان اليسار حاضراً ومشاركاً في فضح وإدانة العنف، هذه المرة نلاحظ أن صوتاً واحداً ، أو متقارباً ، يسربل إسرائيل بيسارها ويمينها، بعلمانييها ومتدينيها، وربما أحست أكثر من أية فترة سابقة أن الجميع أمام مفترق خطير وأمام خيارات مصيرية.

لقد جرت العادة في السابق أن يكون المستوطنون النسق الثاني في أية مواجهة تقع بين الفلسطينيين والقوات الإسرائيلية، في هذه الإنتفاضة أصبح المستوطنون، في المقدمة، وكانت مهمة الجيش التغطية والحماية، ليس ذلك فقط، عبّر المستوطنون عن حقد أسود، وأبدوا صنوفاً غير عادية من العنف، هذا مع الإشارة أن جزءاً غير قليل من هؤلاء المستوطنين، نتيجة موجات الهجرة الأخيرة، خاصة من الاتحاد السوفياتي السابق، ليسوا من اليهود، حسب بيانات الجهات الإسرائيلية المسؤولة، فكيف نفسر هذا العنف؟.

لا بد أن نلاحظ في التحول الجديد أن الأمر لم يعد مجرد اقتطاع أجزاء إضافية من الأرض الفلسطينية والصاقها، وإنما يتجاوز ذلك إلى الإعلان أن الأرض لم تعد تتسع لاثنين، وبالتالي على الفلسطينيين أن يغادروا وأن يجدوا لهم مكاناً آخر، أي أن إمكانية العيش المشترك لم تعد واردة، وهذا يفسر، جزئياً ، المبالغة في استعمال القوة، واللجوء إلى أساليب قاسية إلى أبعد الحدود في التعامل، سواء في هدم البيوت أو اقتلاع الأشجار، أو اللجوء إلى تغيير المعالم الجغرافية إضافة إلى جعل الحياة لا تطاق للفلسطينيين المجاورين للمستوطنات من حيث تضييق سبل الرزق والحركة والحرمان من المقومات الأساسية للحياة والاستمرار.

إن السياسة التي تتبعها إسرائيل في مواجهة الإنتفاضة لا تقتصر على اتباع أقسى أنواع العنف، وبالتالي إيقاع خسائر كبيرة بالمواطنين الفلسطينيين من حيث عدد الإصابات، سواء بالقتل أو بالإعاقات الدائمة، بل ولجأت، ولا تزال تلجأ، إلى إيقاع أكبر أذى مادي ونفسي بالمواطنين الفلسطينيين، من حيث تضييق الحصار، ومنع وصول المستلزمات الأساسية للحياة كالكهرباء والوقود والمواد التموينية، وحتى المياه في أحيان كثيرة، عدا عن منع الحركة والانتقال بين المدن، وبين الضفة وغزة وبين هذه جميعاً والخارج، بما في ذلك سد المعابر البرية والبحرية وإغلاق المطار، وحتى منع وصول سيارات الإسعاف من أجل إخلاء الجرحى. كل ذلك لإرغام الفلسطينيين على التسليم، وجعْل الحياة بالغة الصعوبة فيما لو قالوا لا أو حاولوا الاعتراض على ما تخطط إسرائيل، يجري ذلك جهاراً نهاراً ، تحت سمع العالم وبصره، وأيضاً بحماية أميركا ودعمها الكامل والعلني. حتى فكرة إيفاد مراقبين، ليس لوضع حد للعنف، وإنما لتقصي الحقائق، تقابل بالرفض المطلق من قبل إسرائيل وتؤيدها أميركا في ذلك، وبالتالي تفشل المحاولات العربية والإسلامية والأوروبية لوضع حد لما يجري، وتعجز الأمم المتحدة عن اتخاذ أي إجراء، لأن الفيتو الأميركي جاهز في مواجهة أي قرار للإدانة أو التدخل.

سياسة إسرائيل المدعومة من أميركا لا تهدف الوصول إلى تسوية، وإنما فرض واقع، وهذا الأمر

الواقع ذاته متحرك، متغير، تبعاً لموازين القوى وما يمكن أن تفرضه في مرحلة معينة، لذلك من الخطأ، وتالياً من الوهم. التصور أن إسرائيل تريد السلام أو تبحث عنه، خاصة في ظل وضع عربي يزداد انقساماً وشرذمة، وضعفاً، مما يمكّن إسرائيل من تحقيق مكاسب إضافية، وعليه فإن أي حل لا يعدو كونه محطة في طريق طويل، ونقطة انطلاق جديدة في هذا الصراع.

الإنتفاضة إذن وبمعناها الجوهري، رد على حالة التراجع والاستسلام، صحيح أنها ليست حلاً كاملاً ولكنها بداية الحل، أي أنها تنبيه ورفض للصيغة السياسية التي كان يراد فرضها من قبل إسرائيل وأميركا خلال الفترة الماضية، صيغة مدانة وغير مقبولة، الأمر الذي يستوجب حشد جميع القوى لمقاومتها وتهيئة الظروف من أجل الوصول إلى حل يضمن الحقوق الأساسية. ومهمة من هذا النوع تعني الجميع مساحة وعمقاً، أي أنه ليس من حق فئة أو مرحلة زمنية محددة أن تفرض صيغة أو ما تعتبره حلاً، لأن الأمر أكبر من ذلك وأخطر. فالقضية الفلسطينية لا تعني الفلسطينيين وحدهم وإنما تعني المنطقة العربية بأسرها، وتعني العرب جميعاً. وإذا كان الاتجاه الذي ساد خلال فترة معينة استهدف تغييب الفلسطينيين، وأن ينوب عنهم الآخرون في التعامل بهذه القضية، وبالتالي تعالت الدعوة إلى ضرورة أن يكون أصحاب القضية من يتفاوض من أجل الوصول إلى حل، فإن القيادات الحالية ليست قادرة بمفردها أن تفرض حلاً. لأن النتائج التي ستترتب على أي حل ستنعكس على الجميع وستؤثر على المنطقة بأسرها، مما يستوجب أن يشارك الجميع وأن يكون لهم دور ورأي. وبالتالي إعادة رسم وتحديد العلاقة ثم الأدوار، بين ما هو قطري وبين ما هو قومي، ومن له حق التصرف ومن يحق له الاعتراض.

ثم إن القضية الفلسطينية لا تقتصر بآثارها ونتائجها على المرحلة الحالية والجيل الحالي، بل تمتد إلى الأجيال القادمة، وتترك تأثيرها لفترات طويلة قادمة، مما يستوجب أخذ هذا الأمر بعين الإعتبار في أي حل يراد الوصول إليه لكي تتجنب مستقبلاً التطاحن والصراع الدموي، وكي لا تورث التركات السلبية التي تتولد الآن من أخطاء المتنفذين إلى الأجيال اللاحقة.

اعتماداً على هذا المناخ الذي ولدته الانتفاضة يجب التوقف وإعادة النظر، ومحاولة الوصول إلى معادلة جديدة، ومن شأن مثل هذه المعادلة إذا تم تحديدها أن تمنع الانغلاق أو التسيب، وتحدد الصيغ والعلاقات بين ما هو خاص وقطري، وما هو عام وقومي، وكيف يجب التصرف في هذه الحالة أو تلك.

إن هذه الاشكالية طبعت العمل العربي طوال القرن العشرين وخلفت سلبيات لم يُستطع حلها أو تجاوزها حتى الآن، وبالتالي لا بد من الوصول إلى حلول لهذه الإشكالية الكبرى، إذ بدون ذلك سيبقى التداخل والارتباك، وسوف تتكرر الأخطاء أيضاً.

لقد هيأت الإنتفاضة الفرصة والإمكانية لإعادة ترتيب العلاقات والصيغ والأولويات، ولا بد أن يجري ذلك وفقاً للأهداف الأساسية والقضايا الكبرى، تماماً كما تفعل إسرائيل، إذ مهما بلغ الاختلاف بين الأحزاب والأفراد فإن هناك ثوابت أساسية لا يتنازل عنها أحد، وليست موضع اجتهاد أو مساومة،

وهذا ما يجب أن يشكل قواسم مشتركة للنضال العربي في المرحلة الراهنة.

الانتفاضة ليست وحدها حلاً. لكنها إمكانية ومناخ ملائم للحل، شرط أن يُعمل على توفير الشروط المناسبة، بمعنى: إنها تُهيئ الظروف لعلاقات فلسطينية ـ فلسطينية من نمط جديد. نمط يتجاوز التعصب الفئوي، ويؤكد على القضايا المشتركة، ويخلق مناخاً لنضال أكثر صلابة وأكثر جرأة، لأن الأطراف المقابلة لا تفهم إلا لغة القوة، لغة المصالح، أما لغة التسامح واللين والحلول الوسط فإنها تعبير أكيد عن العجز والضعف، وهذا ما أكدته هذه الفترة، وبأمثلة حية وملموسة.

ولأن الإنتفاضة هي مناخ أكثر مما هي حل، فإنها تلقي بمسؤولية الصيغ وطبيعة العلاقات على عاتق القوى المنظمة، والتي يجب أن تمتثل لرأي الشارع وقناعاته، وأن تكون وفية لتضحياته، ومعنى ذلك أن تتخلى عن النظرة الفئوية، وأن تعتمد القواسم المشتركة.

وباعتبار أن الإنتفاضة امتدت إلى الشارع العربي من أقصاه إلى أقصاه، وتركت آثاراً هامة، فيجب أن تبقى عربية بتوجهها وعلاقاتها، أي أن لا تقتصر على الضفة وغزة، وقد تأخذ أشكالاً، لا حصر لها من حيث ترتيب الصيغ والعلاقات، كي تبقى فعالة ومؤثرة، خاصة وأن الوضع العربي الآن أكثر استعداداً من أية فترة سابقة.

لأن قوة الانتفاضة تتمثل في استمرارها أولاً، وفي مداها العربي بعد ذلك، ثم العالمي. بمعنى أن المجال الحيوي وعناصر الإمداد لحركة مثل هذه، بعد أن ازداد الحصار وتزايد ثقل المواجهة والعبء، لا بد أن يُستمد أولاً من المحيط العربي ثم من التأييد العالمي، وهذا يقتضي أن يتم التفكير باستمرار لتوفير عناصر الدعم من المحيط، بالدرجة الأولى.

ولا بد أيضاً أن يتم التفكير بوسائل جديدة وإبداعية من أجل مواجهة الحصار والعنف، عن طريق الاستعانة بالإعلام، بالفضح، بالكشف، ولعل في قضية محمد الدرة درساً كبيراً، فهذا الطفل الشهيد حرك ضمير العالم كله، وترك تأثيراً يوازي، ربما عدد الشهداء مجتمعين، الأمر الذي يجعلنا نفكر بتوظيف الصورة، الملصق، الأغنية، الوثيقة، بحيث تلعب دوراً في إيصال فكرة، في لعب دور، في خلق مناخ ضاغط، وهذا يقتضي أن يفكّر ثم يشارك، كل مبدع. كل صاحب موهبة في توظيف طاقاته من أجل التعبئة وتجنيد كل الطاقات. وفي هذا يكمن أحد عناصر التحدي من أجل الاستمرار، إذ مهما كانت طاقات المقاومة، ومهما تزايد شهداء الانتفاضة وضحاياها، فإن قوة الخصم ومدى ما يملك من وسائل وإمكانيات تمكنه في النهاية من التغلب على هذا التحدي، ومن هنا على الإنتفاضة أن تمتلك وأن تبتدع وسائل إضافية وجديدة من أجل المقاومة.

الصورة في المرحلة الراهنة تلعب دوراً مهماً، وهذا ما يجب الانتباه إليه وتوظيفه. ويبرز في هذا المجال عنصران أساسيان: الصدق والسرعة، ثم تأتي طريقة التوظيف والمتابعة والابتكار، خاصة إذا اعتبرنا أن المعركة طويلة، وأن الخصم شديد المكر، ويملك وسائل كثيرة من أجل إخفاء الحقيقة أو تمويهها، أو على الأقل تأجيل ظهورها.

دمشق

المنفذ المطلق

سعدي يوسف

في الثّامن والعشرين من تشرين ثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠ ، وعَبْر رسالة هاتفٍ مسجّلة، أخبرتني رسّامةٌ نمساويّة الأصل، صديقةٌ ، أنّها ستمرّ عليّ في السّاعة الرابعة والنصف، عصر الغداة، قالت أيضاً إنّها لن تستخدم سيّارتها، بل ستجيء بالمترو، لكي تصحبني إلى إعتصامٍ في داوننغ ستريت، بمواجهة مقر رئيس الوزراء، توني بلير. الإعتصام من أجل فلسطين. من أجل شعب فلسطين.

في التّاسع والعشرين، أي في الموعد المحدّد، إنتقلنا بالمترو من جنوبيٍّ إيلنغ حيث أقيمُ ، إلى ساحة الطرف الأغر الشهيرة، ومنها مضينا، ماشيين، تحت سماءٍ طليقة، إلى داوننغ ستريت. من البعيد لمحتُ العلم الفلسطيني، طويل البيرق، قصير السارية، يلوِّح به شابٌّ للحافلات العابرة، حيث الركّاب الهادئون لا يكادون يرمشون. دخلنا بين حاجزين من القضبان، أحدهما يلاصق الشّارع، وثانيهما يلاصق الرّصيف، حيث وقف شرطيّان مستريحان يراقبان ما يجري.

ماذا يجري في الواقع؟

كُنّا بين الحاجزين، مع العَلَم الفلسطيني. وفي المساء الذي لم يزل شاحباً ، أشعلنا شموعاً داخل زجاجٍ هشٍّ ، وصمتنا طويلاً. العدد متواضع : عشرون بريطانيّاً. خمس بريطانيّات. طالبات وطلاّب من فلسطين لا يتجاوزون أصابع اليدين. و : أنا.

بعد ثلاث ساعات (كان الطقس جيّداً بشكل غريب) قالت الرسّامة إنّها مضطرة للمغادرة كي تلتقي إبنتَها في مكانٍ ما. عدتُ معها إلى ساحة الطرف الأغرّ ، ودخلنا المترو، لينطلق كلٌّ إلى مبتغاه.

أنا عدتُ إلى بيتي في الطابق الثاني. البيت المطلّ على الحدائق الخلفيّة لمنازل شارعٍ فرعيّ كامل. الحدائق الخلفيّة مهجورة في الشتاء، وشجرةُ الجوز الضخمة (أظنُّها شجرة جوز) التي أكاد ألمس أطراف فروعِها، تقدّم صورة متحركة لسنجابٍ مرحٍ (والت ديزني الطبيعيّة) .

لم أكن مبتئساً لمحدوديّة ما جرى في داوننغ ستريت.

فكما ضاقت بفلسطين الدنيا، ضاق أولو الشأن بفلسطين.

وهنا، في العاصمةِ البريطانيّة، وقفتُ مع أناسٍ يفتحون لفلسطين الأبواب، ويرفعون رايتَها في السّاحة.

فلسطين ليست وحيدة.

■

أستعيدُ الآن، في هذه اللحظات من لندن، بعض ما تحسّستُ وكتبتُ في بيروت ١٩٨٢، في

ذلك الصّيف السّاخن الذي تبدّدَ حتى تخومِ الخريف المبكّرة :

«إنّك لا تزال تدور، دائخاً، بين الأنقاض . . . صداعٌ حادٌّ يمسك بك تحت الشّمس الشديدة، وأنت لا تزال تدور. من هنا اخترق الصّاروخ العمارة. موجة هائلة من الهواءِ المندفعِ المضغوط تدفع بالأثاث والبشر والأبواب والنوافذ. وفي جحيم الدّمار تدور مآثر أسطوريّة، مآثر القدّيسين والشهداء. ساحةٌ ضيّقة وتضيق لكنّها لن تضيق إلى ما لا نهاية. هذه السّاحة التي أراد العدوُّ أن يجعلَها مقتلةً لنا جميعاً، هذه الساحة سوف تنتشر يوماً ما، على إمتداد الأرض الواسعة التي نعرفها ولا نعرفها أيضاً . . .

نحن لم ننكفئ كي نظلّ وحيدين في «الشّارع الأخير»، وإنّنا لنعرفُ أنّنا والنّاس، كالسّمك والماء، نعرف أنّنا الآن في ساعة الضّيق الشّرسة، وأنّ المعادلة التي أحكمت عناصرها وأطرافها ضدّنا تبلغ بدايتَها أو نهايتها يوماً ما. وكنّا في ساعة الضّيق هذه نتمسّك بـ «الشارع الأخير» ونتماسك ظهورُنا إلى الجدران إتّقاء الضّربة الغادرة، وعيوننا إلى الآفاق الرّحبة، ورئاتُنا تتنفّس هواء عالمٍ نحلم به، ونعمل من أجلِه. حتى إذا جاءت الغارة الأولى، أحسسنا جميعاً بأنّ ما انهارَ، مع الملعب الرياضيّ، كان جدران «الغيتو» وأسواره، وأحسسنا بأنّ الوجوه التي تشمّعت وتشبّعت بالهواءِ الثقيل تكتسب نضارة مبتغاة، أنّ ثياب المقاتل التي طُويت زمناً قد آن لها أن تُنشر، وأنّ البندقية التي كادت تصدأ تتحرّق إلى النّار. لكنّنا أحسسنا أكثر من هذا كلّه، بالماء الدافئ للنّهر العظيم، للشّعب العظيم، يغسل عنّا أدواءنا، ويعيدنا من جديد، إلى ذلك النّشيد الذي غنّيناه طويلاً، وافتقدناه طويلاً : حرب الشعب».

■

من لي، أنا المتوحّد في جنوبيّ إيلنغ، بأن أبلغ الأرض المقدّسة؟

في ايار (مايو) ١٩٨٢ كنتُ في قبرص، وآن شرعت الأجواء تدلهمّ، إلتحقتُ بفلسطين، حتى قذفت بي آخر سفينةٍ مغادِرة، إلى شاطئٍ آخر، في أيلول الذي ما كانت أوراقُه ذهباً ذلك العام.

الأمر يختلف.

في ١٩٨٢ كان لدى الفلسطينيّين مَنفذ.

أمّا في العام ٢٠٠٠ فلم يعد لدى الفلسطينيّين سوى المنفذ المُطلق : الحريّة القصوى . . .

■

في أوائل كانون أول (ديسمبر) هذا العام، عقدت منظمات وتنظيمات سياسيّة يساريّة، عربية وعراقية، إجتماعاً في إحدى القاعات بمبنى بلدية إيلنغ. أُلقيتْ كلمات من بينها كلمة لنائب عُمّاليّ هو كذلك نائب في البرلمان الأوروبي. لم يكن في الإجتماع ما يلفت النّظر سوى أنّ القاعة لم يدخلها حتى فلسطينيٌّ واحد.

كيف حدث هذا؟

أي، كيف كنت، أنا، العربيَّ الوحيد، في إعتصامٍ فلسطينيّ، وكيف لم يحضر حتى فلسطينيٌّ

وحيدٌ إجتماعاً عربيّاً؟

سيرورة العقود الأخيرة من تاريخنا الرّ اهن، وتعقيداتها، تقدّ م لنا التفسير (المنطقي؟)، لكن الأمر يظلّ بالغ القسوة والوطأة على شخص مثلي تقوده الرؤيا والبراءةُ ، ويتخبّط في رؤية الخط الفاصل بين السياسة والشّعر.

هل الواقع مخيفٌ إلى هذا الحدّ؟

هل الوعي الفاعل غائبٌ إلى هذا الحدّ؟

■

أتقصّ ى، هذه الأيام، الصّ حف، والصفحات الثقافية بخاصة، باحثاً عن الشعراء والكُتّاب الذين كانت الثورة الفلسطينية خيمتُ هم، عشرات السنين... وأتساءلُ في سِرّي : لمَ لا يكتبون. أحياناً يكون سؤالي : لمَ يكتبون؟

إنّ بين إقامة حفلة في الشّ ارع الأخير، والوقوف وراء المتاريس، فرقاً هائلاً.

■

حين أوشك ياسر عرفات أن يغادر بيروت المحاصرة، سأله أحد الصحافيّين من غير العرب : إلى أين أنت ذاهب؟

أجابه الرجل : إلى أين؟ طبعاً إلى فلسطين.

■

اليوم، وفي كل موضع من الأرض المقدّ سة، من البحر إلى الغور، يذهب الفلسطينيّ ون، بطرائقهم الخاصة، وطُ رقهم هم، إلى فلسطين العجيبة.

هل قُدِّرَ لنا، نحن الأبناء، في أجيالِ الخيبات المتراكمة، أن نشهدَ التحقُّقَ الأصعب للحلمِ الذي كاد يمسي كابوساً؟

لقد قُتِنّ ا، طويلاً ، بمرادفات الغياب.

فهل آن لنا، أن نُفتَنَ بمرادفات الحضور، بمرادفات الإنتفاضة، الإنتفاضة التي لا مرادف لها؟

نعم... لأنّ الإنتفاضة ظافرة.

عمّان

٢٠٠٠ / ١٢ / ١٢

العودة إلى الأصل

جمال الغيطاني

جاءت الانتفاضة لتعيد الأمور إلى أصولها، ولتذكر بالبديهيات التي كاد أن يدركها الطمس والتمييع، ولتعيد إلى الذاكرة العربية مراكز بدت وكأنها تآكلت أو توارت عن المناطق، التي يستمد منها الكائن الصُوَ ر والذكريات وسائر ما يسهم في تعرفه إلى نفسه وإلى ذاته وإلى ماضيه وبالتالي حاضره ومستقبله. منذ أن هبّ الشباب والكهول والنساء من أبناء الشعب الفلسطيني للدفاع عن المسجد الأقصى بعد أن دنسه السفاح ايريك شارون بزيارته المدبرة، منذ أن افتدى الفلسطينيون مقدسات المسلمين بأرواحهم، لم يتوقف نزيف الدم حتى اليوم، وها هو الشهر الثالث على وشك أن يبدأ ويومياً يتساقط شهداء برصاص العدو الموجه إلى الصدور وإلى القلوب، ولا يثن هذا آلافاً آخرين ليتقدموا بجسارة إلى لقاء الموت بصدور عارية، وأيدٍ ليس في قبضاتها سوى الحجارة، هنا نتوقف نحن الذين نتابع ما يجري لنرى ولنتأمل ولنتساءل : ماذا بعد ؟ إلى أين ؟.

بداية أعادت الإنتفاضة الأمور إلى أصولها عندما وضعت حداً لهذا التمييع الذي ساد طوال السنوات الماضية، منذ عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف، منذ مؤتمر مدريد، منذ اتفاقيات أوسلو، منذ إعلان البعض أن جوهر المشكلة بين العرب وإسرائيل نفسي، لذلك ردّ بوا مؤتمراً في السبعينات من القرن المنصرم حضره عدد من أساتذة التاريخ والتحليل النفسي من الجانبين ليخرجوا على الناس بمزاعم تؤكد السعي الحثيث باتجاه تمييع الأصول، وتبديد الجذور، شيئاً فشيئاً بدأ ذلك يعم ويسود، ولأضرب مثالاً بالإعلام العربي، لقد توقفت الإشارة الى بلد اسمه فلسطين، وأصبحنا نسمع في نشرات الأخبار عن عرب ٤٨ ، وعرب ٦٧ ، وعن الضفة والقطاع، كأنهما نبتتان، لا صلة لهما بكيان اسمه فلسطين، وبشعب يعيش فوق هذه الأرض منذ آلاف السنين، تجرى محاولة لاقتلاعه تماماً وإحلال شعب آخر مكانه تأسيساً على دعاوى عنصرية، أسطورية، وذاكرة مفتعلة لا سند يؤيدها إلا الأساطير.

كُنْتُ أفكر تماماً في الأجيال الجديدة، الذين تدور أعمارهم في العشرينات، عن تأثير الجهد المنظم لمحو الذاكرة الوطنية والقومية، لكن جاءت الانتفاضة لتفاجئ الجميع، سواء الحكام العرب أو الحكام الإسرائيليين، أن الذاكرة لا تزال، وأن محو الواقع مستحيل.

مع سقوط أول شهيد فلسطيني كان الشباب المصريون الذين يدرسون في الجامعة الأمريكية أول المتظاهرين في القاهرة مع كل ما يحمله ذلك من دلالات، أنزلوا العلم الأمريكي وأحرقوه، ثم هدرت مئات الألوف من جامعات مصر، واشتعلت المساجد بعد صلاة الجمعة، ومرة أخرى يصبح الأزهر

منبراً للكفاح الوطني والقومي.

كانت المفاجأة حقاً أولئك الشباب المنتمين إلى الأجيال الجديدة والذين نما وعيهم تحت ما سُمي في الإعلام العربي بثقافة السلام، وكأن السلام يعني طمس الواقع، وتزييف الحاضر، والقبول بالواقع المؤسس على الأسطورة.

قاد هذا الجيل الجديد حركة شعبية واسعة للتعاطف مع الانتفاضة والتضامن معها، وقدّم وسائل جديدة لم يعرفها جيلنا نحن، مثل انشاء المواقع على شبكة الإنترنت التي تبث المعلومات للعالم عن الإنتفاضة، أو تلك التي تدعو لمقاطعة البضائع والمنتجات الإسرائيلية والأمريكية، وبدأت دعوة واسعة لمقاطعة كل ما يرمز إلى الولايات المتحدة، ورغم أن هذه الدعوى لم تلق أية مساندة على أي مستوى رسمي، بالعكس، فقد انتشرت بشكل واسع هدد اقتصاديات هذه المنشآت وانخفض حجم التعامل معها.

بالطبع، جرى في المقابل ما يؤدي إلى تمييع الموقف، والغريب أن الإهتمام بالإنتفاضة وهي على وشك أن تدخل شهرها الثالث في الغرب، يبدو أكثر منه في العالم العربي، تراوحت ردود الأفعال في البلاد العربية، ولاح الداء القديم، كل نظام يريد أو يسعى لتوظيف قضية فلسطين لحسابه، أو للدعاية للشخصيات التي تقود الزعامة! في بداية الإنتفاضة قُدر لي أن أزور فرنسا، وكان الموقف على المستوى الإعلامي سيئاً بالنسبة لنا، فركائز إسرائيل وتأثيرها القوي في وسائل الإعلام صوروا الأمر على أنه حرب دينية يشنها المسلمون ضد اليهود، وبالتالي تمييع القضية الحقيقية، قضية وطن مغتصب وشعب تجرى محاولة إبادته بانتظام، وكان هناك نفر قليل من العرب والفرنسيين يحاولون إيصال قبس من الحقيقة إلى الرأي العام الذي كان متأثراً بالدعاية الصهيونية، إلى الحد الذي دعا ملكة السويد الرقيقة إلى اتهام الفلسطينيين باستخدام أطفالهم كدروع بشرية!.

إلا أن الواقع في الغرب بدأ يتغير، وبدأ الرأي العام يكتشف حقيقة جرائم الصهاينة، واستهدافهم العُزل بالرصاص الحي. وتوالت الصور التي تبثها الفضائيات في مشاهد بربرية دموية لا يمكن لعاقل أن يصدق وقوعها في القرن العشرين.

طائرات الهليوكبتر تقذف البيوت الآمنة بأحدث أنواع الصواريخ.

مدافع الدبابات تصوب تجاه الشقق والسيارات الخاصة.

توازن مختل، شيئاً فشيئاً بدأ الضمير يستيقظ في الغرب، في نفس الوقت الذي بدأت فيه مشاهد التظاهر والاستشهاد وإلقاء الحجارة تصبح أمراً مألوفاً أو تكاد في كثير من الأقطار العربية، ذلك أن استمرار الموقف الذي تفجر في البداية في حاجة إلى عمل سياسي مكثف ومستمر وجهد منظم، وهذا غير متوفر كما ينبغي أن يكون.

يستمر الدم في النزيف، ويستمر الشهداء في السقوط.

العزل في مواجهة الدروع السميكة وأحدث الأسلحة.

إلى متى ؟

هذا ما أطرحه على نفسي يومياً وأنا أتابع ما يجري على أرض الواقع الملتهب، غير أن أخطر ما حققته الإنتفاضة إلى جانب تعرية الأوهام، والجهود التي بذلت على مدى سنوات إعادة الأمور إلى أصولها كما ذكرت، هنا يجب أن أكون صريحاً إلى أقصى حدّ ، بعيداً عن تعبيرات السياسيين المنمقة، أو الإعتبارات التي تجعلنا نسكت أحياناً عن الجوهر، فمن أخطر الأمور أننا أخضعنا ما هو جوهري لما هو عابر.

أقول بصراحة والفضل في ابدائها يرجع إلى انتفاضة الشعب الفلسطيني العظيم.

لو اجتمعت كافة قوى الأرض من شرق وغرب، ولو استنفرت القوى المؤثرة في عالمنا اليوم وجلها من الغرب كافة ما تملك، ولو وقعت الاتفاقيات ولو اجتمع البعض من هنا أو هناك، فلن تترسخ لديّ أية قناعة حقيقية بدولة إسرائيل التي ارتكبها الغرب الاستعماري منذ أن عمل المشروع الصهيوني العلماني المؤسس على الأسطورة (!) على زرعها في منطقتنا العربية كخطيئة وخطأ من أفدح ما ارتكب في التاريخ.

قناعاتي تتأسس على عدة حقائق، منها أولاً ، استحالة قبول قيام دولة على أساس ديني، وهذا جوهر ما قامت عليه إسرائيل، إن قبول قيام إسرائيل على أساس ديني، على أساس أنهم شعب الله المختار، وأن أرض فلسطين أرض الميعاد بالنسبة إليهم، فيه نفي للآخرين، مسيحيين كانوا أو مسلمين، وفيه أيضاً تبرير لقيام دول أخرى على أساس ديني صرف، وعندما تقوم الدول على أساس المعتقد الديني وحده، فهذا يفتح باب الصراع اللانهائي، لأن كل طرف سيعتمد كتابه المقدس كمرجعية وحيدة، وهذا في حدّ ذاته مضاد للفكر الغربي الذي تكون وتأسس بعد حروب طويلة أريقت فيها دماء غزيرة، حتى توصل إلى الصيغة الحالية التي تفصل بين الدين والدولة، هذه الصيغة التي تبلورت في ثورة ١٩١٩، من خلال الشعار الذي صاغته الحركة الوطنية المصرية عبر مفهومنا وتراثنا، « الدين لله والوطن للجميع »، إذ كان جوهر الحضارة المصرية عبر تاريخها، التعايش للجميع من منطلق إنساني، وقبول الآخر رغم الخلاف.

لا أقبل فكرة دولة إسرائيل الدينية، ولا الفكرة الأخرى التي تقول بانشاء وطن لليهود بسبب ما لاقوه من اضطهاد في الغرب، نعم.. لقد لاقى اليهود اضطهاداً مروعاً من عنصرية الغرب، خاصة من النازية، ولقد كتبت أكثر من مرة معلقاً حول الجدل الذي يثور بين الحين والآخر حول المحرقة النازية، وعدد اليهود الذين أبيدوا فيها، قلت إن موت إنسان واحد فقط بالنسبة لي بسبب عقيدته أو لونه كارثة إنسانية ولا يعنيني هنا العدد، الخطورة في المبدأ، لكن من ناحية أخرى، ما هي مسؤولية العرب عن الاضطهاد الذي لحق باليهود، سواء خلال العصور الوسطى أو القرن العشرين.

يقول التاريخ إن اليهود لم يجدوا الملاذ الآمن إلا في الأقطار العربية، بعد خروجهم من الأندلس مع المسلمين، استقروا في المغرب الكبير، في المغرب الأقصى وجزيرة جربة في تونس، وفي المغرب أقامت

الجاليات اليهودية بجوار القصور الملكية رمزاً للحماية الخاصة وتعرف المناطق تلك بالملاح، وفي مصر ساهموا في جميع أنشطة الحياة الإقتصادية والفنية ولم تكن هناك مناطق خاصة لإقامتهم (غيتو).

لم يحدث أن تعرض اليهود لأي اضطهاد من العرب، بل كانوا جزءاً من المجتمع العربي، ولكن الغرب العنصري أراد التخلص من اليهود، ولكن ليس عن طريق المحرقة النازية والعنف، إنما بدفعهم إلى تأسيس دولة تقوم على أساس ديني، وعلى أساس اختلاق تاريخ كامل عناصره الأسطورة ومعاداة المنطق، من هنا كان دعم الغرب الاستعماري، العنصري لقيام دولة إسرائيل ليس كخطيئة وجريمة في حق العرب عامة والفلسطينيين خاصة، إنما كخطيئة أيضاً ضد اليهود بحشرهم في «غيتو» اتخذ هذه المرة شكل دولة، دولة تقوم على أساس عنصري، المتميزون فيها هم اليهود لأنهم يهود، وداخل اليهود أنفسهم تمييز آخر بين من هو غربي ومن هو شرقي، إذن.. ما الفرق بين الفكرة العنصرية والفكرة الصهيونية، كلاهما يقوم على أساس الإنتقاء العنصري، والتعصب لجنس ولفكرة. هكذا جند الغرب طاقته لازاحة شعب كامل من مكانه، وإحلال اليهود مكانهم، وما نراه الآن من قصف بأحدث الأسلحة الأمريكية لمنازل ومستشفيات وسيارات مدنية ما هو إلا فصل من فصول المأساة التي أعلنت رسمياً باسم دولة إسرائيل.

هنا قد يسأل البعض، وما هو الحل ؟

الحل يجيء هذه المرة من مفكّرين يهود بارزين، يدركون خطورة فكرة دولة إسرائيل على اليهود أنفسهم، وأبرز مثال على هذا الاتجاه الجديد مقال مستشار الرئيس الفرنسي السابق جاك ايتالى الذي تُرجم ونُشر في «أخبار الأدب»، هذا يمثل تياراً جديداً بين اليهود، وفي مواجهته تيار عنصري صهيوني يدعو إلى حرب مقدسة ضد العرب والمسلمين.

في رأيي، إن فلسطين كلها، وليست فلسطين أوسلو، أو فلسطين ٤٨ أو فلسطين ٦٧، كما اعتاد الإعلام العربي أن يستخدم هذه المصطلحات التي تكرس واقعاً قائماً، مفروضاً، لا توجد إلا فلسطين واحدة، والتي تقوم على جزء من أراضيها الآن خطيئة ارتكبها الغرب اسمها دولة إسرائيل، فلسطين يمكن أن تتسع للجميع، معتنقي الأديان الثلاثة، باعتبارهم مواطنين متساوين، بحيث يمكن أن يكون رئيسها فلسطينياً مسلماً أو فلسطينياً مسيحياً أو فلسطينياً يهودياً، ولهذا تفصيل آخر.

حتى يتحقق ذلك، أتطلع بقلب باكٍ إلى طوابير الشهداء اليومية، وإلى الحجارة في مواجهة الطائرات والدروع، وأسأل.. إلى متى؟.

القاهرة

انتفاضة أولاد مصر ..

يوسف القعيد

. . لن أستعير فذلكة المؤرخين وأقول إن مصر على مدى تاريخها، خاضت حروبها في سوريا، وأن السلطان الأشرف قانصوه الغوري استشهد في مرج دابق، وأن فكرة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، نبتت أثناء حصار الفالوجا الذي مر به جمال عبد الناصر وصحبه.

لن أكتب أن ثلاثة من أنبل وأشرف شهداء مصر في القرن العشرين استشهدوا من أجل فلسطين وهم جمال عبد الناصر وأحمد عبد العزيز وعبد المنعم رياض. وأنهم يتقدمون طابوراً طويلاً من شهداء مصر الذين قدموا أرواحهم ودماءهم في الصراع العربي - الإسرائيلي.

سأتكلم فقط عن أبطال الانتفاضة الراهنة، ولا أقول الأخيرة. أولاد مصر الذين قاموا بانتفاضتهم الخاصة بهم. وقد أثبت أهل مصر أن روح الوطن لا يمكن أن تتوه تحت ركام محاولات التوهان وقلب القيم. وتبديل الحقائق ومحو صفات التاريخ المكتوبة بدماء الشهداء.

قبل الانتفاضة الراهنة. كنت أتوهم أن روح مصر قد جرى اغتيالها. وأن تحييد المصريين أوشك أن يقع. لكن الانتفاضة، انتفاضة القدس، انتفاضة تحرير الوطن، انتفاضة إعلان الدولة، أعادت تأكيد الحقائق القديمة التي ما زالت قادرة على إثارة الدهشة. رغم ما جرى وما حدث.

مفاجأة المفاجآت جاءت من هؤلاء الصبية الذين يجرون في السنوات من الخامسة عشرة حتى الخامسة والعشرين، الذين ولدوا بعد دمار الجسور وخراب الديار، جاءوا إلى الدنيا بعد أن صوّر من صوّر تعبير أن اكتوبر آخر الحروب. وقال من قال: فلنحاول بداية مشروعنا الخاص بعيداً عن الآخرين، وأعلن من أعلن أن المشروع الصهيوني لا يشكل خطراً على مصر.

أعترف أنني كنت واهماً، ولم أكن قادراً على تَلَمُّس تضاريس روح مصر، لأن ما جرى اسقط كل أوهامي. المشهد الأول جرى عندما دعتني احدى المدارس الإعدادية والثانوية التي تدرس موادها بلغات أجنبية، أي ابناء المترفين الجدد في مصر، كنت أتوقع أنهم يعيشون في الضفة الغربية من بَرِّ مصر، لا يدركون ما ندرك، ولا يعانون مما نعانيه، ولا تحتك جلودهم بأشواك الواقع.

وقف صبيّ في آخر أيام الطفولة، وأول ليالي صباه، وطلب الكلمة، قال:

- إن كُلَّ ما قمنا به في مصر حيال الانتفاضة الفلسطينية البطلة لا يكفي أبداً.

لا يعرف الصبي كلمة الحد الأدنى، حتى يقولها، لكنه لم يكن راضياً عن كل ما قدمه الشعب أو الحكومة والأحزاب. هناك ما هو أكثر، حتى نكون جديرين بأن نكون أولاد مصر، قال ما معناه إننا لا نليق بهذا البلد، وأن مصر تستحق شعباً آخر غيرنا يعيش فيها.

في اليوم التالي، كانت مفاجأة الفتى الذي هرب من أسرته، لكي يسافر إلى فلسطين، يفتديها بروحه، ومن شدّة رومانسيته، ولغياب خرائط الوطن العربي واختفائها، ولأن بعض التلفزيونات العربية

تعرض خريطة الوطن العربي، ومكان فلسطين، تقلع الأعين من مكانها بكلمة اسم المغتصب.
من شدَّة سذاجة الصبيِّ تصور أن الطريق إلى العريش يمر بالاسكندرية. وسافر إليها فعلاً، وفيها عرف الحقيقة، وعاد إلى القاهرة، ليسافر إلى القناة، ومنها إلى الحدود المصرية ـ الفلسطينية، ولأنه يمر بمرحلة الحلم، لم يتسلل من الأسلاك الشائكة، وانما اتجه الى الضابط من نقطة الحدود، وقال له إنه يريد العبور إلى فلسطين، ليشارك أهلها وشعبها إنتفاضتهم ضدَّ المحتلين.

الباقي معروف، فالضابط أبقى الفتى عنده، واتصل بوالده حتى يسافر إلى نقطة الحدود من أجل العودة به. ذلك أن سِنَّه لا يسمح له بالمشاركة في الانتفاضة مع ابطالها من أبناء فلسطين الذين من نفس سنه، إنه الجيل الذي نبت من وراء ظهورنا، وفاجأنا بما لم نعد قادرين حتى على الحلم به.

إن كان الصبي أحمد شعراوي هو أول مصري فكر في هذه الرحلة، فلم يكن الأخير، ذلك أن فتاة من نفس سنِّه هربت من وراء أسرتها، وسافرت إلى حدود فلسطين من أجل أن تشارك في ما يجري هناك، كانت قد ذهبت إلى مراكز التبرع بالدم، وتبرعت بكل ما طلبوه منها، لكنها عرفت أن المحتلين منعوا سيارات الاسعاف المصرية من الدخول، وأغلقوا الحدود بين مصر وفلسطين، فقررت أن تسافر بنفسها، ما دام دمها ودماء غيرها من المصريين قد منعت من الدخول.

مظاهرات طلاب جامعات مصر، كانت أكثر من مفرحة، لكن الجديد كان مظاهرات طلاب المرحلتين الثانوية والإعدادية، هذا ما لم نتعوده من طلاب العلم في مصر من قبل، بكل ما في هذه المرحلة العمرية من براءة وتصور وبُعد عن التنظير ووصول الحقائق البديهية من أقصر الطرق وأسهل الدروب، منذ مظاهرات الطلاب في النصف الثاني من الأربعينات. وكانت فلسطين من الأسباب الجوهرية لها، أقول منذ أكثر من نصف قرن لم نشهد مظاهرات مصرية فيها هذا القدر من العفوية والصدق.

ثم تنادت مصر بالمقاطعة.

استوقفتني ربَّة منزل، في أحد محلات حَيٍّ مدينة نَصْر، قالت لي، بدون تعارف أو مقدمات.

ـ هوايتكم الوحيدة هي تعذيبنا، تتكلمون عن المقاطعة ولا أحد منكم يفكر في أن يحدد لنا ماذا نقاطع؟! حددوا لنا البضائع والمحلات التي يجب مقاطعتها، ولا تنسوا أن أمريكا هي إسرائيل، وأن جميع شهداء فلسطين يستشهدون بيد قناص من النازيين الجدد، فإن السلاح آت من هناك، من أمريكا.

كأن الزمان، دار دورته الكاملة، مع أن هذه الدورة جرت في أقل من شهر، من قبل كانت المحلات تتسابق في الفخر بأصولها الأجنبية. وتعلن عن أماكن صنع بضاعتها خارج مصر، كانت تلعب على عقدة الخواجة، وتراهن على سبق الجري وراء كل ما هو مستورد، وكان الناس يجرون وراءها كنوع من المباهاة الاجتماعية.

بعد الانتفاضة البطلة، ورفع شعار المقاطعة كسلاحٍ شعبي، إذ بهذه المحلات نفسها، بعد أن انصرف عنها الناس، تنشر إعلانات في الصفحات الأولى من الصحف، تقول إنها لا تبيع منتجات شركات مقاطعة وأنها تساند شعب فلسطين، وإن كانت لم تقل إنها ضد الصهاينة.

هذه المحلات تُصَفِّي أعمالها الآن، وقد بلغت خسائر احداها ستة عشر مليوناً من الجنيهات في أقل

من شهر واحد، رغم أن هذا المحل أعلن بياناً بعدد العاملين الذين يعملون لديه، وبالتالي عدد الأسر والعائلات التي تعيش من دخل هذا المحل، في محاولة لاستعطاف الناس، ومع هذا قاطعه المصريون.

خيل إليّ أحياناً أن الزمن يعود إلى الوراء، وأن الستينات تهل علينا مرة أخرى، وأن الناس ـ خاصة العاديون منهم ـ يبدون سعداء في كل مكان من بر مصر، ذلك أنه لا يوجد بيت في مصر، لا يعلق على جدرانه صورة شهيد من شهداء حروب الصراع العربي الإسرائيلي الخَمْس.

إن المصري لا ينسى عدوَّهُ أبداً، والدماء مُقَدَّسة بالنسبة إليه، عندما تكون دماء شهداء استشهدوا في سبيل الوطن، هل أكتب ما هو أكثر؟ لديَّ ما لا يمكن الانتهاء منه من الكلام الذي يمكن أن يشكل ملحمة طويلة عنوانها المصريون يحرقون كامب ديفيد.

يخطئ من يتصور أن كلمة النهاية يمكن أن تُدَوَّن في سجل هذا الصراع، الذي لم يكن صراع تحرير تراب محتل بقدر ما كان صراع وجود، ويخطئ من يقول إننا كنا ندافع عن فلسطين، كنا ندافع عن أنفسنا عن بلادنا وعن هويتنا، فالمحتل واحد، والخطر واحد.

لو لم تضع فلسطين، لاخترعناها.

لو لم تكن القدس، مدينة الله، وكلمة السماء لبَنَيْناها بخفقات القلوب ونور الأعين.

ها هم أولادك يا مصر، في صورة تذكارية عند قمة الوجدان القومي العربي..

لقد صار الكل في واحد.

وما قام به المصريون، كان رَسَائل مُحَدَّدَة، ثلاث رسائل، تميزت من بين ملايين الرسائل التي خرجت من ضمير مصر مؤخراً، رسائل أهل مصر كانت متنوعة.

لحُكَّام تل أبيب نقول :

نحن لم نخرج من الصراع العربي الصهيوني، ما زلنا في قلب قلبه، وفلسطين قضية كل مصري.

ولأمريكا نقول :

إن هذا الانحياز الأعمى للمحتل والمغتصب ضد صاحب الحق، سيهدد مصالحها ووجودها في كافة أنحاء الوطن العربي والأمة الإسلامية.

للعرب والمسلمين كافة، نقول :

مَنْ قال إن الصمت من ذهب ضحك عليكم قروناً طويلة، وصدقتموه، لقد خرج صوتنا ليعلن رأينا، الصمت موت وغياب، والكلام حضور.

والفعل أقوى إنباءً من أيِّ كلام..

فلسطين.. تكون أو لا تكون..

ولا بد أن تكون..

ذلك هو الممكن الوحيد.

القاهرة

شرفة الانتفاضة

الياس خوري

كنّا نجلس في مقهى «الروضة» في بيروت، البحر الأزرق على يميننا، وأمامنا مدى المدينة الذي يلفه الصمت، وكنا نتحدث عنكم. أقول عنكم وأقصد عنّا. فنحن الرجال الثلاثة الذين تلونت رؤوسهم بالشيب، لم نعتد بعد على الفصل بين ضميري المتكلم والغائب. فالضميران يمتزجان كأنهما ما انفصلا. الغائب يحضر والمتكلم يغيب أمام شرفة الانتفاضة التي تنزف دماً.

كنا نجلس في مقهى «الروضة» في بيروت، حين غرق البحر في الليل. حين يفقد البحر لونه الأزرق وينغمس في الليل، يصبح غريباً. كان البحر غريباً، وكنا نستمع إلى أمواجه تضرب صخور الشاطئ، ونحكي معكم. وأخذنا الكلام، جاء الكلام كإطار، وكنتم على شرفات الموت التي تفتح انتفاضتكم على السماء، وكنا على شرفة الليل الذي يبتلع الألوان. وفجأة التمعت قنبلة مضيئة في الأفق، ورأيناكم تحملون بيروت وتمضون بها الى هناك تحت زخات الرصاص، ودوي القنابل.

كنا نجلس في المقهى، وكنتم معنا. عدنا فجأة أبناء هذه الحركة التي أخذتنا إلى الأردن يوماً وأعادتنا إلى لبنان أياماً. عجيب أمرنا، لا نزال نحكي كالأبناء، مع أننا نستطيع أن نكون أجداداً. لا نزال حين نتحدث عنكم ومعكم نشعر أننا أمام البداية التي تبدأ كل يوم. وحدهم الأطفال من رماة الحجارة يضعون البداية، لأنهم مع كل حجر يبدأون، لكننا نحن أيضاً، حين يأتي الكلام عن فلسطين، نصبح أبناء هذا المدى، ونستعيد نكهة البداية.

كنا نجلس في المقهى، الأول يحمل هاتفاً خليوياً ويتصل برام الله، والثاني يعدد أسماء المستوطنات الإسرائيلية التي يجب أن تزول، وثالثهم أنا. كأن بيروت صارت في رام الله، كأن الحكاية تبدأ من جديد، كلماتها هي كلماتنا، وموتها هو موتنا، وحلمها أيضاً.

كنا نجلس، نقبض على أصابعنا كمن يقبض على الجمر، وتحدثنا عنكم. وهذه المرة لم تكن ذاكرتنا هي التي تحكي. كنا في الماضي، حين نلتقي، نحكي مثلما يحكي قدماء المحاربين. نذهب إلى شوارع الذاكرة، نعيد بناء ما تهدم، وإحياء من قضى، ثم حين نفترق يعود كل واحد منا إلى عالمه الحقيقي الذي لا تحتل الذاكرة فيه سوى موقع ثانوي. كنا نلتقي من أجل الذاكرة، أما في الأمس، فلقد تراجعت الذاكرة القديمة أمام هذه الذاكرة الجديدة التي تصنعها الانتفاضة. ورأينا كيف تتجدد الأشياء، ويولد الحي من الميت.

كنا نجلس، ونحكي.

لم نسأل أنفسنا لماذا نكتفي من الكلام بالكلام. فنحن الذين عرفنا كيف يتحول الكلام فعلاً في العرقوب والأغوار وشوارع بيروت، كنا نشعر أن الكلمة لا تزال مثلما تركناها وهي تغطي أجساد

رفاقنا الشهداء، تملك القدرة على الفعل، حتى وإن كان الفعل بعيداً عنا.

وفي لحظة، شعرنا أننا في الخطأ.

تأتي بعد كلمة جميلة نقولها، أو عبارة نكتبها. الحقيقة أنني عندما ذهبت إلى الجنوب بعد تحريره في أيار الماضي، ووصلت إلى شرفة الجليل اللبناني في قرية العديسة، حيث يمتد إلى يمينك الجليل الفلسطيني في لا نهاية الأفق، أحسست وأنا أقف مع الواقفين أن قلبي يسقط هناك.

قلت إنني أريد أن أذهب، وأنا أعرف أن عليّاً محق في قوله، وأنني لو ذهبت، لن أفعل شيئاً يختلف عمّا أفعله هنا في بيروت.

«لكن عيوننا تعبت»، قلت لهما. «لم أعد أستطيع النظر إلى الشاشة الصغيرة التي أصبحت تشبه الكفن. لم أعد أستطيع التفرُّج على الموت»، قلت، ووافقاني، وقال حسام إنه يشعر كل ليلة بالدموع تخرج من عينيه، وأنه صار يخجل من زوجته وأولاده.

وهنا يكمن الخطأ.

كنا نجلس في المقهى، والخطأ يحاصرنا من كل ناحية. لم نعد نملك من الكلام سوى الكلام، تتحول الكلمة حبلاً يخنق، بدلاً من أن تكون طريقاً. الخطأ هو أننا نجلس بدل أن نفعل شيئاً، أردت أن أقول، لكنني لم أقل، فأنا في الحقيقة لا أشعر أنني لا أفعل شيئاً، أشعر أن يدي ترمي مع كل رمية، وأن جسدي ينحني مع كل قذيفة أو رشقة، وأن حكايتي مستمرة هناك، فلماذا نقول إننا لا نفعل شيئاً؟.

«لا تقارنّا بالشهداء»، قال حسام، «الشهداء وحدهم هناك، أما نحن... نحن لا شيء».

كنا نحكي ونحكي، حين سأل حسام عن الفعل، «ماذا يجب أن نفعل»؟ سأل الرجل الذي استعاد اسمه القديم فجأة. كنا نسميه حساماً في حركة فتح، لأنه مثلنا جميعاً كان قد اتخذ لنفسه هذا الاسم الحركي، مستبدلاً به اسمه القديم.

فجأة رأيت أحمد وقد عاد إلى حسام، وسمعت صوته القديم، واختلطت الأمور في عينيّ. رأيتنا في «التخطيط» أو في «القطاع الغربي»، حيث كان السؤال حين يرتفع يتحول مشروعاً أو خطة.

كنا نجلس أمام البحر حين سأل حسام ماذا يجب أن نفعل، وبدأ السؤال في التلاشي. وحين قلت «نذهب إلى هناك»، ابتسما وقال علي: «وهل تعتقد انهم يحتاجون الى كوادر من الكهول تثقل عليهم بدل أن تساعدهم». ووافقه حسام، أما أنا فلا.

ربما كنت أكبرهم عمراً، لكنني لم أستسغ عبارة الكهول هذه، لا لأنني لا أسلم للزمن، ولا لأنني أكره شيبي أو أخافه، فأنا أردد دائماً مع المتنبي بيته الرائع:

«خُلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا»

بل لأنني كنت أشعر في تلك اللحظة، أنني أملك حيوية فتى في الخامسة عشرة، وأنني قادر أن أحمل كل حجارة العالم، وأقذفها في وجه جنود جيش الاحتلال.

قلت إنني أريد أن أذهب فقد سقط قلبي في الجليل. وحكاية قلبي ليست خيالية، ولا علاقة لها

على الاطلاق بالمشاعر الرومنطيقية التي تصنعها كلمة نقولها أو عبارة جميلة نكتبها، الحكاية حصلت هكذا، ولم يكن في الأمر لجوءاً الى الكناية أو الاستعارة. فبعد تحرير الجنوب في أيار ٢٠٠٠، ذهبت مع الذاهبين إلى هناك من أجل أن أقرأ التاريخ قبل أن يُ كتب، وعلى مشرفة العديسة التي تطل على المدى اللامتناهي، مددت يدي في الهواء فصرت في فلسطين. هناك سقط قلبي ورأيته كيف تدحرج أمامي، وذهب بعيداً ، من شرفة الجليل اللبناني الذي يطلّ على الجليل الفلسطيني، أحسست أن القلب يسقط، لا مثل صورة في الأدب، بل مثل قلب يُعتصر داخل القفص الصدري ثم يهوي.

أردت أن أذهب من أجل قلبي، وهنا يكمن الخطأ.

أنتم تؤجلون لغة القلب دون أن تدروا. فرغم أن الانتفاضة طلعت من أعماق اليأس والخيبة والشعور بالمهانة، لكنها تمتلك لغة سياسية واضحة يجب أن نتعلم قراءتها. إنها تعلمنا أن السياسة يجب أن تكون مثل السياسة. فالشعب الفلسطيني لا يذهب اليوم إلى موته، ولا يحتفي بذاكرته، بل يذهب إلى صناعة استقلاله الوطني على ٢٢٪ من أرض فلسطين.

القلب يجب أن يتأجل الآن، وبدل اللغة المليئة بالاستعارات، يجب أن تولد لغة باردة تقول الحقيقة المباشرة. هناك احتلال ومستعمرات استيطانية، وهناك ثورة شعب من أجل الاستقلال. المعادلة واضحة، يجب تأجيل كل الكلام من أجل أن يتحقق هذا الهدف. وبعد ذلك نصوغ لغة جديدة من أجل الحق والعودة.

قال علي إنه لم يعد يحتمل العجز العربي العام.

قال حسام إن الخطأ في كل مكان.

وبدل أن أجاوبهما أحنيت رأسي موافقاً . أردت أن أقول لهما إننا نكتشف اليوم الخطأ العربي، أي أخطاءنا نحن، فالعالم العربي يكتفي من الانتفاضة بالتباكي على صدرها. «لكنها الأنظمة»، قال علي.

«العجز ليس في الأنظمة فقط، بل في الشعوب أيضاً ، لقد كشفت الانتفاضة ما عجزت النكبة عن كشفه»، قال حسام، «النكبة أشارت إلى عجز الأنظمة، لكننا نكتشف اليوم أن العجز بنية كاملة في مجتمعاتنا، من القمع إلى التسلط إلى الرضوخ فالقبول».

أردت أن أقول إننا نتحدث عن العجز، في زمن تفتح فيه الانتفاضة الأفق على الاحتمالات. وهنا الخطأ أيضاً.

الانتفاضة لا تلغي العجز العربي، لكنها تؤشر إلى احتمال تجاوزه. العالم العربي يبدو الآن عاجزاً لأنه فقد صورته وفكرته، لقد تحطمت المرايا العربية التي كنا نرى فيها صورنا. جاء الديكتاتور وحطم المرايا، وفرض صوره بديلاً عن كل الصور. وحين تقبض فلسطين من جديد على فكرتها وصورتها، فإن هذا يؤشر الى احتمال عربي أيضاً ، أليس كذلك.

قلت «أليس كذلك»، دون أن أقول مقدمتها، فابتسم صديقاي، كأنهما أرادا مداراة تلعثمي بالابتسام.

كنا نجلس في «مقهى الروضة»، وكانت بيروت مثل ذاكرة لا تتذكر، كانت المدينة تنبسط أمامنا

سوداء على مرآة البحر الذي تلوّن بالليل.
ولم نكن نملك كلاماً.

ورأيت في مرآة هذا البحر الذي أسموه في الماضي بحر الروم، ويسميه الأتراك البحر الأبيض، ويسميه الأوروبيون البحر المتوسط، ونمزج نحن العرب بين اسميه التركي والأوروبي، رأيت في مرآة هذا البحر كل الدم الذي أريق فيه وعلى جنباته. وتساءلت، وأنا أروي لصديقي كيف انتهت الحروب الصليبية بهزيمة مزدوجة للفرنجة والمغول على أيدي المماليك، عن المعركة القديمة والمغول، حين سألني حسام عن المماليك، «من سيخرج المماليك» بعد ذلك. وضحكت، لا لأن المقارنات التاريخية مضللة فقط، بل لأن الاسرائيليين وفروا على المنطقة حرباً مزدوجة لأنهم مزجوا في داخلهم الفرنجة بالمغول.

«نهزمهم هذه المرة حين نهزم المماليك الذين يتحكمون فينا»، قلت. وكنت على خطأ أيضاً.

فالمسألة الآن ليست انغماساً في تاريخ مضى، حتى ولو احتلت بعض رموزه الثقافية والدينية، مكانة في وعي الانتفاضة لنفسها. المسألة الآن هي كيف يتحقق الاستقلال الفلسطيني، كمقدمة لمعالجة نظام الفصل العنصري الذي تؤسسه اسرائيل في المشرق العربي.

كنا نجلس في المقهى، وكان البحر. وكنا على مقربة من فلسطين. عكا تبعد رمية حجر عن صور وبيروت في حيفا، ورام الله تولد إلى جانب القدس، وبيت جالا تحت القصف، وأسماء المعابر وخطوط التماس. فلسطين تولد اليوم.

ونحن الذين نخبئ في عيوننا قضبان السجون، نحن من المحيط إلى الخليج، أمام البحر الأبيض، نقرأ أوجاعها، ولا نملك سوى كلمات لم نعد نعرف أن نكتبها.

بيروت

اسم الفلسطيني ورسالته

عباس بيضون

الصورة والخبر إياهما كل يوم. الفتيان والشبان بالحجارة والمقلاع وراء جدران أو في عبور سريع في الشارع. الجنود الإسرائيليون من بعد يرمون بكل شيء وبالنار بالطبع. عدد يومي من القتلى من المعتاد أن يشمل فتى أو أكثر، حرب غوار بالحجارة متحركة ومتنقلة. من دون تعديل أو بتعديل طفيف تتكرر الأمور ذاتها، يغدو عادياً موت الأطفال ومبادلة الحجارة بالرصاص. يغدو عادياً أن يقتل يهودي المستعمرات المسلح عربياً لأنه عربي. يغدو ذلك عادياً ومتكرراً حتى للفلسطيني نفسه.

يحدث كل يوم من دون نتائج منظورة أو متوقعة وأحياناً من دون نتائج على الإطلاق. الإصغاء العالمي أقل، ففجأة بدأوا يتحدثون، في عالم مهجوس بالبيدوفيليا، عن استغلال الأطفال العمد، والتضحية بهم قرابين إعلامية وتحريضية. والأرجح أن فوبيا العنف في مسألة معقدة كهذه قد تدعو إلى صرف النظر ـ حين يمكن ذلك ـ عن تحديد المسؤول ومساواة الحجر بالرصاصة، ثم إن المجتمع الإسرائيلي يزداد عدائية فهو لا يرى في الحجر إلا رصاصة مستقبلية، وهو يعلم أن الكراهية عنوان سلوكه طيلة نصف قرن وأكثر لا ينتظر بالطبع، ولا يصدق، أن يقابل بالتسامح. مع كل ذلك نعرف أن الانتفاضة لا تحتاج إلى بارقة أمل ولا إلى نتيجة منظورة، ولا إلى مطلب قريب ولا تحتاج حتى إلى مستقبل لتستمر وتستمر أشهراً وأعواماً. ليست هي المرة الأولى التي نختبر فيها قدرة الشعب الفلسطيني على المثابرة من دون أمل. لعله فريد في ذلك ونسيج وحده. تمر أشهر وأعوام من العسر الكامل ويستمر التحرك مع ذلك ولا يفقد زخمه بسبب انسداد الآفاق أو فقدان الوعود. أمر يحير وقد تدعونا الحيرة في أحيان كما دعت كثيرين إلى سيكولوجيا عدائية، فنقول إن الفلسطينيين شعب انتحاري مهجوس بعبادة الموت كاره للحياة، ويضحي بأطفاله قرابين لديانة من هذا القبيل. كثيرون عرباً أو غير عرب تكلموا هكذا من دون أن يسألوا عن السبب في دفع الفلسطينيين إلى هذا اليأس وذلك الجدار. مَن جعل الفلسطيني ـ إذا صح التحليل ـ عابداً للموت؟.

لا ننسى أن هذا الشعب لا يزال يقاتل في دائرة غير منظورة وفي سبيل مطالب جُلّ أن تسمى كما كان يقول المتنبي. هو وحده بين الشعوب يقاتل ليكون له صوت واسم ووجود. كم هي الشعوب التي لا تزال في درجة من الوجود الاحتمالي أو ما قبل الوجود وما قبل الاسم وما قبل الوطن؟ هُدِر دم فلسطيني كثير في معركة غير منظورة هي أن يكون للفلسطيني اسم وبطاقة. أن يراه العالم ويضطر لمخاطبته. أن يجبر العالم على نطق اسمه. أن يعود لفلسطين بالقوة اسمها. من أجل ذلك يقاتل الفلسطيني الرصاصة بالحجر، فهذه معركة لا يرجى منها نصر بالطبع ولا يؤمل أن تفضي إلى كسب. إنها معركة الاسم الفلسطيني، لنسمها هكذا، والسلوك الإسرائيلي لم يكن في يوم سوى انكار هذا الاسم وطمسه وازالته وتجاهله في أحسن الأحوال. الاستيلاء على الأراضي والمنازل والاقامة على سطوح المساجد وانتهاك المقدسات الفلسطينية ليس له معنى آخر. زيارة شارون الباذخة للحرم ليست شيئاً سوى هذا. إنها مجدداً سحب الاعتراف وإعادة الاسم إلى ما قبل الوجود. الإسرائيلي يصارع أيضاً على هذه النقطة. إنها تخيفه هو الذي يعرف بخبرته أن المسألة هنا ويريدها أن تبقى دائماً في نقطة الصفر. في الاسم واللااسم. في الاعتراف وسحب الاعتراف. يقاتل الفلسطيني بالحجر لأنه، بخلاف ما يقال، لا يتجاهل العالم، فالحجر ليس سلاحاً حقيقياً بقدر ما هو إعلان، وبقدر ما هو لفت انتباه. وبقدر ما هو في النهاية استغاثة ودعوة للاعتراف، إنه لغة أخرى كلغة الدخان والنار، رسالة إلى العالم.

يخاطب العالم أولاً ، وكم يحتاج الأمر إلى مثابرة وزخم ودم ليضطر العالم إلى سماع الصوت الفلسطيني الذي لا يصل إن لم يكن له هذا الثمن الفادح. لنتحدث عن الثمن. لنقل إن العالم يفرضه على الفلسطيني، إنه لا يصغي إلاّ برقم ضحايا كبير وبمدد طويلة. العالم هو الذي لا يعطي

اعتباراً لحياة الفلسطيني. الاسرائيلي المسلح هو الذي لا يعطي اعتباراً لحياة الفلسطيني. ننسى ذلك أحياناً ، ننسى أن ثمة قاتلاً وأن الرصاصة تأتي من الجهة الأخرى. ننسى أن لا سعر لحياة الفلسطيني أو العربي في إسرائيل وأن المحاكم لا تجازي تقريباً على قتل عربي، وأن بوسع يهودي المستعمرات المسلح أن يقتل رغم أن الجيش الإسرائيلي القوي لا يحتاج إلى دعم. إذا كان من حق يهودي المستعمرات أن يقتل فضلاً عن الجندي الإسرائيلي، تجلت صوره معاكسة. الفلسطيني «الثائر» لا يستعمل سلاحاً متوفراً ويكتفي بالحجر، لأنه يحترم أكثر حياة الإسرائيلي وحياة أطفاله بالأخص، ويحترم حق الحياة بوجه عام، ويحترم القانون الذي يحرم القتل. أما الإسرائيلي في دولة القانون فيبيح لنفسه أن يجازي الحجر بالقتل، وأن يستحل حياة العربي كما ينتهك ملكه. العالم لا يرى دائماً هذه المقابلة البسيطة. لا يريد أن يضع الأمور في هذه المعادلة. وكم على الفلسطيني أن يدفع ضحايا ودماً ليراها ويفهمها. حق الحياة يتعلق غالباً بحياة الآخر ومن يقتل طفلاً هو من يقتله فعلاً ، والأمر أبسط من أن تفهمه سيكولوجيا عنصرية لا تريد أن تفهم.

لا أحد يسأل من الذي يدعو شعباً إلى هذا النضال الطويل من دون أمل. ما الذي يخرج فتياناً وأطفالاً إلى لعبة كهذه. حب الحياة وحق الحياة، كم نطلبهما من الذين لا يحترم حياتهم أحد ولا يرعى لهم أحد حقاً. ليس من الضروري أن نروي حياة الفلسطينيين في كل مكان لنرى أننا دائماً أمام الجدار ودائماً بلا أمل ودائماً في وضع معلق ودائماً في الدرجة الصفر أو أمامها. ألا نفكر أحياناً بمعجزة اليأس. ألا نفكر بأن زخماً مخيفاً وهائلاً طويلاً هو وحده الذي يمكن أن يزحزح حجراً في الجدار، أن يكسر سياج الصمت، وأن يحرك شيئاً في وضع معلق ساكن.

في الانتفاضة الأولى انتظر العالم طويلاً ليرى الفلسطيني الحقيقي طفلاً مرعوباً ومطارداً وقتيلاً. في الانتفاضة الثانية ينتظر العالم طويلاً قبل أن يعرف أن الحجارة للعب، وأن الأطفال الذين يحملون الحجارة يلعبون، وان لعبتهم خطرة لكنهم يلعبون، أن الجندي الإسرائيلي يطلق النار لا لأنه يتأذى من الحجر، بل لأنه لا يطيق أن يرى الفلسطيني يلعب، ولو بحياته. لأنه يريده غير موجود وميت وبلا اسم ولا صوت ولا لعبة في الأساس. لأن العالم، (وللخطابة الفلسطينية والأدبيات الفلسطينية والخطاب العشائري مسؤولية في ذلك) لم يصدق أن الفلسطيني يخاطب العالم برسالة الحجر، وأنها رسالة سلمية، وقد تكون موجهة ـ حتى ـ للإسرائيلي نفسه. لن يصدق العالم اليوم أن الديمقراطية الإسرائيلية هي ارستقراطية الأكثرية ودكتاتورية الأكثرية، وانها في عالم، قوام الديمقراطية فيه حقوق الأضعف وحقوق الأقليات، متخلفة عن العالم وعن العصر. إن الفلسطيني الذي يرمي حجراً هو بالتأكيد أكثر حضارية ومعاصرة. «كم يسيئون لذلك ويوفرون سبباً لطمس كل الألم الفلسطيني أولئك الذين يضعون متفجرات في باص للأطفال الإسرائيليين».

الطفل الفلسطيني. لا يسأل أحد من جعله قادراً على اللعب بحياته. من يجعل الفلسطينيين أمام جدار لا يخترقونه إلا بموتهم وبكلفة مرتفعة محسوبة من الدم. لماذا لا يسمع العالم أولئك الذين يجازفون بكل شيء لكي يُسمعوا. لماذا نتهم موت الطفل الفلسطيني قبل أن نسأل من هو القاتل. لماذا نقبل بسيكولوجيا عنصرية ترتاب حتى في موت الناس وتبحث عن «التخلف» حتى في رسالتهم

السلمية هذه. من يعطي أناساً حق القتل ويشتبه بحق الموت لأناس آخرين. وأي عالم هذا هو الذي يلقي على الأطفال مسؤولية موتهم، بدون أن يتساءل لحظة، عن أي يأس وأي بؤس دعاهما إلى المجازفة بالحياة.

بيروت

إقبلونا ضيوفاً ...

نزيه أبو عفش

ما علينا ـ بعد كل هذه السنين، وبعد كل هذا الدم ـ إلا أن نتأمل وننتظر.

جرحٌ مفتوحٌ ، وعدالةٌ شائخةٌ ، وضميرٌ إنسانيٌّ كسولٌ وأعمى.. لا يفعل غير أن يَعُدّ حصيلة الخراب ويتأفف من وفرة دماء الموتى!... وأيضاً : ينتظر.

ضجرت ذاكرةُ التاريخ. ضجر الشهود. ضجرت الأسلحة والقوانين والمذاهب والسماوات، وضجرت أرواح الموتى. لكنْ ـ وحدها ـ شهوة القاتل إلى مزيد من الدم.. لم تضجر! الدمُ يشحذ شهية الدم.

منذ خمسين عاماً ، وعلى شاشة الملأ الكوني، تترقرق (لكنْ.. دون أن تُرى!) الدمعةُ الأكثر إيلاماً وسطوعاً في تاريخ صناعة العذاب؛ وتفيضُ (لكنْ.. دون أن تُسمع!..) غصّاتُ الأمهات على حافة الدمار؛ وتعلو صيحةُ الضمير الأعزل الحزين الكفيف، مستنكِرةً ومستنكَرة، كأنما هي صيحةُ ميتٍ طالعةٌ من قاع التابوت : ثمة أطفال موتى.

ودائماً : ثمة أطفال موتى !..

ودائماً : ثمة الأمل.

أطفالٌ موتى. أطفالٌ يتطوعون للموت.

أطفالٌ (قبل أن يصيروا موتى) كانوا أحياء كالأحياء. أحياء بسببِ « تسامحِ » القاتل وغفلةِ عين الجلاد : أحياء بالمصادفة!...

أطفال أطفال، منذورون لمجدٍ واحدٍ ووحيد هو الموت. يقاتلون ـ ليس بأكثر من الأمل ـ فولاذَ العالم، وكسل ضمير العالم، وصمتَ العالم، وضجر العالم.. عالم مقسوم بين قاتلٍ أعمى وشاهدِ موتٍ أعمى!.. يقاتلهم العماءُ والجنونُ والمعدنُ وصلافةُ القوة وحيرةُ شهود العار!.. وتقاتلهم شهوتهم للحياة.

أما هم فبماذا يقاتلون؟!.. أما هم فبماذا يواجهون عسف العالم؟!..

بأن يكونوا ضعفاء إلى الأبد، مخذولين ووحيدين وآملين.. إلى الأبد، وبالعدّةِ الوحيدة التي يملكون: إرادة الضحية مترجمةً إلى إرادة حياة، وإرادة الحياة مترجمةً إلى إرادة موت...، وأيضاً بالأمل.

ما علينا ـ بعد كل هذه السنين وكل هذا الدم ـ إلا أن نواصل التأمل في هذه التراجيديا الضارية، لعلّنا نستطيع التقاط أسرار المعجزة التي تترجم شهوة الحياة إلى شهوة موت: (من يعرب هذه الأحجية؟..)

أطفالٌ.. أو شبيهو أطفال.

أمضوا حياتهم وهم يشكرون أنْ ثمة من «يرى موتهم»! الآن يتوجب عليهم أن يباركوا أولئك الذين يصنعون أو يشاركون في صناعة ذلك الموت!!.. عليهم أن يكونوا سعداء لأنهم ما زالوا يملكون من «لقمةِ الحياة» ما يمنحهم الفرصة لمزيد من الموت، أو.. لمزيد من الموت.

وحدهم في عراء الخليقة الدامي. تقذفهم الرياح الكونية من بيتٍ مغزوّ.. إلى بيتٍ يتهدم.. إلى هواء يتهدم.. إلى جغرافية تتهدم.. إلى عدالة تتهدم...، إلى أملٍ يضيق ولا يتهدم!.. ذلك هو العراء الخالص.

وفوقهم (فوق، في الأعالي الكونية) يترنح القتلة مأخوذين بنشوة النصر. يأخذون دمهم ويَعِدونهم بـ«كعكة السلام».. السلام الذي من دمٍ وآلامٍ، ونحيبِ أمهات! السلام الذي من رصاصٍ وبغضاء وأعلامٍ ملفوفةٍ على جثثِ صبيان لم يُتَح لهم الوقت ليكبروا ويصيروا رجالاً! السلام الذي لا يعرف من أوصاف «سلامه» غير أن يكون أحبولة موت.. أو موتاً مضافاً إلى لقمةِ موت!..

سلام يؤجل سؤالَ الحياة إلى ما بعدها: كرامةٌ مؤجلةٌ، سعاداتٌ مؤجلةٌ، هواءٌ مؤجلٌ، ألعابُ طفولة مؤجلة، وأعراس مؤجلة، وعيدُ حياة مؤجل، وبرتقال مؤجل، وقبلاتُ شباب مؤجلة.. وعلمٌ مؤجل.. وهوية مؤجلة!!..

لكنْ، كيف يمكن أن تؤجل الحياة؟.. إلى متى يمكن تأجيل أحلام القلب؟..

أحلامُ القلب؟!.

لكن، بماذا يمكن أن تحلم قلوب الأطفال فيما الحياةُ مسروقةٌ والموتُ يتربص ـ صاحياً ومدججاً ـ بين حافة قلب الضحية.. وحافة سماوات الرب!..

مع ذلك يحلمون!

يحلمون أن يموتوا «فيما بعد».. على أرض أوسع من قبر وأضوأ من هاوية. يحلمون بعدالة تملك القدرة على تأجيل ضربة الموت ريثما تبدأ لسعةُ الحياة. يحلمون أن يموتوا كبشرٍ «عاشوا». يحلمون الحياة. يحلمونها بعذابٍ ودم.

ربما سيأتي يوم (نشهده ولا يشهدونه) تُنسى فيه عذاباتُ الدم. لكن من سيكون بوسعه أن ينسى أن كل ذلك الدم (الدم الدم) سال على الأرض نفسها حيث كان القاتل، خلف قناع القديس، يطلق هدايا الموت. فيما الأطفالُ ينشدون من علياء كوابيسهم:

«تحيا الحياة... وتحيا أرضُ الحياة».

ـ لكن، ما الذي فعلوه ليموتوا؟..

ـ كانوا ينشدون : نريد أن يكون لنا بيت كالبيت، وهواء كالهواء. أن يكون لنا سماءٌ ومئذنة وشجرة وعلم وحقول وأغنياتُ عيد. لهذا كان لا بد من إسكات شهقة الأمل بالرصاص. رصاصٌ لذبح أغنية!..

ودائماً ، خلف القاتل، كان حلفاء وقضاة وجيوش. وخلف الضحية.. العماءُ والصمت. وخلف العماء والصمت أطفالٌ يقيمون أعراسهم على حوافّ المقابر: أعراسٌ مجللة بالسواد ومبللة بالنحيب. أعراس دم.

ـ لكن، كيف يمكن أن تُمنح الحياةُ لمن لم يخرج من أرض؟!. يقول أنبياء إسرائيل الجُدُد.

ـ الفلسطينيون مولودون من الهواء. إذنْ أعيدوهم إلى مسقط رأسهم الهواء، إلى أمهم الهواء، إلى وطنهم الهواء، إلى تاريخهم الهواء. أعيدوهم إلى نسبهم الهواء. لكن، أيها الأنبياء، حاذروا: ليس أمامكم من أمل غير أن تطردوهم خارج الخريطة الكونية كلها. أطردوهم من التراب، والمنزل، والشجرة، والريح، والقصيدة، والقبر. أطرودهم إلى زوالهم. ذلك هو الحل.

إلى زوالهم، لأن كل ما قد يذكّرهم بالحياة (على أرض حياتهم) سيتحول مع الزمن إلى كمينِ موت. فإذن: اقتلعوا الذاكرة. ستعيشون (إلى الأبد؟) على أرض تكرهكم. إن لم تقتلكم كراهيةَ الضحايا.. ستقتلكم كراهية الهواء.

ـ وهل ندفنهم في الريح؟..

ـ أعتقد أنكم عازمون. لكن لا بد من تذكيركم بين الوقت والآخر، بين المذبحة والأخرى: إنهم يريدون أن يظلوا أحياء، فيما تريدون أنتم ـ بدهاء القاتل وفزع الجلاد ـ أن تجردوهم حتى من حقهم في أن يكونوا أحياء، حتى من حقهم في أن يولدوا، حتى من حقهم في أن يموتوا... من حقهم ـ إذا ماتوا ـ في أن يكون لهم جناحٌ متواضعٍ في متحف التاريخ الطبيعي!!... «هم» ليسوا بشراً. ليسوا كائناتِ أرض. ليسوا أحداً وليسوا شيئاً. بل مجرد «لا شيء» غامضٍ ومريبٍ وثقيل الوطأة، يتحرك في الفراغ الكوني؛ عبوةُ أملٍ مصنوعة من لا شيء سوى الأمل؛ مجرد «لا شيء» مُفسِد وعدواني.. ويتوجب الحكم عليه بالإعدام...

لكن، فيما أنتم تقتلون، حاذروا:

بذاكرته المخرَّبة، القويُّ يستطيع أن ينسى ما يشاء من حقائق الحياة. لكنْ ـ حتى هو الأعمى ـ لن يستطيع نسيان التاريخ : التاريخ مليءٌ بهزائم الجبابرة.

ـ وبماذا يمكن أن نُهزم ؟

ـ الحكمة تقول : في مواجهة هذا القدر الباهظ من القوة، ولئلا يكونوا أمواتاً بلا ثمن، خيرٌ لهم أن يخضعوا لمشيئة العقل.. ويكفّوا عن استدراج الأمل.

ـ القويُّ يتكلم بجنونه.. والضعيف بأمله.

علّمنا التاريخ أنه في أحيان كثيرة يمكن للأمل الأعزل أن ينتصر على جنون القوة المدرّعة. إذن سنأمل.

ـ وما الذي تطلبون؟..

ـ العدالة.

ـ العدالة كلمة يتلذذ بمذاقها الشعراء والحمقى. العدالة الوحيدة الممكنة على الأرض هي سلطة المنتصر.

ـ يا لحماقة المدمنين على النصر! .. ما من أحد يستطيع أن يظل منتصراً إلى الأبد. أنتم الآن، إذ تواصلون نصركم الحزين، عاكفون على بناء هزيمتكم. تستطيعون إلى ما شئتم أن تواصلوا صناعة الموت. لكنْ ـ بصناعة الموت وحدها ـ لا يستطيع القاتل أن يسوّي حساباته مع العالم، إذ لا يمكن ـ بالقوة وحدها ـ أن يطمس حسابات الموتى.

ما الذي تستطيعون فعله حين يهب الأموات لنجدة موتاهم؟!...

ـ المزيد من الموت.

ـ يا لحماقة المنتصر حين يبدأ بالانحدار إلى هاوية هزائمه: لا مفرّ أمام المنتصر التاريخي غير أن يتحول إلى سفاح تاريخي، وبعدها.. إلى جثة. السفاح ـ بما يريقه من دم ـ يحدد الثمن النهائي لدمه.

إذن فاسمعوا: إن لم تقتلكم الكراهية.. سيقتلكم استغراقكم في شهوة النصر واسمعوا أيضاً: الجبابرةُ ـ فقط لأنهم يحتقرون الطفولة والضعف ـ تقتلهم أصغر الهزائم.

واسمعوا أيضاً وأيضاً: في واحدة من حكاياته البليغة يروي «أليخاندرو كاسونا» عن ملك قوي ومستبد (إذ القويُّ لا يستطيع إلا أن يكون مستبداً) أنه شاهد في حلمه طفلاً يصارع أسداً. كان الطفل أعزل ولا سلاح له غير براءته. وبنظرة واحدة منه جعل الأسد يتمرغ في التراب!. (*)

أنتم الآن الأسد. أسد مدجج حتى نخاع قلبه بالكراهية والفولاذ.

ـ وأنتم، بماذا ستصرعون الأسد؟..

ـ بلا شيء. بضعف الطفولة.. وقوة الأمل.

ـ قوة الأمل.. أم قوة اليأس؟..

ـ ليس لدى اليائس إلا أن يأمل. الأمل ليس نقيض اليأس: الأمل مغزاه. الأمل معجزة اليائس.

لهذا ـ على هذه المبعدة الغامضة عن نجمة العيد ـ يمكننا أن نرى، خلف دخان الجنون وجلبة القوة، علم فلسطين وشمسها وأشجارها وبيوتها وأعيادها ومدارس أطفالها وحقولها وأشجارها وسماءها.. وتحت سمائها تتلألأ الرئةُ السخيةُ لفرح الإنسان. نرى ونرى. ليس لأننا نثق بأريحية الوحش، بل لأننا نؤمن بقدرة الطهارة على ترويضه، ولأنه لا بد لنا من الإيمان ـ بعد كل هذا الهول ـ بأن في وسعنا، ذات أمل، أن نطحن حديد الدبابات بأسنان العصافير.

.. ..

إذن: أيها الناسُ الضعفاء، الجميلون، الذاهبون بأحلامهم من حافة الموت إلى حافة الحياة...

أيها الناس، هناك، على أملِ القيامةِ، هيئوا لنا المقعدَ والنافذةَ والسماء وظل الشجرة والرغيف وأنشودة العيد ونبيذ بيت لحم المبارك...، واقبلونا ضيوفاً على مائدتكم: مائدة الأمل.

دمشق

(*) هل كان «كاسونا» قبل نصف قرن من الآن يحلم بطفل اسمه: محمد درة؟!..

ذاب الثلج وبان الـ ... مرج

ممدوح عدوان

يذوب الصقيع . . ويتكسر الجليد .

يتململ رشيم، ويمد رأسه من حبة لم تكن تحمل إلا يباسها . ناشفة كانت، وتحمل عطش الرمضاء .

يتململ رشيم فينكسر الجليد . وتمد رأسها سلغونة خجلة، ولكنها عنيدة . تطلق صرختها الخضراء بين الصخور العارية . وتتلفت باسمة وهي ترى انسياح الجليد الذائب الخجل .

***

يذوب الصقيع، ويتكسر الجليد .

كان ثمة ولد يلعب بشيء مثل كرة من الخرق لفها بنفسه . ويركض لاهياً ، ومعه شيء يجاريه مثل كلب أليف يلاعب صاحبه، ويتريّ ض . ركض اللاهيان وتمرغا على الأرض ضاحكين .

***

يذوب الصقيع، ويتكسر الجليد .

كان ثمة ولد يلعب بالموت، أو يلعب مع الموت، كان يعرف أنه موت . أو كان يعرف أن الموت لا يخيف إلا العجائز . أو كان يعرف أنها لعبة الصغار . وأن الكبار باقون في الداخل حول موقد الذكريات . سيكمل لعبته . ولديه ما يكفي من الوقت لأن يكمل ولدنته . سيبقى لديه متسع من الوقت ليرتاح حين يتعب . وسيظل حول الموقد متسع له حين يبرد، ويحتاج الى دفء الذكريات .

فتابع لعبه مع موته . وتابع الموت لعبه معه .

دبت الحرارة في عروقه، وتصبب العرق على جسده كله، وفاحت رائحته شهية، ودبت الحرارة في جسد الموت، أيضاً ، فاستيقظ كلبه .

بدا الأمر مثل مصارعة لاهية بين ولدين، بين ولد وكلب . يتطاردان ويتمرغان ويضحكان .

ولكن الكلب كان قد استيقظ كلبه . وصار كلباً . فاكتشف ذئبيته .

***

ذاب الصقيع بينهما . ذاب تحتهما . وتفتت الجليد .

انتصبت القامة الخضراء من الرشيم المنسي . كانت قامته تستقبل الشمس وتشربها . وراح الاخضرار الوليد يخلع عتمته عنه . عرى أحلامه . وتأجج الرشيم مثل عريس يتأهب بباب غرفة دخلته . تسرب الولد فيه شعاعا دافئاً حاملاً نكهة أرض الآباء، كبرياء وكرامة وموتاً زاهياً .

***

اشتعل الحقد مع أول ضوء . وتراكض البردانون ليستدفئوا .

اشتعل الحقد وأضاء. فبدت الكراهية عارية. وكانت كلها عورة دون تعرية. فلم تصبح أقل بذاءة وقبحاً حين تعرت. خرجت من تحت ابطيها زواحف البيات، وراحت تدب مشرعة نوامسها القذرة وتقذف بسمومها في وجه الربيع.

كأنما ذاب الثلج وبان المرج. وكان المرج مليئاً بالزبالة والعشب. فاحت الروائح، كما تزهزهت الزهور وزهت.

كأنه يوم الدينونة. يأتي الولد بموته كله. وتأتي الكراهية بجشعها كله، وقبحها كله. ويأتي العشب باخضراره كله.

هذه قيامتهم. قامت قيامتهم. ربض الموت الخريفي على أكتاف ولد يانع. وظل الولد يلعب. مات وظل يلعب.

لم يكن يعرف أنه يموت، وظن أنه ما يزال يلعب.

كان يخال أنه يستطيع في أية لحظة أن يحتمي بأبيه. أو يصرخ: أماه. فيستعيد عمره كما يستعيد الدفء فور دخوله إلى البيت. ويثق أن أمه قد خبأت له العروسة ليتناولها فور انتهائه من اللعب.

ولذلك ظل يلعب في العراء، بعد أن مات..

لم توقف الرصاصة لعبه. كانت أقوى من أن يفلت منها. ولكنها كانت أضعف من أن توقف حلماً. وكان الولد يمتطي حلماً نسيه أبوه، أو تغافل عنه، أو اضطر جده إلى التخلي عنه وإهماله.

كان الولد، وهو لا يهتم، أو لا يدري، يشيع حياةً في أرض يباب.

وكان منتشياً بدنيا جديدة تتفتح حوله من موته، ولم ينتبه إلى أنه بلعبه كان يثير زوابع غبار تشيل معها أكوام زبالة الكلام والوعود والخطابات والانتماءات الخاوية.

لم تعد نشوته قادرة على الانحباس فيه. وأراد أن يصيح مغبطاً: تعالوا تفرجوا على موتي. ولكن أمه، كالعادة، ستقول له: دير بالك يا امه. وأحد الكبار سيقول له: يكفي شيطنة.

وسيقول له شيخ حكيم: ما هذه التربية؟ ألم تمنعك من اللعب مع هذه الكراهية البذيئة؟

***

على غفلة ولد شعب كامل من الأولاد الذين يتقاذفون الموت بينهم وهم يضحكون كما يتقاذفون كرات الثلج.

وكانوا يعرفون أن الزحام لن يتيح لأي منهم فرصة للعب أكثر من شوطة واحدة. لكنها كانت لعبة مبهجة. وجديدة. ومدهشة.

ذلك الموت الذي يتستر عليه الآخرون كعورة، ويخفونه عن الأعين كعرض مخدوش، ويشيحون بأوجههم التي تحمله كما يجنبون الآخرين رائحة الثوم من أفواههم.

ذلك الموت أعاد له الفتيان سمعته العطرة.

تسللوا به من خلف المواقد. وخرجوا يلعبون. كانوا سعداء باللهو والبرودة المنعشة والموت. وكل يحمل موته فرحاً متباهياً، وكأن الموت غرة تتأرجح على جبينه.

كان الكبار يتلفعون بالدفء والسترة. وكانوا يتظاهرون بالاطمئنان الى أن الأولاد سيشبعون من اللعب بعد قليل. ويعودون إلى الجلوس حول الموقد. وراحوا يسربون تلك الطمأنينة إلى الأمهات. ثم يتظاهرون بأنهم لا يفهمون معنى أن ينقطع صوت أحد الأولاد وهو يتوقف عن اللعب، ولا يعود إلى البيت.

بعد الإرهاق من المكابرة، وبعد الاختناق من الدموع الحبيسة، والتظاهر بأن دخان الغلايين والحطب الأخضر هو الذي يدمع العيون، قالوا: فلنخرج لنرى وجه ربنا.

وخرجوا عراة من كلامهم. ففوجئوا بتناقص عدد الأولاد. ولكنهم وجدوا ذاكرة مزهرة أمام كل بيت. وفوجئوا بالرشيم يشق طريقه عبر الصقيع.

وبالمرج عارياً متجلياً بخضرته الزاهية..

لم يكن لعباً اذاً. كان اقتحاماً عنيداً ودامياً للزمن. واكتشف العجائز أن الأولاد المقتحمين قد زحموا الدنيا وأفسحوا مجالاً لضوء صار وطناً.

دمشق

عن الانتفاضة والملحمة

وليد إخلاصي

نخجل من الكتابة عن الانتفاضة العربية في فلسطين في زحمة الكلام.

نخجل لأن الكلمات، ما زالت تحوم في الفلك المحيط بجوهر الانتفاضة، ولأنها تصبح فعلاً مجسّداً خارجاً من شرايين جسدها الغاضب وأوردتها. وستكون الكتابة عن هذه الانتفاضة المدهشة فعلاً مفعماً بالصدق إذ تصبح عملاً معادلاً لعظمة اليأس الذي تجلى فيها دون مساومة.

وهكذا تحوّل الإنتظار الذي طال إلى ثورةٍ ترسم المستقبل، تلك الثورة الشعبية التي هي ليست ردّاً على اعتداء الغرور الصهيوني وحسب، بل ثورة على الماضي المدعوم بالظلم العالمي وبالدور الظالم للسلاح المتقدم وهو يقابل الحجارة المتمردة.

هل نخجل من الكتابة لأننا بانتظار «هومير» عربي كي يسجل ملحمة التحرر الحديثة وهي تتخبط في بحر التآمر الدولي، أو لأن الملحمة التي ستُكتب بالكلمات ستكون المعادل الحقيقي لعظمة هذه الانتفاضة؟

المقهورون وحدهم يمهّدون الأرض أمام من سيكتب تلك الملحمة لتدخل في سجل التاريخ كعملٍ عظيم يوازي الملاحم الكبرى في حياة الإنسانية.

الغاضبون هم الذين يصنعون أُسُس عمارة الملحمة التي ستنتصب في مسيرة التاريخ شاهداً على أن الكتابة فعلٌ يوازي عظمة الغضب.

لذا فنحن نخجل من الكتابة عن الانتفاضة التي ما زالت انشاءً لغوياً يبرر هزيمة قدراتنا على الدوران خارج النبل التاريخي المتمثّل في غضب الانتفاضة.

قدر الفلسطيني المعاصر أن يحمل وطنه معه في هجراته، وقدر الفلسطيني أيضاً أن يحمل لوعة الانتماء إلى التراب الذي أنبته، وقدر الفلسطيني كذلك أنه يُقايض رصاص الأعداء الغادر بحجارة الألم الغاضب، وقدر الفلسطيني أن يُساند بالنحيب العربي ويُمطَر بوابل الخطب المتعاطفة وباللغة المنسوجة على نول البلاغة.

وقدر الأطفال في فلسطين ألا يبلغوا الحلم، بينما قدر النساء أن يُصبن بلوعة الحزن على الأحباب، وقدر العائلة هناك أن تُمزَّق أطرافُها المتماسكة جوارح التعسف الظالم.

ألا نخجل من تسطير الحروف وحسب، بينما يخجل الفلسطيني من الاستسلام فيحوّل مسيرة الحياة إلى نقمةٍ لا يملك فيها سوى الرفض والحجارة؟

لهذا ولذاك نتطلّع جميعاً إلى ملحمة البطولة التي تمثّلت على الأرض بالمقاومة، والتي ستتجلّى في تصحيح التاريخ بأمثولة تكتب لكل الشعوب ملحمةً خالدة تُقاوم الموت المتعسف وتكشف زيف قوة الذراع والسلاح، لتمجد ألق الروح الشعبية التي تكتب الشعر بإيقاع الانفتاح على الخلود.

لا أقول إن الرأس تطأطأ أمام الموت من أجل الوطن، بل أن الرأس لتظل مرفوعةً فخراً بشعبٍ أعزل يؤمن بأن الشجرة إذا ما اقتلعت تفجرت جذورها حياةً جديدة، وتلك هي ملحمة الإنبعاث من رماد القهر وهي بانتظار من يُدخلها ذاكرة التاريخ عملاً عظيماً يشع منارةً في المسيرة الظالمة التي تنشر ظلمتها قوى الشر في هذا العالم.

حلب

على حافة الليل
بلا فجر ولا قيامة

محمد برادة

مثل مُسَرْنَمٍ أسير وسط ظُلمة مُطبِقة وأنا أَهذي مُردّداً ما سمعتُه وشاهدتُه منذ هزيمة ١٩٦٧...

لكن تجدُّد الانتفاضة، هذه المرَّة، حمل أَملاً ونبَّه السائرين نياماً مِثْلي: لُعبة التّخبئة لم تعد تجدي مع إسرائيل. سبع سنوات من التّسويفات والمفاوضات والانتظار، وشعب فلسطين يتنزَّى في قيوده، ونحن نتابع من بعيد، صامتين أو معلقين على تصريحات المتفاوضين. ولعلنا عوَّدنا النفس على تلك

المسرحية ـ اللعبة التي تهدئ بالَ العالم كله، إذ تُوهمنا بأن السلام آتٍ ولو دامت المفاوضات خمسين سنة أخرى!.

تَفجُّرُ الانتفاضة ورشقات الحجارة، ودماء الأطفال والشباب أيقظت الجميع من الغفوة المريحة لأنها ذكَّرتنا بالبديهيات: إسرائيل في حقيقتها العارية دولةٌ محتلّةٌ لها مُ ممارسة المستعمر، وترفض الاعتراف بحرية ووجود مَنْ سلبتْ أرضهم... سقطت الأقنعة، وتوارتْ رموز الديمقراطية والاشتراكية والعلمانية التي تدثَّر بها مؤسسو الصهيونية والمصفّقون لها في الغرب.

من ثمَّ فإن هذه الانتفاضة هي حدَثٌ ـ قطيعة لأنها تطمح إلى أن تُخرجنا من الواقع القائم لِنُخَايِلَ واقعاً مُمْكناً يتحرر فيه الوطن والمواطن. والحدث ليس مجرد أَحداثٍ تتطاير أنباءَها وسائلُ الإعلام؛ إنه هزَّة عميقة مُخلخِلة للوعي المخدَّ ر، المستَلَب. الانتفاضة هي حَدَ ث مهور بالدّ م، محفوف بالأسئلة الجوهرية، أسئلة الحرية والسيادة والتحرُّر: شعب يرفض الاستمرار في العبودية والتهميش. شعب فلسطين جزء منَّا يأخذ الكلمة باسمنا جميعاً لِيُنبّه المسؤولين المزعومين عن السلام في العالم...

رسالة الانتفاضة ـ الحدث هذه، قوية في بساطتها، مقنعة بشجاعة أطفالها وطلائعها وقُدرة شعبها على المقاومة. لكن الأمور ليست، للأسف، بمثل هذه البساطة والوضوح لدى الجميع. ذلك أن السياق العربي ـ ماضياً وحاضراً ـ ينتصب مثل حَاجِبَة الوميض ليمتصَّ اللَّهب ويعزل شرارات الانتفاضة عن مجالاتها الطبيعية. ولا يقتصر الأمر على ظُلم ذوي القُربَ ى، بل هناك أيضاً عمَى الألوان الذي أصابَ أمريكا وأوروبا بما فيها فرنسا، بلد الثورة المناصرة لحقوق الإنسان.

خلال هذه الانتفاضة التي تختم شهرها الثاني، عشتُ أَ حداثها من مواقع ثلاثة: لبنان، سورية، فرنسا.

فكيف كانت تبدو الصورة؟

في بيروت، كانت الانتفاضة حاضرة بِقُوة ومعها كلّ الآمال، لأن حركة المقاومة اللبنانية، وبِخاصّةٍ حزب الله، كانت تُدعّم الانتفاضة من خلال الفعل المقاوِم المتمثّل في أَسْرِ ثلاثة ضُباط إسرائيليين واستِدْ راج عضو في المخابرات الصهيونية إلى شَرَك الاعتقال... أَتَى ذكاءُ الفعل والتّخطيط المحكَم لِيَهْدم أُسطورة إسرائيل التي لا تُقْهَر! وبعيداً عن الخلفيات الإيديولوجية، كانت تدخُّلات حزب الله تكتسي طابعاً سياسياً يُ ثبت على أرض الواقع، ما تستطيعُه القُوَّى العربية المنظمة إذا تَرْجَمتْ المقاومةُ إلى عمل دائبٍ ، مُستمر..

وفي سوريا، كان هناك حماس وتجاوُب فَتدفّق المواطنون على المظاهرات لمساندة الانتفاضة ومهاجمة أمريكا.. لكن الخطاب الرسمي كان عالياً يَمْتَصُ الغضب العامَّ الذي يجب ألا يَعْلو على موقف الدولة الرافض للتفاوض مع إسرائيل وِفْقَ شروطها.. إلاَّ أن حادثة بسيطة أثارت انتباهي حين أمضيتُ ليلةً واحدةً بِحَلَب الجميلة. فَقَد تَنَادَى عشراتٌ من كُتَّاب وفنّاني هذه المدينة لِيَقِفوا في ساحة الشهداء مُ عبرين عن مساندتهم للانتفاضة. والجديد في المبادرة، هو أنَّهم لم يطلبوا إِذْناً بالتظاهر كما

تقتضي ذلك أَجْهزةُ الأمن منذ ثلاثين سنة. وفي الساعة الحادية عشرة امتلأت الساحة بالأدباء والفنانين ومعهم أطفالهم وبناتهم وهم يرفعون اللاَّفتات وَيَطوفون بالساحة هاتفين ومُندِّدين .. بعد نصف ساعة، تَوَافَدَتْ على الساحة جماعة من أعضاء حزب البعث يرفعون لافِتاتٍ ويهتفون ضد إسرائيل؛ ذلك أن مكتب الحزب لم يكن بعيداً عن الساحة، فَفُوجئ المسؤولون بِمبادرة الكُتَّاب وقرروا هم أيضاً التَّظاهر بسرعة.

وفي باريس، تبدو صورةُ الانتفاضة وأصداؤها مُتلوِّنة، مُتباينة تبحث عَبَثاً عن تَوازُنٍ لا يُغْضب الإسرائيليين وأنصارهم المستعملين دَوْماً لمسألة معاداة السَّامية حتَّى يُلْجِموا التعبيرات المُتضامِنة مع قضية فلسطين. والذي كان فاضِحاً، هذه المرّة، هو موقف لوكريف Le korif، هذا المجلس الذي يضمُّ مجموعة كبيرة من اليهود الفرنسيين ويُخوّل لنفسه الدفاع عن الديانة اليهودية ومَنْ ينتمون إليها، مع التحيُّز لوجهة النظر الإسرائيلية... وبمجرد انطلاق الانتفاضة، كشف المسؤولون عن «لوكريف» مَوقفَهم المتحيّز بل وانتقاداتهم الوَقِحة تجاه الدولة التي يحملون جنسيتها، فَخِلال حفل العشاء المُقام كل سنة والذي يحضره رئيس الحكومة والشخصيات البارزة، لم يتردَّد رئيس المجلس في أن ينتقد السياسة الفرنسية المناصرة، في نظره، للفلسطينيين وإعلان أن فرنسا هي «خارج اللعبة» الدولية بسبب هذه المناصرة! وفي نفس الاتجاه، يَتَنَادَى اليهود المنتمون لهذا التيار إلى تنظيم سفريات عاجلة إلى إسرائيل تضامناً مع الدولة العِبرية المهدَّدة بِالزَوال على يد أطفال الحجارة!.

أما الذين «يصنعون» الرأي العام الفرنسي، عبر وسائط الإعلام والنداءات الرنَّانة، فإنهم يُغمضون العيْنَ أو يقولون كلاماً يُساوي بين الضحية والجلاَّد، والعشرات، من الشهداء الفلسطينيين الذين يسقطون كل يوم، يُشار إليهم بكلمات معدودة في التلفزيون وكأن هذا القَتْل الذي تُمارسه إسرائيل مُبرَّر ومقبول!.

لقد كنتُ، عند انطلاق هذه الانتفاضة وما فَجَّرَتْهُ من حماس لَدَى كل الشعوب العربية بدون استثناء، ميَّالاً إلى أن أقرأ الظاهرةَ على أنها تعبير مُشترك عن رفض استمرار الاستعمار الإسرائيلي، وعن رفض أوضاع القَهر واللاّديمقراطية المفروضة، مُنذ عقود، على المجتمعات العربية. كانت تلك المظاهرات الحاشدة تُذكّرنا بشيءٍ بديهي لَمَسْنَاهُ منذ هزيمة ١٩٦٧ وهو: كيف لم يفكر العرب وأنظمةُ حُكْمه، طوالَ خمسين سنة من الوجود الإسرائيلي، في الأسس الناجعة التي تسمح بالحدّ من سطوة إسرائيل وتتيح للكفاح الفلسطيني أن يُحقّق أهدافه العادلة، وللجماهير العربية أن تتخلص من التخلُّف والتبعية والحُكم الفردي؟

هذا هو الجُرح الذي لا تنفع معه الكلمات.

كل شيء في عالمنا العربي، يفصل المواطنَ عن القضية الأساسية التي تُكوِّن فلسطين حلقةً جوهريةً داخلها: تحرير الأرض وتحرير الذات من تسلُّط الحاكمين. ومن هنا يبدأ الليل الشاسع الذي يكتم أنفاسي فَأحِسُّني كالمسرنَم أغتنم اليقظة اللاَّشعورية لأَهذي بالكلمات التي لا تُطاوِعَني في حالة

الصحو، حيث أتحول إلى متفرّج عبر الشاشات الصغيرة وعبر التصريحات والتحقيقات الصحفية... وَضْعيةٌ مَتَاهيَّة لا يمكن أن أُمْسِكَ لها برأسِ خيْطٍ يُعَقْلِنُ هذه الأحداث المتناقضة التي تُشْعِرني بالعجز المطلق.

الفلسطينيون وحدهم يستطيعون أن يتحدثوا عن أملٍ مُمكن يَنْبثقُ من دفقات الدَّم وَوُضوح الموت. المواجهةُ عندهم تَعني الفعل الذي لا يقفُ عند حدود الكلام والنوايا، وإنما هي فِعْلُ وُجودٍ يصرخ أمام كل العالم بأَن الاستعمار غير مقبول وبأن الحرية والسيادة مَبْدآن لا يمكن التخلي عنهما مهما كانت سَطْوةُ الجيش الإسرائيلي وَعَمَاءُ الدول الكبرى المتفرِّجة على إسرائيل وهي تستعرض عضلاتها...

في مثل هذه الوضعية، كيف أُقْنِعُ النَّفس بأن عدالة القضية ستَحميها من وحشية الذين يمارسون سياسة اليَد الطُّولى ولا يحترمون قوانين المنظمات العالمية؟

أكتفي بأن أُتابع المشهد. أنام وأصحو لأُحْصيَ عدد المستشهدين، وأتابع مواكب الدَّفن وحركات الأذرع الفتيَّة الملوِّحة بالحجارة.

كيف يستعيد المنطق قُدرتَه على إقناعي بأن هذه المواجهة غير المتكافئة لَنْ تُعرِّض جزءاً كبيراً من شعبي هناك، للإبادة؟.

لماذا تبدو الظلمة عائدةً بنفس القوَّة بَعْدَ أن نجحتْ الأنظمة في ضَبْط الشارع العربي، وإِصدار قَرارات قِمَّةٍ لا تغيّر شيئاً؟.

لماذا الماسِكُونَ بزمام العالم يُعبّرون عن تخوفاتهم من زَعْزَعة دولة إسرائيل ولا يُنادون بتصفية الاستعمار في فلسطين؟

مِنْ أيِّ موقع، إذن، أَتكلَّم ويكون لِكلامي معنىً أَوْ ثقل؟

أحس كأن حَاجِبات الوميض تَنْتصب من جديد، وقُوى التَّغيير تُحبَس داخل قُمْقُمِ السلطة وتحايلاتها التي لا تبغي سوى الاستمرار مهما كانت التنازلات.. ودفقات الدَّم الفلسطيني، عبر التلفزيون، تذكِّرني أكثر فأكثر، بهذا العجز الخانق. تُذكِرني بالحصار المضروب على غزة والضفة الغربية والقدس فِيما القذائف والصواريخ تواصل هَجَمَاتِها، وليس هناكَ فِعْل عربيّ يساند بِالملموس انتفاضة التحرير...

لأَكُون صادقاً أقول إنني الآن، وأَنا غارق في عجزي، أُحسُّني على حَافَة ليلٍ طويل، بَهِيم، ولا أَستطيع أَن أُعزّي النفس بأنني أَنتظر فجراً أوْ قِيامة.

باريس

فلسطين المكان الذي غدر به الزمان

محمد لطفي اليوسفي

الهبوط إلى العالم السفلي

سأحدّث عن المكان.

لأنني كنت هناك في أريحا ورام الله وبيت لحم ومخيّم الأمعري والبيرة وبيتونيا ومشارف القدس؛ لأنني ذهبت للمشاركة في مهرجان فلسطين الشعري الأول، لكن الشعب الفلسطيني العظيم أبى إلا أن يجعلنا نعيش فلسطين متوهّجة غضباً ودماً وناراً ، فشهدنا انتفاضة الأقصى تسطّر أمجادها؛ ولأنه من الصعب على من يدخل فلسطين أن يشفى منها تماماً ، فحالما يطأ ترابها يتسلّل شيء ما قدسيّ ، شيء سحريّ ، هشّ ، مشتهى، شيء يخترق الجسد ويستبدّ بالروح، سأحدّث عن المكان.

لأنني رأيت كيف يتخفّف المكان من مادّيته وصلابته ويستعير من الحلم شفافيته وفتنته؛ لأنني رأيت الحلم يشهد من التكثيف ما يحوّله إلى مكان صلب قاس مهيب يربك الجسد ويدوّخ الحواس سأحدّث عن المكان. عن الهبوط الجحيمي إلى أرض أريحا الصابرة تحت شمس قرّرت أن تحرق كبد العالم؛ عن جبالها الرواسي وخطوات المسيح على جبل التجربة؛ عن رام الله الناظرة صوب القدس المحاصرة؛ عن وادي النار؛ عن بيت لحم؛ عن كنيسة المهد؛ عن فلسطين المكان الذي غدر به الزمان.

سأحدّث عن أب مثقل بالهمّ مكدود نتقدّم إليه بالعزاء فيغالب الوجع مزدهياً بأنه قدّم ابنه الطفل محمد نبيل علي حامد البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة فداءً لفلسطين وكرامة الأمة العربيّة. عن المكان عدوانياً ووحشياً؛ عن المكان واقعاً أرضياً مضرّجاً بدم الأبرياء؛ عن الفعل رسولياً؛ عن الوجع ربّانياً؛ عن قطّة هدّ ها الإعياء رأيتها تهبط مدرجاً يتفرّع عن شارع النجمة طريق المطارنة المتلّفت صوب كنيسة المهد. سأحدث عن الدمع مكتوماً وسرّياً؛ عن الأرض أُمّاً تتغذّى بلحم بنيها؛ عن عرب الجهالين يحيطون بالقدس خياماً وقطعان ماعز تبحث بين الصخر عن أعشاب وهميّة لا ترى وتعلك الضجر؛ عن طفلة تلبس مريلة صفراء وقفت في الساعة التاسعة صباحاً قدّام بيت متداعٍ في مدخل البيرة تراقب أطفالاً في سنها لم يتجاوزوا السابعة، يجمّعون حجارة وإطارات سيارات استعداداً لمواجهات بعد الظهر.

عن الزغاريد مأهولة بالنوح مكتوماً سأحدّث؛ عن معركة سرّ ية تجري في المكان بين الألوان، الأصفر والأزرق والأبيض وما بينها من صراع رمزيّ إشاريّ مدوّ خ؛ عن المغارة التي سجد فيها المجوس قدّام المسيح وطرحوا كنوزهم ذهباً ولباناً ومرّاً؛ عن المساجد تبكي مسجد عبد الله بن عمرو بن العاص في الرملة وقد صار مرقصاً ليلياً ، عن الكنعانيين يسرق حلمهم وتراثهم ومدائنهم وطريقة مقامهم على الأرض؛ عن جبل أبو غنيم؛ عن قمم الجبال والهضاب مزروعة بالمستوطنات؛ عن المكان حين يصبح جنداً ويصير عسكراً وخسراناً لبني البشر أجمعين، عن الصبر فلسطينيّاً ، عن الرّعب صهيونيّاً ، عن اتفاقات أوسلو يذروها مكر الصهاينة هباءً ومرارات، زبداً وطواحين ريح.

■

توجّهنا إلى فلسطين بعد يوم واحد من استشهاد محمد الدرّة في حضن والده يوم الأحد ١ تشرين الأوّ ل ٢٠٠٠، قتل الطفل على مرأى من الدنيا قاطبة. الأرض لم تصب بقشعريرة ولا الشمس أفلت. وحده الدم ظلّ صارخاً في العراء. قتل الطفل البارحة وها نحن نتوجّ ه صوب فلسطين، صوب جسر الملك حسين. صباح يوم الاثنين ٢ تشرين الأول أي بعد مضي ٥٢ سنة لا غير على وقوع فلسطين في قبضة اليهود، وبعد مضيّ ١٠ سنوات فحسب على محرقة العامريّة واللّحم العربيّ مشويّاً حتى التفحّ م، وبعد مضيّ سبعة قرون لا أكثر على رحيل القائد الأعظم صلاح الدين الأيوبي. صار عمر الولايات المتّحدة الأمريكيّة قرنين من الزمان لا غير.

■

هبوط مدوّخ باتّجاه الغور حيث نهر الأردن. مكدودة تنزل الحافلة على الطريق الملتوية باتجاه المكان الأشدّ انخفاضاً في العالم حوالى ٣٥٠ متراً تحت سطح البحر. الضغط يصمّ الآذان. هناك بعيداً في الأفق تبدأ جبال أريحا بالظهور جرداء لا نبت ولا شجر، شهباء مشوبة بصفرة باهتة حتى لكأنها غيوم هائلة تجمّدت على الأرض. هكذا يبدو المشهد للوهلة الأولى. مشهد قياميّ لا يمكن أن يجري إلا في حلم. لكأن المكان نفسه يفقد صلابته كلما اقتربنا منه ويتخفّف من مادّيته فتفقد الموجودات ألفتها لتتّشح بغلالة من القسوة والفظاظة.

في غور الأردن لا شيء يدلّ على وجود حياة سوى بعض مزارع الموز التي تبدو مثل بقع خضراء محاصرة بالقحط والسخط في آن معاً. مزارع الموز تبدو مصابة بالذعر. شجيرات متلاصقة متراصّة بعضها متداخل بالبعض الآخر كأنه يبحث عن حضن أو عن بعض من دفء. بالقرب من تلك المزارع حدثت في ذات يوم تلك المعركة التي سيسمّيها العرب تبرّكاً معركة الكرامة.

على الطرف الآخر من الجسر الفاصل بين الأردن وأرض فلسطين التي صارت تسمّى حتى لدى العرب أنفسهم إسرائيل، بعضٌ من حياة توحي به أشجار أريحا الصابرة ومزارعها التي تبدو مثل بقع خضراء رميت في المكان صدفة واتّفاقاً. كنا نتقدّ م باتجاه فلسطين، الحلم العربي الذي ما يفتأ يعاود الظهور في كلّ مرّة تصبح فيها الكرامة العربيّة مجرّ د ذكرى، وتصبح الشعوب العربيّة مثل الهوام لا أمل ولا فرح ولا نسمة من حياة.

فلسطين لم تعد موجودة على خارطة العالم. لقد تمّ محو الاسم. حدث فعل استبداله. ونحن لا نتقدّم باتجاه بلد بل نمضي إلى حلم شرس مروّ ع أو باتجاه وهم. المكان لا يملك تحت الشمس غير اسمه. واسم فلسطين قد تمّ محوه من خارطة العالم، تم محوه من المعاجم ودروس الجغرافيا حتى لدى بعض المؤسسات الحكوميّة العربيّة المجيدة. لكن الاسم احتمى بالوجدان العربي حزناً صامتاً عميقاً سنظلّ نتوارثه جيلاً بعد جيل. وطوبى للحزانى.

■

مشهد خلفيّ يشبه المهزلة : عندما ذهبت إلى السفارة طلباً لتأشيرة العبور إلى الأشبار المحرّرة من أرض فلسطين كانت نبيلة معي. على شبّاك مكتب الاستقبال وضعت ورقة تحمل البشارة للمواطنين

العرب بأن سعر التأشيرة قد تضاعف مرّات. أشارت نبيلة إلى الخارطة وهمست: إنك تذهب إلى بلد غير موجود على الخارطة، إذا ضعت كيف أبحث عنك في مكان لا يوجد على خارطة الدنيا؟ لم أفهم ما قصدت، فأشارت إلى الجهة اليسرى. على الجدار علّقت خارطة ترسم حدود بلدان المنطقة: العراق الأردن سوريا لبنان إسرائيل مصر.

قلت لها مداعباً: هذا خطأ مطبعي. فغضبت. قلت: اسمعي نحن أمّة ذات رسالة عظيمة حتماً سنستردّ أمجادنا في نهايات الزمان، وسنسود العالم من جديد. إن غداً لناظره... هكذا جاءتني الإجابة. قاطعتها قائلاً: عندما يحين الحين ويأتي زماننا سنسمّي أمريكا أرض الرجال الحمر أسياد الدنيا، ونعينهم على طرد الرجل الأبيض زارع الخراب. وسنسمّي المكسيك بلاد المايا والأزتيك. سنثأر لأنفسنا من روما التي روّعت أطفال قرطاج، وسنستورد من السماء حكّاماً عادلين يملأون بالحلوى والأقلام الملوّنة جيوب الأطفال ولا يأكلون اللحم العربي نيّئاً.. في المساء رفضت أن تعود معي لاستلام جواز السفر وادّعت أنني أخطو باتجاه خيانة ما. دخلت السفارة وحيداً بعد أن آليت على نفسي أن لا أنظر إلى الخارطة. ونجحت في تحقيق هذه البطولة التي ستنضاف إلى أمجاد العرب العاربة والعرب المستسلمة. خيّل لي أن موظّف السفارة يبتسم لي فابتسمت له.

■

الحافلة تواصل التقدّم ودرجة الحرارة تزداد ارتفاعاً. كنت على يقين من أننا لا نمضي إلى مكان بل نتقدّم باتّجاه حلم له كلّ مواصفات الكابوس. هي ذي... هي ذي فلسطين. الأرض المقدّسة التي برعت في أكل لحم أبنائها المتسابقين إلى الموت. مكان غدر به الزمان. مكان يلتقي فيه يهوشع بن نون مع العمالقة من الكنعانيين وربّه إله الجنود يستحثّه في نبرة ساديّة مروّعة على إراقة الدم وقتل النسل وإحراق الزرع. لحظة ويحطّ البراق على حائط المسجد الأقصى وتنفتح السموات. فيكون إسراء. ويكون معراج والنجوم تترجّل في ساحة الأقصى. لحظة أخرى ويأتي يهود يهزّون الرؤوس بقرب الحائط الذي سيدّعون أنه أعدّ لبكائهم.

ريتشارد قلب الأسد يعبر البحار مدجّجاً بالضّغينة. صليبيون جاؤوا وأبادوا الناس في عكّا. صلاح الدين الأيوبي العابر من جبال الأكراد على فرس صارع الريح والنوء يأتي منقذاً ومخلّصاً. الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي يخرج للتوّ من مقصورة في الأقصى ويمضي باتجاه دمشق. عبد الغني النابلسي هنا أقام، هنا درّس قبل مجيء اليهود بقليل. المغاربة ببرانيسهم الصوفيّة جاؤوا من شمال افريقيا وخلعوا اسمهم على باب من بوابات الأقصى.

يوحنّا المعمدان يكرز في البرّية قائلاً توبوا لأنّه ملكوت السماء اقترب، أليعازر ينهض من القبر، يوسف النجار يسوق حماراً مكدوداً ينشد الوصول إلى أرض مصر كي يتمّ ما قيل من الربّ بالنبيّ القائل من مصر دعوت ابني. عمر ابن الخطّاب يترجّل عن فرسه الآن وكبير مطارنة كنيسة القيامة يدعوه للصلاة في كنيسته فيبادله كرماً بكرم. صوت في الرامة نوح وعويل راحيل تبكي أولادها ولا تريد أن تتعزّى لأنهم ليسوا بموجودين. هي ذي فلسطين إذن. هو ذا المكان. مكان غدر به الزمان. وللفلسطيني أن يدفع الثمن دماً ودموعاً. ولنا نحن المقيمين خارج فلسطين أن نسمّي ذلك بطولة كي

ندرأ الوجع ونتخفف من تأنيب الضمير. وطوبى للحزانى!!!.

عبور الصّراط : جسر الملك حسين

جسر على نهر الأبديّة. جسر تسيل تحته مياه ضحلة ضاربة إلى الصفرة. هو ذا نهر الأردن. جسر خشبيّ كأنه خربشة بقلم رصاص على ورقة منزوعة من كتاب قديم نهشته الأرضة دهراً. جسر متواضع في منتهى التواضع. طوله عشرة أمتار أو أقل. وعرضه بالكاد يتجاوز المترين. في وسطه، في وسطه بالضبط، رسم بالطلاء الأبيض خطّ هو الحدّ الفاصل بين الأردن وفلسطين القابعة في الأسر. والخطّ الأبيض يضعك منذ الوهلة الأولى في حضرة العدالة الصهيونية التي أعطت للأردن نصيبه من هذا الجسر وأخذت نصيبها.

على يسار هذا الجسر الخشبي الهرم الذي رأى الويلات كلّها، وشهد وصول الانجليز والأمريكان، ورأى وصول الإسرائيليين، ورأى هجرات الفلسطينيين في اتجاه بقاع ستسمّى مخيّم اليرموك، مخيّم فلسطين، مخيم صبرا، مخيّم شاتيلا مخيّم الوحدات مخيم عين الحلوة، ثم تصير المخيّمات مدناً من إسمنت رماديّ ضارب إلى السواد؛ تصير المخيّمات أحلاماً بعودة تزداد استحالة كلما انضاف إلى الزمن العربي ليل آخر ـ على يسار هذا الجسر المقفل بالوجع ربّانياً ـ ثمّة أشغال حثيثة.

جرّافات، شاحنات، أعمدة حديديّة ضخمة. تلك تباشير هبات السّلام، مرّة أخرى تأتي التسميّة محمّلة بالمكائد. وطوبى لصانعي السلام. مطلوب منا أن نهلّل ونفرح نحن العرب الواقفين على شفا الهاوية. علينا أن نفرح ونهلّل فسيقع استبدال الجسر الصغير، الجسر الخشبي الذي هدّته السنون والويلات تتوالى تباعاً، بجسر عظيم كبير ضخم فخم يسرّ الناظرين ويملأ بالبهجة قلوب العابرين إلى أرض كانت تسمّى فلسطين.

ولنا أن نتخيّل المشهد في المستقبل. ستتوالى الخيرات من هناك من تلك الأرض التي كانت تسمّى فلسطين عسلاً ولباناً ومرّاً. سيعمّ الخير والرفاه بلاد العرب من البحرين حتى أقاصي بلاد شنقيط موريتانيا العظمى، وستنال الصحراء الغربيّة نصيبها من الغنيمة أيضاً. وعلى العرب أن يفرحوا. عليهم أن يهلّلوا للصدقات إسرائيليّة هذه المرّة. ولهم أن يبتهجوا بالنظام العالمي الجديد صانع المعجزات. وكافر كلّ من يردّد قول المسيح ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

غريب أمر هذا الشعب الفلسطيني لا يكتفي بالخبز بديلاً عن الحياة والكرامة. مدهش أمر هذا الشعب الفلسطينيّ الذي شهد أسلافه خطوات المسيح على جبل التجربة، ورأوا يوحنا المعمدان وعلى حقويه منطقة من جلد وهو لا يتغذّى إلا بقليل من الجراد والعسل البرّي. غريب ومدهش أيضاً أمر هذا الشعب الذي سمع أسلافه ذات ليلة حفيف أجنحة البراق وهو يحطّ خفيفاً على سور الأقصى والدنيا تضيء. تلك حيل المتخيّل الجماعي وذاك طابعه المقاوم. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بذاكرته المنقوشة في المكان. أزمنة متراصّة مكثّفة. هي ذي فلسطين إذن. زمان تكثّف حتى غدا مكاناً وحكايات، أقاصيص وملاحم، سماء تنفتح في وجه الأرض، أرض تتسامى وتتخفّف من ماديتها حتى تصبح كالأثير. ثم يلتقيان. الأرض والسماء يغدوان واحداً.

■

مكانان.

بنايتان.

مدخلان.

والطريق إلى أحشاء الوحش على مرمى حجر. ومثلها الطريق إلى الحلم العظيم، الحلم الضاري الذي نسمّيه فلسطين.

■

البناية الأولى متواضعة كأنها وضعت للتوّ على عجل. على مدخلها كتبت لافتة: القادمون إلى السلطة الفلسطينيّة. البناية الثانيّة فخمة عالية عليها لافتة بالعبريّة أعدّت لاستقبال الدنيا والمطبّعين العرب. منذ الوهلة الأولى تبدأ المعركة إشاريّة ورمزية. البنايات تحدّث، والمداخل تحدّث، والمكان يحدّث بأن العدالة قد فقدت من الأرض تماماً. نتخطّى العتبة فيصبح الطابع الإشاري أكثر عنفاً. شبابيك ونوافذ. ناس من الفلسطينيين ينتظرون إذناً بالدخول. نساء يرتدين السواد خفراً وحشمة أو حداداً. أطفال في الزاوية واجمون لا يلعبون. ثمة دكّان صغير شبه مقهى أو شبه مشرب.

ثمة شيء يطبق على الروح كالدوار. شبابيك ونوافذ. وراء كلّ شبّاك يجلس أحد رجال الشرطة من الفلسطينيين العائدين مع اتفاقيات أوسلو. يجلس الشرطيّ الفلسطيني الذي كان فدائياً محارباً داخل زيّه الكحلي متعباً مكدوداً. وبجانبه مجنّدة صهيونيّة شابّة تجلس مرتاحة في جسدها. مطلوب أن تسلّم جواز سفرك وتصريح الدخول إلى الشرطي الفلسطيني. وهو بدوره يتولّى الحكي مع المجنّدة. لكأن الشرطي الفلسطيني يحرص على تجنيبك ويل التعامل معها. درع واق هو، أو غلالة مضلّلة. ثمّة في العيون غيظ مكتوم. في عينيها حقد شيطاني وفي عينيه وعيد ربّاني. هنا يجلس الفلسطيني الضحيّة ومعه تجلس جنديّة من الجلادين.

«أنت من تونس الخضراء يا هَلا!» قلت: «إنها تصفرّ صيفاً حتى لكأنها مصابة بالتهاب الكبد».

الشرطيّ الفلسطيني يخطو باتجاه الحلم ألوهيا وربّانياً لم يفقد الأمل تماماً. ففي عينيه المكدودتين يتراءى الأمل معجوناً بالتّعب وحاجة الأطفال إلى القوت. لقد كان في تونس، جاءها في سفينة حرص ربّانها أن يضيف للأوديسيا فصلاً فاجعاً لا يمكن لهوميروس نفسه أن يتخيّل عنفه. حتماً لم يكن الربّان وهو يرسي السفينة على شاطئ مدينة بنزرت التونسيّة يدري بأنه كان يدوّن في سجّلات خسران العرب ونكد أيّامهم يوماً آخر له مذاق النوح وطعم النحيب. الشرطي الفلسطيني الذي تسلّم جوازي، صديقي هذا الدرع الواقي، كان قبل ذلك في عمّان ورأى قمر جرش في شهر أيلول يهوي من السماء. القمر ذاته رآه في بعلبك وبيروت وتلّ الزعتر محاطاً بالدم مظلماً لا ينير.

هذا الفدائي الذي ارتدى زيّ الشرطة، يعلم أن الطريق التي اختارها محمد الدرّة هي الطريق المؤديّة. ثمّة فسحة من أمل إذن. ففي اللحظة التي «استتبّ فيها الأمن»، في اللحظة التي صارت فيها الكرامة العربية مجرّد ذكرى بعيدة، في اللحظة التي أيقن فيها الحاكم العربي بأمر أمريكا ان الجماهير العربيّة غدت مثل الهوام لا أمل ولا فرح ولا غاية، عاود الغضب الفلسطيني الظهور ليشير

إلى الطريق المؤديّة.

أرض أريحا الصابرة

«هذا جوازك تفضّل ومرحباً بك في فلسطين». تحاول أن تردّ على تحيّة الشرطي. لكنّ الصوت يخون. وجع اتّخذ من الجسد معبراً وتسلّل إلى عروق القلب. تكتفي بردّ التحيّة بحركة باتجاه القلب. يبتسم. تبتسم. هل هذا عبور الصراط. رجفة،، رعشة،، برد يتسلّل إلى المفاصل،، إحساس بلا معنى الوجود أصلاً .. شعور بالضآلة،،، شعور بالعجز،،، دمع حبيس يثقل الصدر.

في الجانب الأيسر من البناية المتهالكة ثمّة قبالة المدخل باب ضيّق، باب ضيّق كأفراحنا ينفتح فجأة ونعبر. أذرع دافئة تحضنك. تنسيك للحظة أنك كنت تعبر الصراط. تكاد تنسى أنك صرت الآن في أحشاء الوحش تماماً . «يجب أن نسرع، اصعدوا إلى الحافلة، اطلعوا في هذه السيّارة. يجب أن نسرع قبل أن تبدأ المواجهات. سنفتتح المهرجان بعد قليل افتتاحاً رمزياً. يا هَلا! يا هَلا! مرحباً بكم في فلسطين شرّ فتم فلسطين، سنهتم بالحقائب...».

هو ذا المكان: أرض أريحا. لم تعد الجبال مجرّد أشكال تتراءى في الأفق. إنها هنا جاثمة راسية كلسيّة رمليّة. ملح وطين. صفرة باهتة ضاربة إلى الرماد قليلاً. الحرارة لا تطاق. والشمس مزمعة فعلاً على أن تحرق كبد العالم. جنديّ اسرائيلي مدجّج بالسلاح أشقر على وجهه بثور ورديّة وعلى رأسه قبّعة خضراء يغلق الباب الحديديّ. يصرخ السائق الفلسطيني في وجهه بالعبريّة. الجندي يغضب. ينادي جندياً آخر بشرته البنّية تدلّ على أنه قادم من أثيوبيا. يأتي شاهراً رشّاشه. عصبيّاً متوتّراً ظلّ يراقبنا، تكاد شهوة الدم تستبدّ بروحه. يجري الجندي ذو الوجه الموشّى بالبثور ورديّة قانية اتصالاً هاتفياً من جهاز معلّق على حائط مخفر المراقبة. ثم يفتح لنا الباب الحديدي الأصفر. نعبر. يشرع السائق الفلسطيني في شتم العالم ودولة بني إسرائيل. سباب وشتائم وغضب: «الجبناء، نحن نعرفهم وما نخافهم، حلّوا عنّا. هلاَ! هلاَ! بالأخوة العرب في أريحا. انظروا هنا وقعت مواجهات الأمس استشهد شابان... الملازم أيضاً قتلوه أمام بيته، الملازم المكّلف بالتنسيق الأمني.. لو تأخّرت تصاريحكم إلى اليوم لما عاد بإمكانكم الدخول.. مرحباً نوّرتوا فلسطين هلاَ!!».

■

هي ذي أريحا. هي ذي أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً. هي ذي أرضك أريحا وقد دارت الحياة دورتها. هي ذي أرض أريحا الصابرة. حين وصل إليها يهوشع بن نون ليدمرها ارتعدت فرائصه فحدّث عنها مرتعباً: «إنها تفيض لبناً وعسلاً ، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتزّ والمدن حصينة عظيمة جدّاً ، رأينا فيها أناساً طوال القامة فكنّا في أعيننا كالجراد وهكذا كنّا في أعينهم.» وللفلسطيني أن يفخر بأسلافه الذين ملأوا بالهلع قلب يهوشع بن نون القادم من التيه العائد إليه.

للفلسطيني أن يفخر بأطفاله، فأن يختار طفل موته، أن يمضي شاب لملاقاة دبّابات وعسكر ولا سلاح معه غير جسده وإصراره، فمعنى ذلك أن المقدّس فيه قد تجلّى.

■

المكان : أرض أريحا. والمشهد عبثيّ تماماً. مشهد يليق بشريط سينمائي غرائبي لا يقدر حتى غودار المناصر لقضيّة فلسطين أن يتخيّله. أرض رمليّة كلسيّة صفراء. أرض أشدّ قسوة من صحراء. في الوسط بناية ضخمة عالية شاهقة تمتدّ بين السماء والأرض مثل لعنة ارتعدت لها فرائص الأرض. إنه كازينو أريحا. الفلسطينيون لا يذهبون إلى هذا الكازينو. وتأتيه الجنسيات الأخرى لتتسلّى. قيل إنه يدرّ من الأموال ما يعين السلطة على تحمّل أعباء السنوات العجاف بعد أن تراجع الدعم العربي وشحّ المال والماء والأمل.

بيت الشعر بأريحا : افتتاح سريع. تمجيد للشهداء. تمجيد للشعر وسلطان الكلمة. احتفاء بنا نحن الأخوة العرب الذين عبرنا إلى فلسطين والدم يراق شلالاً وأرواح تزهق والعالم يتقن الفرجة. في اللحظة التي كنّا نفتتح فيها المهرجان افتتاحاً رمزياً استشهد ثلاثة من شباب فلسطين على مرمى حجر من القاعة. اختزلت الكلمات. وكانت القاعة مليئة بالناس. كنت على يقين من أنهم لم يأتوا لسماع الشعر والأدب والنقد. بل جاؤوا لأنهم اعتبروا دخولنا إلى فلسطين في هذه الظروف ذا طابع رمزي إشاريّ. كانوا يعتبروننا جزءاً من الوجدان العربي. ولا يمكن للمرء في مثل هذه الحالة إلا أن يشعر بأنه ضئيل عاجز عن تقديم أيّة مساعدة عمليّة.

ثمّة كآبة ما تخترق الجسد وتطبق على الروح. رغبة في البكاء، رغبة في النشيج تستبدّ بك حين ترى كم هو قاس قدر الفلسطينيّ في هذا الليل العربي الذي ما فتئ يزداد كثافة ودياجير. وكم هي مهيبة رسالته. ولا تقدر أن تفعل شيئاً عمليّاً.

نحن في السيّارات من جديد وهي تمرق سريعة في الشوارع الخاليّة إلا من بعض عابري السبيل. على الجدران شعارات تدعو إلى المقاومة وتمجّد الشهادة والاستشهاد. هي ذي أريحا الصابرة. رائحة بارود وصوت سيّارات إسعاف. فجأة فندق فخم يقف قبالة سلسلة الجبال الراسيّة مثل كائن خرافي ينتظر فرصة الانقضاض على الدنيا لسحقها مزقاً وغباراً.

قرية أريحا السياحيّة :
فندق ومنتجع صحّي .
شارع بيسان قرب قصر هشام . أريحا فلسطين.
Jericho Resort
Village
Hotel & Spa
Near Hisham Palace, Bisan St, Jericho - Palestine

فلسطيني صاحب الفندق. العمال فلسطينيون. الترحاب فلسطينيّ مشوب ببعض من كرم الأنبياء. والمواجهات تجري هناك بعيداً عن الفندق. نحن في أحشاء الوحش إذن. والطريق إلى رام الله يعبر من تلك الجبال الراسية. أشدّ الأمكنة انخفاضاً تحت سطح البحر. المكان رحم الدنيا. لعلّ الحياة بدأت هنا. حتماً بدأت من هنا. كائنات بحريّة خطت باتجاه اليابسة حين شرعت المياه في الانحسار. وبدأ

العنف تاريخه الدمويّ . كائنات بحريّة كانت تحيا في هذا المكان . هنا عاشت . هنا تناسلت . هنا نفقت . . . المكان خرافة مدوّخة . أن تنام في فندق يقع على عمق ٣٥٠ متراً تحت سطح البحر والبحر قحط وخلاء : هي ذي أريحا المكان الشبيه بخرافة قادمة من ليل الدهور .

هي ذي أريحا بوّابة فلسطين . الاسم لم يمح من الأرض إذن . كما لن يمحى من ذاكرة أطفالنا . لقد تمّ محوه في الخرائط والعديد من المؤسّسات العربيّة . على يقين أنا من أن الذاكرة هبة من السماء . ليست الذاكرة مجرّد ملكة تحفظ الوقائع والوجوه . إنها إدراك مقاوم لسطوة الموت وسلطانه . والنسيان صنو الموت وسميّه وقناعه . علينا أن لا ننسى أبداً . ولكم هو عظيم أن يمتلك المرء ذاكرة . وهذا هو الصراع في بعده الإشاريّ العظيم . يافطة الفندق . كارت الفندق نفسه فعل مقاومة . وللتسميّة مفعولات التميمة والبلسم . أريحا، فلسطين، قصر هشام . كان الخليفة هشام يأتي إلى أريحا شتاء وكان للعرب وقتها كرامة .

■

الثلاثاء ٣ تشرين الأول صباحاً . سدّوا المنافذ إلى رام الله . الطريق إلى القدس مغلقة هي الأخرى . عسكر ودبابات . « هناك طرق ومسالك ترابيّة سنسلكها . لا بدّ أن نغادر أريحا قبل المواجهات، يجب أن نسرع . » الفلسطينيون رفاقنا كانوا حريصين على سلامتنا وهكذا استحثّونا . لا يجب أن نصاب بأي خدش في أجسادنا . لا يجب أن يطالنا أي أذى أو أي مكروه . سنغادر أرض كنعان وأجسادنا سليمة تماماً . لكن لا أحد سأل عن الروح .

روحي صارت دياجير وظلمات . حزن صامت عميق يداخل شغاف القلب . إحساس باللاجدوى . ماذا يمكن للمرء أن يفعل . كيف يمكن أن يكون عمليّاً وهو لا يتقن غير الكلمات . حتى الكتابة في مثل هذه الحالة خيانة ودنس، خزي وعار . كنت أدوّن جميع ما أرى . جميع التفاصيل التي اجتذبتني إليها دوّنتها خلسة . حملت معي من التفاصيل ما يكفي لتأليف كتاب . كيف يرتقي المرء إلى مستوى ما رأى، كيف يكتبه محاطاً بهالته الأسطورية دون أن يقع في نقل الواقع أو وصفه وصفاً إخبارياً مسطّحاً يفقره ويلغي كثافته، كيف يكتب جانبه السحريّ الأسطوريّ المروّع . الحياة أقدس من النص، والفعل المقاوم أعظم من أن تحيط به الكلمات لا سيّما إذا كان الفعل أسطوريّاً رسولياً على النحو الذي نرى .

■

الطريق الى رام الله

الوجهة رام الله . والجبال تزداد عتوّاً عندما نتوغّل في الطريق الملتوية التي تخترقها . ليس طريقاً هذا الخيط الاسفلتي الذي يمتد بين ضلوع الجبال دوائر والتواءات بل هو ثوب حيّة رقطاء نسيته هنا في بدايات الزمان .

■

الساعة التاسعة صباحاً . الشمس ساحت في السماء ناشرة نوراً أصفر ثقيلاً . حالما تخطو خارج بهو فندق أريحا المتلفّت صوب قصر هشام تتلقّفك الأرض طينيّة صفراء كلس وملح وصفرة . ويبدو

المشهد قياميّاً تماماً. لو صوّت في السماء بوق لسلّم المرء بأن نهايات الدنيا قد حان حينها. شيء كالزفير المكتوم تحسّه في الهواء يصّاعد من الأرض التي خزّنت في ترابها الموات لهب شمس البارحة. وها هي الشمس ذاتها تعاود الظهور من جديد عاقدة العزم على الخطب العظيم ذاته: إحراق كبد العالم. ما رأيته البارحة بعد عبور الجسر ـ الصراط لم يكن مجرّد وهم إذن. ها هي الشمس تطلع شاحبة نورها أصفر معجون بالرماد. وها هي أرض أريحا وجلة مأهولة بالخطوب قادمة من ليل التاريخ.

والجبال، الجبال ما زالت هنا. لست مطالباً بأن تنظر إليها هي التي تأتيك، هي التي تداهمك وتقتحم جسدك ضخمة عاتيّة جرداء لا نسمة ولا حياة. خلسة تنظر إليها كأنك تسترق النظر إلى وحش مرعب تخشى أن تستفزّه فيرتدّ البصر كسيراً.

■

نصعد الحافلة «مرحباً.. نوّرتوا فلسطين.. هلاً! هلاً بالأخوة العرب.. الطرق مسدودة بالدبابات والعسكر.. سنأخذ طرقاً ترابيّة.. أهلين! يا مرحبا!.. سنسلك الطرق، الطرق الترابيّة.. طرق وعرة قليلاً.. بعد قليل ستبدأ المواجهات...» يرتفع صوت المحرّك وتضيع كلمات السائق فتصبح كالتمتمة أو الوشوشة «اليـ..هـود... استشهد.. مستوطنون...»

نحن الآن على الطريق باتجاه رام الله. بدأنا نصعد من أشدّ الأمكنة انخفاضاً تحت سطح البحر باتجاه الدنيا. من العالم السفلي نصعد. الكلّ صامت. إنها مهابة المشهد. كانت الجبال تقترب. ها هي تزداد قرباً. هي ذي تزداد قسوة وشراسة. أريحا بدأت تبتعد. بقع خضراء وبعض مبان. أريحا صارت هناك. مذهلة ومدهشة تجربة الصعود هذه وأريحا هناك في الأسفل صابرة.

■

أريحـ..ـا!

يا أريحا الصابرة. أحتاج قليلاً من صبرك الربّاني فالروح محض عذاب. جسر على نهر. كازينو في أرض موات. قصر ينوح في السرّ ليلاً على أمجاد من سكنوه. والشمس تعاود الظهور. رجف يستبدّ بالأرض وليت نور القمر لا يضيء. طوبى لنا!! لكن من أين سيجد العزاء طريقه إلى الحزانى.

■

ثمّة في تجربة الصعود هذه من أريحا إلى رام الله المتلفّتة صوب القدس، من العالم السفلي إلى الدينا، شيء سحريّ يربك الحواس جميعها. قسوة الجبال، عظمتها، جدبها، عراؤها، هالة المهابة التي تجلّلها، كل هذا يجعلك تكاد تسلّم بأنك قفزت في العمى والكون لم يزل بعد سديماً. بعد قليل، بعد برهة قد تنحني آلهة ما، قد يأتي ملاك ما، قد يتجلّى كائن أثيري ما ويقتطع من طين الجبال قسطاً، حفنة أو حفنتين، ويبدأ التكوين. من هنا، من جبال أريحا يسهل الصعود إلى السماء. يكفي أن نحدّق قليلاً وسندرك أن السماء تتكئ فعلاً على هذه الجبال العارية من كلّ نسمة أو عشبة أو حياة. وليس غريباً أن يكون المعراج هنا من أرض فلسطين. ليس غريباً أن تنفتح السماء في وجه المسيح ويأتي روح الله نازلاً عليه مثل حمامة وتدوي السماء بالصوت قائلاً: «هذا ابني الحبيب الذي به سررت». المشهد قاس ومروّع، فظاظة رقيقة، هشاشة صلبة، غلظة حانية، جبال صلبة مثل لعنة

أبديّ ة، هشّ ة كجبال من الغيم الضارب إلى الصفرة، طين تجمّد : هذه هي جبال أريحا المتلفّتة صوب رام الله والقدس عروس المدائن ثكلى العواصم.

■

الحافلة مكدودة تصعد من أشدّ الأماكن انخفاضاً إلى قمم الجبال، الطريق يمتدّ ثنيّة بين ضلوع الأرض. ثمّ ة شيء خرافي، ثمّة شيء إشاريّ مدهش في تجربة الصعود هذه، الجبال يميناً ويساراً مهيبة مجلّ لة بالصمت والقحط، مسخوطة تبدو ومتحرّكة. يكفي أن يستسلم المرء قليلاً لحواسه ويتملّى ما يراه دون أن يعقلن المشهد وسيشعر بأنه في حضرة كائن أسطوري مروّ ع، كائن خرافي يتحرّك في ثقة وتؤدة وثبات باتّجاه كون أزمع على أن يهلكه. غير أن هذا الشعور سرعان ما يتراجع ويتحوّل الوحش المخيف إلى كائن خرافي مسكون بأسى لا يطفأ.

الأبديّة هنا في هذا المكان متوارية خلف غلالة شفّ افة، غلالة في منتهى الرقّ ة، لو خدشنا الهواء الجاف قليلاً سنجد أنفسنا هناك في الماوراء حيث نهر الأبديّ ة ودموع بني البشر أجمعين. جبل التجربة أحد هذه الجبال الواقفة في المهبّ ما بين المادي الصلب والأثيري الشفاف. على اليسار قليلاً بناية بيضاء تبدو كأنها تتشبّ ث بالجبل، بالكاد تتماسك ولا تسقط. إنه دير قرنطل المحتمي بجبل التجربة. دير صغير، دير معلّق يجاهد الأفول متلفّتاً إلى الهاوية. لو هبّت نسمة من هواء لتداعى ولكان سقوطه عظيماً.

الأبديّة متوارية خلف غلالة رقيقة حتى لتكاد تتراءى من خلال المكان من فجوات في الهواء. لا بدّ أن يكون يسوع المسيح قد عاش هذه اللحظة. لا بدّ أن يكون هذا المكان موطناً للأنبياء ومرتعاً لنجوم السماء. هي ذي جبال أريحا إذن: مكان محمّ ل بالاشارات، غابة من رموز وإيماءات. لا يمكن للمرء أن يعبر من هناك ولا يرى بعضاً من تلك الإشارات والإيماءات التي تملأ المكان بالقسوة والمهابة والهشاشة. فالمشهد يربك الجسد ويدوّخ الحواس. وحيداً خاض يسوع المسيح التجربة في هذا المكان. ظلاله ما زالت في المكان مثل رفّ جناح، بعد قليل سيُدَقّ لحمه بالمسامير صدئة سيصعد إلى الجلجلة. وبعد قليل يوم الاربعاء ٤ تشرين الأول سنة ٢٠٠٠ حين نكون في فندق BEST EASTERN برام الله سيدخل شابّ فلسطيني فزعاً ويخبرنا أن المستوطنين قد أمسكوا فلسطينياً ودقّوا المسامير ذاتها في جسده.

هكذا يتّخذ الحلم طابع الكابوس ويلتحف بجميع سماته. يكفي أن يحدّق المرء قليلاً في الجبال الجرداء، في صفرتها الشاحبة المعجونة بالرماد، في الكيفيّة التي تتماسّ بها ويتكئ البعض منها على البعض الآخر فيما هو يواصله، حتى يخيّل إليه أنها جبال متحرّ كة، جبال تزحف باتجاه فلسطين تريد سحقها نهائياً ثم تطحن الكون بأسره. من هنا سينتهي العالم.

صرنا في الأعالي، عبرنا الهاوية. حين تلتفت باتّجاه الجبال وقد صارت بعيدة تراها جبالاً متحرّكة تحثّ الخطو وراءنا وهديرها المكتوم يطبّق الآفاق. يتغيّر لون الأرض. يصير التراب أحمر ضارباً إلى السواد قليلاً. شجيرات زيتون هنا. شجيرات هناك. ولا شيء يشدّ العين على الطريق المؤديّة إلى رام الله التي تتفرّع عنها الطريق المؤديّة إلى القدس وبيت لحم وبيسان غير الحجارة. حجارة وصخور مرمية

على الأرض مثل قطعان من الأغنام والماعز وصغار أبقار خرجت للتوّ من شكيمتها. أحجار من كل الأحجام. حجارة تكاد تغطّي أديم الأرض كلّه. لكأن الأرض زلزلت زلزالها. لكأن هذه الأحجار هي أثقال الأرض مقذوفة في العراء.

هي ذي أرض رام الله. على قمم الجبال المجاورة يلمع قرميد المستوطنات. على كلّ الجبال المحيطة بالقدس مستعمرات بنيت بالطول لا بالعرض فصارت عبارة عن سور أفعواني ضخم يحيط بالقدس والقرى المجاورة.

■

هي ذي فلسطين،

لا عسل ولا لبان ولا مرّ. وإنما هي حجارة منثورة وصخور تطلّ برؤوسها من الأرض لتشهد على قسوة المكان. يقال إن شمال فلسطين يشبه جنات من تحتها تجري الأنهار. لن نذهب إليها وتلك حكمة صهيون. من أين جاءت أرض رام الله بكلّ هذه الصخور، من أين أتت بكلّ هذه الحجارة. لكأننا في كوكب آخر. لكأن الأرض تحثّ بنيها على استخدام الحجر سلاحاً. حين ترى هذا الكمّ الهائل من الأحجار منثوراً على الأرض يداخلك الشكّ في أن انتفاضة الأقصى وانتفاضة يوم الأرض وكلّ الانتفاضات التي دوّ خ بها الشعب الفلسطيني العالم، ليست فعلاً اختيارياً أتاه شعب محاصر بالليل، بل هي تلبية لنداءات الأرض. تكاد تسلّم بأن الأرض تطرح كنوزها أحجاراً وصخوراً والفلسطينيّ يلبّي النداء. فالأرض هي التي ترجم الاحتلال بالحجارة. ليس الفلسطيني سوى وسيلة في معركة الأرض ضدّ غزاتها، هذه الأرض المزروعة صخوراً وحجارة، هذه الأرض المسخوطة هي نصيب الفلسطينيين من كلّ فلسطين. ولنا أن نفرح. لنا أن نهلّل. وطوبى للحزانى لأنهم عند الله يتعزّون.

■

شارات مرور إرشاديّة: أورشليم القدس بيسان ـ بيت شآن ـ رام الله. عسكر ودبّابات. يتقدّم الجند. يقومون بإشارات. فوهات رشاشاتهم موجّهة نحو الحافلة. يفهم السائق أن العبور ممنوع. يتراجع قليلاً ويعود ثم ينهال بالسباب والشتائم: «أوغاد.. سفلة.. سنسلك طريقاً ترابيّة... وحياة المصحف راح نمرق رغماً عن أبيكم... هذا طريق القدس.. يلوّح في الهواء بقبضته.. رأيتم كيف نحيا.. حياتنا معهم هيك.. كل يوم هيك..». تدخل الحافلة مسلكاً ترابياً ملتوياً وتشرع في الصعود والسائق ما زال يلعن أم المستوطنين وخالاتهم من الرضاعة والأمم المتحدة.

■

وصلنا إلى منطقة البيرة. بلدة متكئة على رام الله. بلدة تقع على خطّ النار. درع واق لرام الله. بيوت من طوب رماديّ. بيوت وبنايات كتلك التي تراها في مخيّمات الفلسطينيين عادة، ولست تدري هل هي كئيبة أم مقفلة بالوجع والأسرار. رفع السائق علم فلسطين، وعلّقه. شرع العلم يرفرف حفيف أجنحة ووشوشات. في مدخل البيرة سيارة محروقة. «هاي سيارة أحد المستوطنين. الشباب أحرقوها أمس. جاء ليطلق عليهم ناراً قال السائق مبتسماً. حجارة مرميّة هنا وهناك على الطريق

الاسفلتي المغبرّ. أطفال لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم يجمّعون الحجارة بالقرب من السيارة المتفحّمة.

ثمانية أطفال، تسعة، لا، ها هو طفل آخر يأتي راكضاً وهو يدحرج إطار عجلة سيّارة. يضع الإطار قرب كومة الأحجار. ويهمس لرفاقه شيئاً فينخرطون في ضحك طفولي عابث. أحد الأطفال استلقى على ظهره من شدّة الضحك وبدأ يفحص الأرض بقدميه. في الزاوية قدّام بيت متداع بابه مفتوح قليلاً هناك بنيّة صغيرة على عتبة الباب تلبس مريلة صفراء وقفت تراقبهم. تفرك عينيها بيد. وبالأخرى تسوّي جديلتها. يطفح القلب بأسى مهلك صامت مبيد. لو أنه بإمكان المرء أن يوسّع بين جدران الروح مكاناً لهذه البنيّة. لن أعرف اسمها أبداً. لن أراها ثانية. وهؤلاء أحفاد صلاح الدين نسل الأنبياء، والمقدّس فيهم قد تجلّى. الروح صارت خراباً. محمد الدرّة من جديد والدمع الحبيس يحزّ شغاف القلب. بالكاد ترى البيوت المتراصّة على جانبي الطريق. لكأنها ترقص في بحيرات من الدمع. الدمع حبيس والروح خرقة وصدأ.

■

الحافلة تعبر. أفهمنا السائق أنهم يعدّون لمواجهات ما بعد الظهر. دخلنا رام الله وشوارعها مقفرة إلا من بعض العابرين. الدكاكين مغلقة والإضراب عامّ. على الجدران شعارات تمجّد الشهداء، ملصقات نعي، ملصقات شباب خطفهم الموت فصاروا شهداء. شباب في زهرة العمر ينظرون إلينا مبتسمين. صور بالألوان لشباب مضوا في الشوط إلى أقصاه. فجأة فندق BEST EASTERN برام الله. شباب مسلّحون من فرقة الـ ١٧ الشهيرة أمام الفندق يراقبون السيارات متحفّزين لأي طارئ. هي ذي رام الله. وغداً سيكون نهار آخر.

درب الآلام

يوم الثلاثاء ٣ تشرين الأول ٢٠٠٠ الساعة العاشرة صباحاً. حين وصلنا قدّام مشفى رام الله، كان الشعب الفلسطينيّ هناك يذرع الساحة في اتجاه باب الخروج مجلّلاً بالغضب. كان الموكب مهيباً. فلسطينيون من كلّ الأعمار. أطفال وشيوخ وشباب يتقدّمون واجمين. تنحّينا جانباً لأننا كنّا نتقدّم في الاتجاه المعاكس نريد الدخول إلى المشفى لعيادة الجرحى. الموكب مهيب ومروّع. هو ذا العلم الفلسطيني وقد غدا كفناً. على الأكتاف شاب في ربيع العمر مسجّى في الأسود والأخضر والأبيض والأحمر. هو ذا شهيد ثان. الكفن ذاته. الوجه مكشوف. والفتى الثاني، الفتى الذي خطفه الموت يبدو نائماً مثل الفتى الأول تماماً. الفلسطينيون يكفّنون شهداءهم هكذا. يتركون الوجه مكشوفاً يواجه السماء. كأنهم يولّونه للسموات كي تراه، كي تحفظه، كي لا تنساه أبداً بعد أن ضاقت الأرض به. الموكب مهيب مروّع. شيء في قاع الروح يتفتّت. دمع حبيس يحزّ شغاف القلب. يرقص المشفى كلّه في بحيرات من الدمع الحبيس في عينيك. ستصوّر الجنازة وستتناقلها الفضائيات. هو ذا الموت فرجويا متوحّشاً قاسياً فظّاً بدائياً ساديّاً همجيّاً عاتياً ضارياً فاجعاً. هو ذا القتل على مرأى من الدنيا والعرب. الأرض لم تصب بقشعريرة ولا باندهاش. إنها تأكل بنيها.

في أروقة المشفى ومدارجه نساء يدارين الوجع.. أطفال جاؤوا لعيادة جرحاهم.. رجال.. شباب.. المشفى مليء بالناس. كأن الشعب الفلسطيني كلّه هنا يعود جرحاه. فيما الشعب الفلسطيني الآخر

ذهب يشيّع الشهداء المقتّلين. شهداء قتلوا بالرصاص. ثم قتلوا بالصمت العربي. ثم قتلوا بلامبالاة الدنيا قاطبة. أنا على يقين من أن الانتماء إلى الجنس البشريّ جناية لن تغفرها السماوات. ندخل إلى غرف الجرحى.. المشهد يخلع القلوب.. الطبيب الجرّاح فوزي سلامة رافقنا من غرفة إلى غرفة. في كلّ غرفة أسرّة. وعلى الأسرّة يرقد الشعب الفلسطينيّ جريحاً. رام الله كلّها هنا. أطفال جرحى.. كهول جرحى.. شباب.. المشهد يخلع القلوب.. قوارير الأوكسجين.. خراطيم في الأفواه.. خراطيم تنتهي بإبر حادّة مغروزة في عروق الأذرع.. بعض الجرحى في حالة موت سريري... الطبيب الجرّاح فوزي سلامة شخص نشط متفانٍ في خدمة ناسه وشعبه. لقد أنقذ العديد من الجرحى من هلاك محقّق. صارع الموت مراراً وغلبه أحياناً. كان يحدّثنا بفرح طفوليّ مشوب ببعض من حزن الأنبياء عن كيفيّات نجاحه في طرد الموت وإعلاء الحياة. ارتعش صوته حين تحدّث عن تلك اللحظات التي غلبه فيها الموت وافتكّ منه شابّاً أو طفلاً أو قطعة من بدن.

مكتب الدكتور موسى أبو حميد مدير المستشفيات. ندخل. يرحّب بنا نحن الأخوة العرب. يحدّثنا عن عدد الإصابات. «إنهم يريدون ترويعنا فيقتنصون الأطفال. لقد بلغت نسبة المصابين من الأطفال ٥٢٪». هكذا حدّثنا متوتّراً. تدخل ممرّضة شابّة حسناء. خفر وجمال تجلّله الأحزان. تعتذر وتهمس في أذن المدير شيئاً ما. «سنخبرهم فيما بعد هاي مصيبة. لا تخبريهم الآن. إنه وحيد والديه». هكذا قال لها فخرجت مجلّلة بالوجع ذاته مخفورة بالبهاء ذاته. أرانا ما يسمّى الرصاص المطّاطي. رصاص حقيقي مغلّف بقشرة مطّاطيّة لا يتعدى سمكها ميلميتراً واحداً. على كلّ رصاصة وضعت ورقة تحمل اسم المصاب الذي طاله الغدر.

حين غادرنا المشفى كانت الشمس في الأعالي قرصاً أحمق عاجزاً حتى عن القشعريرة والرّجف والأفول قدّام كلّ هذا الويل. لو كان في هذا القرص الناريّ الأبله بعض من حنان لانهار على الأرض وسحقها. متى ينتهي العالم؟ متى الدنيا تنتهي؟ الحياة فسدت. وهذا الكوكب الأرضي يمتلئ بالشرور والدياجير وربّ الجنود يكشّر عن نابه الأزرق. لا يجب أن تنتهي الحياة إكراماً للذين يتسابقون إلى الموت إعلاءً للحياة. أنا على يقين من أن أمريكا ستظلّ تدحرج العالم باتجاه الهاوية حيث لا شيء غير الموت وصرير الأسنان. فالصهاينة ومن ورائهم أميركا وكلّ قوى الخراب في هذا الكوكب الأرضي الكئيب، يريدون أن يقنعوا الناس بأن الفلسطينيين هم الذين يحملون أجسادهم ويضربون بها الرصاص الصهيوني النائم في الرشاشات. وهم الذين يستفزّون الموت الغافي في الصواريخ والدبابات والقلوب الحاقدة. وليس الجند المدجّجون بالضغينة والحقد هم الذين يقتلون الأبرياء قدّام العالم. شريك في الجريمة هذا العالم الذي يكتفي بالتفرّج على الدم العربيّ مراقاً. ثمّة حرص على الإقناع بأن الفلسطيني يعاني من عقدة الحياة والجندي الإسرائيلي يخلّصه من تلك العقدة عندما يطلق عليه النار ويرديه قتيلاً. وهذا هو منطق الإنسانيّة في مطلع الألفيّة الثالثة.

اتفاقيات تذروها الرياح

قبل سَفَره إلى باريس بحوالي ثلاث ساعات وجّه إلينا الدعوة. وها نحن في الطريق إليه. «الختيار» يسميّه الفلسطينيون تحبّباً. وحين يغضبون أو يعتبون عليه يصبح اسمه ياسر عرفات أو عرفات فقط.

لقب ولا اسم. ينادونه أيضاً الأخ أبو عمار. ويحلو للبعض أن ينعته بالقائد الرمز أو السيّد الرئيس بحسب السياق والمقام. وبعد ما سمّي من قبيل السخرية السوداء بقمّة كامب دايفيد الثانية جاب «الختيار» الدنيا بلداً بلداً. زار «الختيار» ملّة النصرانيين والهندوس وملّة يقال لها ملّة المسلمين.

دخل بلاد السند والهند والصين، ووصل ذات مساء حتى أقاصي أفريقيا السوداء؛ حتى نيلسون مانديلا الذي خبر في سجنه الويلات كلّها نصحه بالتريّث. فقفل راجعاً إلى ناسه في غزّة والضفّة.

بناية متواضعة، خمسة طوابق. مدخل كبير قدّامه بعض الشباب يحملون رشّاشات ويبتسمون مرحّبين. باب حديدي يفتح. يدور الباب على صائره محدثاً صوتاً أصمّ. تمرق السيارات. الطابق الرابع. ندخل قاعة صغيرة. في الوسط ثمّة مائدة في منتهى الصّغر عليها منفضة سجائر. استقبلنا مبتهجاً. جلس في وسطنا على تلك المائدة نفسها. وبنبرته المتهدّجة دائماً حرص على أن يشكر الجميع ويشكر الأمة العربية. تفهم من كلامه أنه مبتهج بالانتفاضة لاعتقاده انها ستسقط من جديد أقنعة ابنة صهيون، فينكشف الجحيم المتكتّم على نفسه في صميم فكرة دولة عنصرية، فالفكرة ذاتها مضرّجة بالويلات والشرور والدم المراق. كان يحدّثنا مبتهجاً وهو على يقين من أن صورة محمّد الدرّة وحدها كفيلة بأن توقظ في الدنيا بقايا من إنسانيّة. لكنه سيمضي إلى باريس. ومن باريس يشدّ الرحال إلى شرم الشيخ. من شرم الشيخ سيعاود الرحيل مكدوداً إلى قمّة جمعت ما تبقّى من العرب العاربة وأختها العرب المستسلمة. ومن هناك سيعود منكسر النفس إلى ناسه وبلده. فالعالم بأسره قرّر أن يكتفي بالتفرّج على الدم الفلسطيني مراقاً وعلى الجنائز تخبّ كلّ يوم في مشهد قيامي مروّع باتجاه المقابر.

■

اتفاقات تذروها الرياح زبداً وطواحين ريح. وفي رفح شباب يواجهون العسكر بالحجارة ويقتلون. في الناصرة والجليل وفي بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور ورام الله والبيرة، المشهد ذاته في قلقيلية وطولكرم. حجر يواجه دبّابات ومروحيات، في غزّة وجنين ونابلس. غضب وحجارة في كلّ فلسطين.. دبّابات وحجارة.. عساكر.. جنائز تسير خبباً باتّجاه المدافن. نسمة من جنوب لبنان المتلفّت باتجاه شمالك فلسطين.. نسمتان ونرجس:

الإمام علي ابن أبي طالب لم يدفن. على فرس أبيض ما زال يجوب الأرض حتى نهايات الزمان. وكان الإمام فارساً بطلاً صنديداً دوّخ جند الأعداء. سيفه كان بتّاراً. في ساحات الوغى كان الإمام علي يضرب الفارس فيشطره هو وفرسه شطرين ويتوغّل السيف في الأرض يكاد يبلغ منها الرحم والأحشاء. كانت الأرض تألم وتتوجّع ويصدر عنها صوت كزفير الجحيم وهي تتوعّد الإمام قائلة: «يأتيك يومك يا عليّ». الأرض كانت قد أضمرت شرّاً عظيماً، وأقرّت العزم على أن تثأر لنفسها منه يوم يموت ويقبر في ترابها. قتل الإمام وهو يصلّي صلاة العشاء. قتل غيلة. فكان أن بكاه أهله والمسلمون والدنيا أصابها رجف وسمع في الآفاق كلّها نوح ونحيب.

وكي لا يتمّ ما به توعّدت الأرض الإمام. كي يدرأ الشرّ الذي أضمرته، كفّنوه ووضعوه على سرج فرسه. فانطلق الفرس الأبيض يسابق الريح خفيفاً كفرس من أثير معجون بالنور. الفرس سيظلّ يجوب الأرض حتى نهايات الزمان. والإمام لن يترجّل إلا يوم القيامة. فيكون عدل؛ وتبدأ الحياة الأبدية؛

والموت يموت ذبحاً. كانت الزهور والورود كلّها قد خلقت في الأيّام الستّة الأولى التي ابتدأ فيها الخلق. النرجس لم يكن من بينها. خلق النرجس بعد مقتل الإمام. أزهار النرجس صارت تنبت في مواضع حوافر فرس الإمام الشهيد. كلّ نرجس الدنيا هو البشارة، وهو الأمارة على أن الفرس ما زال يجوب الأرض ملتحفاً بالغياب يتراءى وبالكاد يرى.

هكذا حدّثوني عندما كنت طفلاً . وأنا رأيته، رأيت الفرس يمرق في الأيام الشتائيّة الماطرة حين السحب تترجّل على الأرض ضباباً ، كثيراً ما كنت أراه. هذه حيل المتخيّ ل الجماعي في تمجيد الحقّ ومن ناصروا العدل. ولكني رأيته في طفولتي يمرق بين الهضاب والجبال. ويبدو أنه كان هناك في جنوب لبنان.

بيوت العزاء

وصلنا الى البيرة بعد الظهر عبر طريق ترابيّة وعرة. حفر ومطبّات. سيّارات وشاحنات وجرّارات أرغمت كلّها على أن تتسلّل إلى حاجاتها ووجهاتها عبر هذه المسالك الترابيّة. وهذا جزء من حكمة الصهيونية وعدالتها. خيمة كبيرة سويّت على عجل. أعمدة خشبيّة كسيت بالأبيض والأحمر والأسود، خيمة مستطيلة تتوسّط البيوت تحتها ناس كثيرون. هو ذا الشعب الفلسطيني يتقبّل التعازي. أب مثقل بالهمّ يداري الوجع ويصافحنا محتفياً بالأخوة العرب. أب فقد طفله البارحة وجلس اليوم هنا يتقبل التعازي. « شرف لي أنني قدّ مت ابني فداء لفلسطين ولكرامة الأمّة العربيّة. » هكذا ظلّ يردّد وهو يصافحنا ويتقبّل تعازينا. عيناه زائغتان. على ملامحه مسحة من ذهول. وتلك ضراوة الموت. ذاك طابعه الكاسر المتوحّش. الأب لم يصدّق بعد أنه لن يرى طفله ثانية أبداً. لم أرفع رأسي كي أرى الملصق. لم أجرؤ على النظر إلى صورة الشهيد. هنيهة،، برهة،، رعشة في المفاصل وتستجمع بقية من صبر. ترفع عينيك إلى الملصق. طفل عمره ١٣ سنة. صورة بالألوان والطفل يبتسم. ألوان علم فلسطين. لم ترتجف يد قاتله. تقرأ في أسفل الصورة الشهيد البطل محمد نبيل علي حامد. تدوّ ن الاسم خلسة كي لا تخدش مهابة الموقف. الذّ اكرة ازدحمت بالتفاصيل والويل وقد أنسى الاسم لا سيّما أن أغلب الأطفال الذين سقطوا يحملون اسم محمد. دوّنته خلسة. قتل الطفل ولم ترتجف يد قاتله. القنّاص الذي أرداه قتيلاً برصاصة في الرأس لا بدّ أنه يحتفل الآن بأمجاده وبطولاته. نغادر المكان في صمت. نحثّ الخطو كأننا نبتعد عن مكان الجريمة. كأننا شركاء فيها. كأننا مورّطون. يكفي أن تكون هنا؛ يكفي أن تعيش مهابة الموقف وترى فظاعة الفقد في عيني الأب الثاكل؛ يكفي أن ترى الهالة التي تحيط بعيني الطفل القتيل الذي ظلّ يرقبنا من الملصق مبتسماً؛ يكفي أن تتخيّل روحه وهي ترفض أن تأخذ طريقها إلى مملكة الموت لأن الصبيّ لم يستكمل بعد ألعابه وضحكاته وشيطنته على مقاعد الدرس ـ يكفي أن تأتي وترى ـ حتى تشعر أنك مورّ ط في هذه الجريمة.

كانت الشمس قد مالت إلى الغرب قليلاً وشرعت ترسل خيوطاً صفراء فاقع لونها حين وصلنا إلى بيت على منحدر في بيتونيا. فلسطينيون هنا أيضاً. الشعب الفلسطيني جالس على كراس يتقبّل العزاء. الأب في الوسط مجلّ ل بحزن لا يمكن أن يطفأ. نقدّم التعازي. ثم نجلس. الكراسي بالكاد تتماسك فوق الأرض. لافتة كبيرة مثبّتة على عمودين خشبيين كتب عليها: حركة فتح تنعى بكل

فخر واعتزاز شهيدها البطل محمود ابراهيم العمواسي. شاب بيده فناجين وإبريق يقدّم لنا القهوة مطيّبة بالهال. في مخيّم اليرموك بدمشق تعلّمت من الأصدقاء الفلسطينيين أن من لا يرغب في الاستزادة من هذه القهوة المرّ ة يجب أن يمسك الفنجان بإصبعين، السبابة والابهام، ويحرّ كه يمنة ويسرة فيفهم الساقي المضيّف أنك أخذت كفايتك. وإن لم تفعل فإنه سيظلّ يملأ فنجانك كلّما انتهيت من احتسائه. فيما كنا نغادر المكان وصل شباب من قوة الـ١٧ ليؤدّ وا واجب العزاء، فالشهيد محمود العمواسي رفيقهم في السلاح عمره ٢٣ سنة، وقد استشهد الليلة الماضية على الساعة الواحدة والنصف. عندما صعدنا الحافلة بدأ السائق يناور كي يديرها فكادت تهوي في المنحدر. لو فعلت لكان سقوطها عظيماً ، ولابتسم رب الجنود في الأعالي نكاية وشماتة بالاخوة العرب الذين قدموا إلى أرض كنعان فيما أحفاد الكنعانيين والنبيّين من الفلسطينيين يتسابقون إلى الموت إعلاء للحياة وتمجيداً للحياة.

■

شعاع،، شعاعان،، قرص أصفر في غاية البلاهة يختفي يسيراً يسيراً وراء الهضاب. الشمس غابت تقريباً حين وصلنا إلى مخيّ م الأمعري المأهول بالرفض والإصرار. على الجدران شعارات تمجّد حركة فتح... شعارات وقّ عها أنصار الديمقراطيّة والشعبيّة والجهاد وحماس تذكّر بالكفاح المسلّح طريقاً إلى فلسطين. شعارات تمجّد الشهادة والشهداء وتحقّر إيهود باراك مجرماً وشارون جزّاراً وتدعو إلى تحرير كلّ فلسطين. شعارات تندّد باتفاقيات أوسلو وبالسلطة العائدة للتوّ من تيه دام دهراً في بلاد تسمّى المشرق العربي والمغربي العربي.. شعارات تندّد بالأنظمة العربيّة المتخاذلة... شعارات أخرى تتوعّد بالويل والانتقام من كلّ من تسوّل له نفسه أن يروّج المخدّرات.

بعد أن ترجّلنا من الحافلة في مدخل هذا المخيّم المليء بالحياة صاخبة هدّارة مفتوحة على كل الاحتمالات وصلنا إلى مركز شباب الأمعري. ناد رياضي واجتماعي وثقافي للمخيّم. داخل ملعب كرة سلّة فسيح وواسع جدّاً حتى لكأنه على استعداد في كلّ لحظة للتحوّ ل إلى ملعب كرة قدم، وضعت الكراسي تحت الجدران المحيطة بالملعب. وعلى الكراسي جلس الشعب الفلسطيني واجماً.

هي ذي اللافتة المحتفية بالشهيد. هو ذا الملصق وقد ذيل بالعبارة ذاتها، بالتميمة ذاتها : مخيّم الأمعري ينعى الشهيد البطل عماد عبد الرحمن توفيق العناني. عائلة الشهيد، الأب والأخوة اختاروا لهم مكاناً في مدخل الملعب. تعاز. دمع حبيس. من مكبّر صوت يأتي القرآن مرتّلاً. آيات تذكّر بأن الذين قتلوا أحياء يرزقون. شابّ ملتح وسيم أوقف آلة التسجيل ورحّب بنا في لغة عربيّة أنيقة موقّعة كالنشيد. ندّد بالصمت العربي والتواطؤ العالمي. وسّع المسافة الفاصلة بين الأنظمة العربيّ ة وشعوبها، « الشعب العربي من المحيط الى الخليج معنا.. لسنا وحدنا.. الشارع العربي معنا.. نحن نعلم هذا ونحفظ الأمانة.. لسنا وحدنا.. لسنا وحـــ..دنا.» هكذا اختتم كلمته. عاد صوت المقرئ. بعد قليل سيتفرّق الجمع وستخلو عائلة الشهيد إلى الوجع ربّانياً.

حين غادرنا مركز شباب الأمعري كان سيف الرحبي يمشي مذهولاً ويهمس: « العدم الضاري.. العدم الضاري.» أنا سمعته ورأيته يجرّ الخطى مذهولاً. من خلل الغيم المتناثر طلع قمر أصفر باهت الصفرة وبدأ يتسلّق السماء متعباً مكدوداً . الفلسطينيون أحفاد الكنعانيين والنبييّن يعلمون علم

اليقين ان هناك من عقد العزم على ابادة الحياة وعلى إفسادها وتحويلها إلى جحيم. وهم على يقين ايضاً بأنه يستدرج الحياة الى الهاوية. وها هم يتسابقون الى الموت لأنهم مؤتمنون على استمرار الحياة. من هنا تستمدّ المواجهة في ديارهم عنفها المدوّخ الضاري.

فلسطين يا بيت العرب. ذات ربيع رحل أوكتافيو باز. كتب شعراً ثم رحل. لست أنا القائل بل هذا الشاعر الذي اسمه اوكتافيو باز هو القائل: «لا يجب علينا أن نترك التماسيح الكبيرة تصنع تاريخ البشريّ ة. إنني لا أستبعد الانهيار الأمريكي فالتاريخ لا يمكن أن يتحمّل الى ما لا نهاية هذا الالتحام الهائل بين الموت والموت. لذلك أدعو دول العالم الثالث إلى العودة إلى الجوهر، والى الوقوف وقفة واحدة في مواجهة الجحيم.» حتماً لم يكن اوكتافيو باز يدري ان الفلسطيني سيقف في مواجهة الجريمة وأمريكا وحيداً. ومحمود درويش، الشاعر الذي كان طفلاً يحسب ان البرتقال ينبت في الصناديق سيحرص كما شعبه على الترحاب بالأصدقاء العرب، يلغي سفره الى باريس ويستبقنا الى رام الله ليرحّب بنا في فلسطين.

وادي النار، الطريق الى بيت جالا المتلفّتة صوب بيت لحم.

الإضراب في رام الله ما زال متواصلاً. والمدينة تبدو مقفرة خلاء لولا أبواق بعض سيّارات الإسعاف تملأ المكان ولولة بين الحين والآخر، فيما تردّد المباني صدى الطلق الناري القادم من تخوم المدينة ومدخلها الرئيسي، حيث الحواجز والمواجهات. على الجدران ملصقات لشباب استشهدوا، بعضها قديم ألوانه باهتة، وبعضها فاقعة ألوانه كأنه ألصق هذا الصباح. وفي أسفل الملصقات كلمات تعرّف بأسماء الشهداء وتمجّد البطولة. على كلّ الجدران ملصقات لشهداء يبتسمون ابتسامات مجلّلة بالحزن. وتلك مفعولات الموت ضارياً كاسراً. يكفي أن تحدّ ق في العيون وستراها طافحة بهالة من سحر الموت وجاذبيّ ته وفتنته. الكلمات التي تمجّد البطولة والإستشهاد تبدو ذليلة لم تتمكّن من القضاء على فجائيّة الموت وضراوته وطابعه الكاسر. وعبارة «الشهيد البطل» التي تذيّل بها الملصقات ليست سوى تميمة تدرأ الوجع وتدجّن الموت لكنّ ها لا تمحو طابعه المتوحّش الضّاري. فوراء عبارة الشهداء نفسها ثمّة شباب وأطفال سقطوا في العتمة. بيوت اجتاحها النّوح. قلوب داهمها الوجع كاسراً. ثكل ودمع ولا عزاء.

وصلنا إلى البيرة عبر طريق ترابيّة وعرة. مطبّات وحفر من جميع الأحجام. على الهضاب المجاورة يلمع قرميد المستوطنات تحت شمس باهتة. ثمّة حشد من غيوم رماديّة بالكاد تتحرّك. يكفي أن تحدّق فيها قليلاً. يكفي أن تديم النظر إليها، وسترى يداً خشنة معروقة تمتدّ من خلال تلك الغيوم وتتوعّد الحياة نفسها بالويل والخراب. إنّها يد ربّ الجنود المأخوذ بالدّم الفلسطيني. ليست زخّات رصاص هذه التي تدوي في الجوّ. إنها قهقهة هذا الربّ العائد من ليل التاريخ. كانت الحافلة تعبر وادي النار. والطريق ترابيّة ملتوية. وربّ الجنود من هناك يراقب المشهد ممنّياً النفس بمزيد من الدم الفلسطيني.

فجأة حفنة من بيوت،، حفنتان على هضبة. الهضبة تصير هضاباً والبيوت تزداد وضوحاً. بيوت

معلّ قة على مرتفع من الأرض. بيت جالا، بيت لحم، حيث يقيم الفلسطينيون. ومستعمرة جيلو المأهولة بالمستوطنين، على بعد عدّة فراسخ تندسُّ في المكان هزءاً ورزءاً

عبرنا بيت جالا. مدينة في حجم بلدة مبنية على الصخر. الشوارع مقفرة تماماً والبيوت مقفلة على نفسها. يقال إن ناس هذه المدينة يستدرّون من الكروم نبيذاً يزيل الصدأ عن الروح ويطهّر الجسد. ولا بدّ أن تكون الخمر التي قدّ مها المسيح لتلامذته كي يباركهم مجلوبة من هذه الديار المقفلة بالأسرار. وحتماً شهدت بيت جالا خطى يوسف النجار وهو يسوق حماره ويحثّ الخطو باتجاه مصر. من هنا مرّ المجوس أيضاً. ومن هنا مرّ المنجم الذي كان يتقدّمهم دليلاً حتى موضع كنيسة القيامة، حيث المغارة التي شهدت مولد يسوع.

دير العبيدية : دير مقفل. جدران عالية. باب صغير مثل كوّة في جدار ضخم. قدّام الباب راهب يحدّ ق في الفراغ. كأنه على يقين من أن يهوذا هو الذي قام لا المسيح. وصلنا حقل الرعاة. فجأة : بيت لحم. لافتة ترفرف كلما هبّت نسمة من هواء :

الجمعيّة الخيريّة الوطنيّة ترحّب بقداسة البابا يوحنّا بولس الثاني.

هذه اللافتة هي ما تبقى من إحتفالات الألفيّة الثانية التي حضرها البابا القادم من روما. كلّ ليلة تُقصف بيت لحم والبابا لا يحرّك ساكناً. كبير مطارنة كنيسة القيامة الأب عطا الله المرابط في القدس يعرف كيف يحافظ على شرف الإسم وأمجاد رجال عاهدوا التاريخ العربي وتواصوا بالصبر رسوليّا. البابا بعد الإحتفالات لم يتلقّ ت بصوبك بيت لحم. هي ذي كنيسة المهد. كنيسة وسط ساحة عظيمة. مدخلها كمدخل دير العبيدية مجرّد كوّة صغيرة مستطيلة. يجب أن تنحني حتى لتكاد تلامس الأرض بيديك كي تدلف إلى الداخل. مطران يشبه كائناً من أثير يلبس رداءً أسود استقبلنا على العتبة ونبّهنا إلى ضرورة الإنحناء كي لا نصدم بالجدار هاماتنا. صوته حفنة من الوشوشات بالكاد تُسمع. داخل الكنيسة حشد من السياح الأجانب ونظرات بلهاء. قطعان من العجائز والشيوخ. والكنيسة من الداخل على شكل صليب. أيقونات في منتهى البهاء : هو ذا المسيح الرضيع يبتسم لنا. هي ذي أمّه العذراء. والمجوس جاؤوا. ها هم يسجدون له ويطرحون كنوزهم قدّامه. عباءات سود تسير على الأرض في تؤدة وسكون وتحيط بنا. داخل العباءات مطارنة بالحزن والوجل والنّور طفحت وجوههم. مطارنة فلسطينيون يبتسمون لنا مرحّ بين بالأخوة العرب الذين جاؤوا في هذه اللحظة التاريخيّة التي يُسفك فيها الدم الفلسطيني مسيحياً ومسلماً في بيت لحم. وروما تلزم الصمت.

أنزلونا إلى المغارة حيث شهد المسيح النّ ور. رائحة البخور والرطوبة والشموع تملأ المكان. هنا ولدته العذراء التي حبلت به من الرّوح القدس. هنا المجوس سجدوا له. صوت الراهب كان خفيضاً كنسمة رقيقة تمرق بين أعشاب يابسة. « الإسرائيليون هم الذين يستفيدون من كنيستنا ويستثمرونها سياحياً. لهم ١٥٠٠ دليل سياحيّ. أما نحن الفلسطينيون فلا نملك إلاّ ١٥٠ دليلاً. وفي دعاياتهم لاستجلاب السيّ اح يرفعون شعار زوروا إسرائيل تنعموا بزيارة كنيسة المهد ». هكذا قال المطران فيما طفحت عيناه بحزن صامت عميق يجعلك تخجل من إنتمائك للجنس البشريّ.

مهد المسيح في خطر. والبابا يوحنّا بولس الثاني لا يحرّك ساكناً . شارع بولس السادس، شارع

النجمة، طريق المطارنة. من ساحة المهد تتفرّع الطرق جميعها والبيوت تنتشر محيطة بالكنيسة كأنها تخشى على المسيح من الصلب ثانية. طريق المطارنة شارع يمتدّ من ساحة كنيسة المهد حتى سوق بيت لحم. في وسطه بالضبط بالقرب من مدرسة الراهبات مدرج ينحدر متسلّلاً بين البيوت المقفلة. ولا شيء هناك. لا شيء. فجأة لمحت قطّة رماديّة منقّطة بنقط سوداء تهبط المدرج لائذة بالجدار. تمهّلت في مشيتها. وقفت. الرأس مال. الرأس دار. جذعها لم يتحرّك. عينان صفراوان تشعّان في عتمة المدرج. واصلَتْ القطّة الهبوط كسلى مخفورة بسحر سرّي. لعلّها رهبة المكان. صورة محمد الدرّة ثانية. والروح صارت رماداً. الكرامة العربيّة صارت مجرّد ذكرى بعيدة. وعلى الفلسطيني أن ينهض للصراع من جديد ليبدّد بعضاً من نكد أيّامنا. صوت صارخ في شاشة التلفزيون : مات الولد... مات الولد.. مات...

■

مطعم بيت جالا. صاحب المطعم في عمر المسيح يوم أُسْلِمَ إلى حتفه. شاب ملتح وسيم وقف يرحّب بنا نحن الأخوة العرب الذين نمثّل جزءاً من الوجدان العربي. شابّ فلسطيني كنعاني خالص، أسلافه رأوا يوسف النجار يحثّ الخطى باتجاه مصر وحموا المسيح رضيعاً مهدوراً دمه، جاء يخدمنا مبتهجاً بالأخوة العرب. سألته حذراً :

– عزيزي إسمح لي، هل أنت مسيحي؟

– أنا فلسطيني مسيحي. مرحباً! يا هلا!

– قيل لي إنّ بيت جالا تستدرّ من الكروم نبيذاً فردوسيّاً.

– أمّي تصنع نبيذاً في البيت لو جُبْتَ الأرض لن تجد له مثيلاً.

سألته مداعباً هل عندك أخوة، فأجابني بأنّه سادسهم. فاقترحت عليه مداعباً أن أصير أخاً له، وسألته هل تقبل أمّه بأن أصير لها إبناً سابعاً. فكان أن أهداني قنينة التأمت بعدها شظايا من روحي التي صارت مزقاً ونفايات. بعد مغادرتنا للمطعم بعشر دقائق إبتدأت المواجهات في بيت جالا. واختطف الموت شهيدين في مقتبل العمر.

العشاء الأخير

غداً صباحاً سنغادر رام الله إلى الجسر. فندق *BEST EASTERN* وقت العشاء. مطعم الفندق في القبو. والنور خافت. الفوانيس المعلّقة على الجدران بالكاد تطرد العتمة. والشباب في المطعم يخدموننا بتفان وبكرم منقطع النظير. الإبتسامة وعبارة « هلا، تؤمر » تسبق النادل إليك. الشباب فرحون بنا نحن الأخوة العرب القادمين من العواصم العربيّة التي « استتبّ فيها الأمن » تماماً. نحن القادمين من أوطان غادرها المستعمرون بدءاً بالنصف الثاني من القرن العشرين علينا أن نفرح ونهلّل. فنحن نملك تحت الشمس علماً ووطناً وأشياء أخرى. لكننا جميعاً حزانى حزناً صامتاً تعوّدنا عليه وألفناه حتى غدا جزءاً من كياننا. الجميع يائسون يدركون أن العدالة في الوطن العربي المجرّد فكرة تلوذ بالكوى

المعتمة، وكثيراً ما تتلفّت في السرّ مذعورة من أحذية العسكر ورجال الأمن، وفي الليالي الشتائيّة الموحشة كثيراً ما تجلس مسدلة الشعر في منعطفات الشوارع وتمعن في النحيب. كبير الطبّاخين في مطعم فندق *BEST EASTERN* يتقن إعداد شوربة البصل. أنا طلبتها مراراً قبل هذا العشاء الأخير. هذه الليلة جاءني النادل بها دون أن أطلبها. سألته عن كيفيّة إعدادها. ودوّنت ذلك.

■

من نافذة طائرة الملكيّة الأردنيّة لمحت القدس التي منعنا الجند الغزاة من زيارتها. لمحت قبّة الصخرة وأنا عائد إلى تونس. طائرات حربيّة صهيونيّة حلّقت على بعد فراسخ من طائرتنا، ولم تقصفنا لتثبت لنا أنّ «للسلام» محاسن وفضائل وأشياء أخرى.

وصلت إلى بيتي ومعي شيئان : شيكلان وكيس زعتر إشتريته من رام الله. كيس من نايلون عليه ورقة خضراء كُتب عليها بالأحمر :

زعتر أبناء الريف *ZATAR ABNA AL-REIF*

مفروك بالزيت البلدي

المحتويات : زعتر بلدي – سمسم بلدي – سمّاق – ملح. تاريخ الإنتهاء ٢٠٠١/٣/٣٠

رام الله – المنطقة الصناعية – تلفون: ٠٢٢٩٨١٧١٣

وشيكلان : قطعتان معدنيتان مدوّرتان كعيني حيّة رقطاء. افتقدتهما في صباح الغد. وكان أن عاد إبني علاء ١٣ سنة من المدرسة حانقاً ووجلاً بعد الظهر. صارحني معتذراً بأنّه قد تسلّل إلى مكتبي خلسة واستولى على الشكيلين. وهناك قدّام المدرسة إجتمع هو وأقرانه واقتطعوا من كرّاساتهم ودفاترهم أوراقاً ولفّوا فيها الشيكلين وأضرموا فيهما النار وهم يردّدون الإسم، كانوا يرفعون الإسم عالياً ، إسم الحلم العظيم الضّاري : فلسطين. ولكم كان ذهولهم عظيماً عندما لم تأت النار على الشيكلين المعدنيين. فكان أن ازدادوا إصراراً وانهالوا على القطعتين مسحقاً بالحجارة حتى أتلفوهما.

■

أنا لطفي اليوسفي المقيم في الشمال الافريقي، أنا الذي ذهبت ورأيت أعترف أنني هناك في فلسطين رأيت الوجع ربّانيا، ورأيت الفعل رسوليّاً. وأعترف أيضاً بأنّ ما رأيته في بيوت العزاء وفي المستشفيات والشوارع ليس شهادة واستشهاداً فحسب، بل هو حدث عبور للحدود الفاصلة بين السماويّ والأرضي، بين ما هو بشريّ وما هو ألوهي. ثمّة فسحة من أمل في دياجير هذا الليل العربي. خطوة باتجاه الطريق المؤدّية، خطوة.. خطوتان ومن حقّنا أن نواصل الحلم. ولتحيا الحياة.

تونس

رحلة الأيام الستة في فلسطين

منصف الوهايبي

صبيحة يوم الثلاثاء ٣ – ١٠ – ٠٠

كُنّا نحنُ وفد الشّعراء العرب المشاركين في ملتقى فلسطين الشّعري الأوّل في الطّريق من عمّان إلى جسرِ الملك حسين.

كان زهير أبو شايب (شاعر فلسطيني) قد سلّمنا تصاريحَ السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة وقال لنا : الإجراءات في الجسرِ لن تكون صعبةً هذه المرّة برغم أنّ الإشتباكات بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين من جنود ومستوطنين قد إندلعت في أكثر مناطق الضفّة والقطاع .. ذلك أنّ لا أحد يغامر بزيارةِ فلسطين.

في هذا الظّرف الإستثنائي ... كان الجسرُ خالياً أو يكاد على غير المعتاد، إلاّ من بضعةِ مغادرين أكثرهم كهول وعجائز ... كنتُ أوّلَ مَنْ نوديَ على اسمِه ... تقدّمت إلى المكتبِ الإسرائيلي .. تصفّحَت الضابطة الإسرائيليّة الشابّة الجواز .. ودقّقت في التصريح ثم سألتني إنْ كنتُ أتكلّم الإنكليزيّة : قلت « إلى حدٍّ ما. ولكن الأفضل الفرنسيّة ». قالت : « تتكلّم العربيّة؟ » ... قلتُ مستغرباً : « أجل ». سألتني بلطفٍ عن الهدفِ من الزّيارة. قلت : « المشاركة في ملتقى شعري برام الله ». إرتسمت على وجهِها الأبيض المشرّب بحمرةٍ خفيفةٍ علامات الدّهشة والاستغراب. ثم إلتفتَت إلى زميلتِها وتحدّثت إليها بعبريّة لم أفهمها، إلاّ أنّي التقطتُ منها وهي تبتسم كلمةً تشبه كلمة شعر أو هكذا تهيّأ لي. قلتُ في نفسي : لا بدّ أنّها قالت هذا مجنون حقّاً. فمن يُقْدِم على زيارةِ فلسطين في هذا الظّرف غير المجانين. إنتقلت إلى المكتبِ الفلسطيني المجاور. تجاذبت مع الضّابط حديثاً خاطفاً. قال إنّ له إبناً يحصل هذا العام على الباكالوريا وهو يتمنّى أن يستكمل دراستَه الجامعيّة في تونس.

ركبنا حافلةً صغيرة لنُباغَتْ بعد مسافةٍ قصيرة ببوّابةٍ حديديّة ضخمة وجنود إسرائيليّين مدجّجين بالسّلاح. إستوقفَنا أحدهم وتكلّم إلى السائق ثم أَمَرَ بعد تردّد يسير بفتح البوّابة. أنزلنا حقائبَنا وخرجنا.

في الطريق إلى أريحا القريبة بدأت الجغرافيا ترسم تضاريسَها وتقلّباتها الغريبة .. جبال الملح المترامية .. صورة السّراب أو وهم الماء .. أشبه في وحشتها بظلٍّ خياليٍّ رجراج لا أثر فيها إلاّ لبضع خيام منصوبة في العراء ولفح الشمس .. وأغنام كأنّها تزحف أو تنسلّ كالزّواحف .. ونباتات جافّة

سرى فيها الملح والرّمل . . جبالٌ بيض موحِشة ربّما انحفرت في بعض منحدراتِها بئر أو ما يشبه البئر المعطّلة التي غار ماؤها وكَسَتْهُ الطحالب . . إستشعرنا ضغطاً وحرارة غير عاديّ ين، فأريحا ليست أقدم مدينة في العالم فحسب، إنما هي أيضاً أخفض مدينةٍ عن سطحِ البحر . . ولعلّها كانت في بواكير الأبديّة بحراً لم يبق منه غير ماء آسن وسراب مترقرق كالذي يكسو أرجاء الصّحراء ويعلو حواشيها . . بريقٌ تركض به البيداء . . تغرق فيه الكثبان وتنحسر . . تتبدّى الهضاب وتتوارى . . في قليل من الماءِ يبدو من بعيد كماءِ الغسلِ . . النبات الذي كان من عادةِ العربِ أن يضيفوه إلى الماءِ عند الإغتسال أو ماء السُّخد الأصفر الذي يخرج مع الجنين عند الولادة . . حتى إذا وافينا أريحا بدأ المشهد يتغيّر . . فالأخضر سيّد الألوان يصبغ أشجار أريحا ونباتاتها . . والنّخيل ينتصب في البساتين المحيطة بالمدينة وفي الحدائق الصغيرة التي تتخلّلها . . ليست أريحا صحراء لا تؤنسها سوى أسراب القَطا والحمام . . أو ما تحدسه قوّة الشعر كلّما التبست الكثبان بجسدِ المرأة . . وشفتها بزهرة الرّمل . . وأنفاسها بأنفاس الصّحراء . . إنّما هي المكان الطيّب الأهل حتى إنْ بدَت شوارعُها خاليةً أو تكاد . . تكلّمنا أشجارُها وبساتينها . . . في سرابٍ يرفع الشّخوص المنطلقة في آفاقِ ها التي لا يمكن اللّحاق بها . إستقبلنا جمعٌ من الفلسطينيّين في مدخل مكتب الرئيس ياسر عرفات بأريحا . . كان من بينهم الشّاعر غسّان زقطان . . بادَرني باسماً . . ما تفعل يا تمبكتي في أريحا . . وظننتُه يذكرني بقصيدة لي ولكنّه أسرّ لي بأنّ مفاجأةً بإنتظاري في رام الله . . فقد أعدَّ مسرح عشتار بالمدينة عملاً دراميّاً أساسه قصائد من كتابي مخطوط تمبكتو وأخرى لسيف الرحبي ونتالي حنظل . . .

إنتقلنا إلى مركز أريحا للثقافة والفنون، فقد قرّرنا جميعاً أن نفتتح المهرجان . . أن يكون مهرجانَ شعرٍ وتضامنٍ . . فنحن لا نستغني بالشّعر عن فلسطين ولا نستغني بفلسطين عن الشّعر . . كما قلتُ في كلمة لي قدّمت بها أمسية لمحمود درويش وسميح القاسم في حفل توديع الفلسطينيّين بتونس عام ٩٤ .

افتتح المتوكّل طه المهرجان ليؤكّد أنّ الحياة تستمرّ رغم الحصار المضروب على المدنِ الفلسطينيّة والرّصاص الذي اغتال يوم وصولِنا إثنين من أريحا . . ثم قطع كلمتَه بسبب الإعلان عن سقوطِ شهيدٍ ثالث في أريحا . . وتداول الكلمة بعض أصدقائنا . . وقرأنا بعضاً من شعرِنا . . أنا وجريس السماوي ويوسف عبد العزيز. غادرنا المركز تحت شمسٍ تبسط ظلالنا أبعد فأبعد . . ونحن نسلك صامتين . . دونما خوف . . قال لنا محمود درويش عندما التقينا به في رام الله وقد سأله بعضنا إنْ كان هذا الحصار يشبه حصار بيروت . . الأمر مختلف ولكن الواحد منّا قد يستشعر خوفاً ما في البداية ثمّ يتلاشى كل خوف . . وأخال أنّ هذا الإحساس هو ما خامرني وأنا أرى ظلّي عند مدخل الفندق في أريحا هاجعاً ساكناً لا ينشد غير كفنِ ناعمٍ يحويه . . حتى إذا انطفأ في البهوِ وجدّتني مجرّداً من كلّ شيء، إلاّ من جسدي المشتعل موكولاً إلى نفسه، عندها فقط رأيتني في مرآة عينيّ فينيقاً منيعاً حتى أنّ ي لم أتمالك من الضحكِ عندما هاتفت زوجتي في المساء، كان صوتُها يأتيني من القيروان متوجّساً خائفاً . إستغربَتْ ضَحِكي . . قلت لها إنّي أضحك من نادرة واقعيّة رواها لي أحد أصدقائنا الفلسطينيّين

للتوّ . . . أصيب شابٌّ فلسطينيّ برصاصةٍ مطّاطيّة في رأسِه. إنتابه وجعٌ شديد. تلمّس جبينَه. نظر في يدِه الملوّثة بالدّ م ثم التفت إلى أصدقائه وقال : الله، يبدو أنّي استشهدتُّ يا جماعة !

سَيَدنو اللّيل الأريحي أيّها المجنون مُحمَّلاً بريحٍ كريحِ الخزامى رشّها الطلّ حتّى مسّها بالقوادمِ ونحن نجلس بعد العشاءِ في شرفةِ الفندق : يوسف وجريس وطاهر وسيف والمتوكّل ولطفي ونتالي وهاشم وجهاد ورسمي وغسان وحسين ويحيى . . . نتجاذب أحاديث شتى ولكن صورة الطفل محمد الدرّة تأبى أن تفارقني. قال بعضنا إنّها صورة الصيّ اد والفريسة، ولكنّي قاطعتُه وقلت الصيّاد لا يصيب فريستَه عندما تكون لائذةً بسدرةٍ أو جذعِ شجرة أو شيء ما . . فيما بعد في رام الله قِيل لنا إنّ محمود درويش علّق على الصورة المروعة : هي صورة النّمر والغزال. وأظنّ أنّ هذا هو الوصف الأدقّ. أجل كان لمحمّد المحتمي بوالده جمال الموكول إلى قدرِه وجه الغزال المرتعب يطارده قاتلوه وصرخته الخرساء المكتومة. والقَتَلَة كما يقول أحد الشّعراء : لصوص يجيئون في اللّيل كخيوط الضّباب وكثيراً ما يأتون في وضَحِ النّهار لا تراهم أبداً وجهاً لوجه . . لزِجُونَ كثمرة اللّيتشي الصينيّة يشربون زمنَك ويبصقونَه. غير أنّنا عرفنا فيما بعد إسم القاتل الذي أمر بإطلاق النّار على محمّد ووالده. فليحفر أطفالُنا هذا الإسم »إيغور إيلاند« في ذاكرتِ هم، وليتساءلوا عندما يكبرون وهم يكبرون في فلسطين قبل الأوان : أيّة إستعارة تلفّ الجسدَ المعذّ ب، الجسد الفلسطيني المقطّع المبتور الموسوم في العينِ أو في الوجهِ أو في الصّدرِ أو في الكتفِ في مشهدٍ إحتفاليٍّ يرتكب فيه القتل ببرودة ودونما ندم، حيث تعقد الجريمة مع الطبيعيّ الحيواني المتوحّش في الكائن علاقات قرابة مشبوهة في طقسٍ غابرٍ يحمل في مطاويه عنفاً بدائيّاً ، يفترض بعضنا من المأخوذين بديمقراطيّة الخطاب الغربي أنّه لم يبق إلاّ مجرّد ذكرى باهتة . . اليهوديّ الصهيونيّ يعتقد أنّ ه إله، ولذلك يرفض حُكّام إسرائيل إجراء أيّ تحقيق بشأن جرائمهم، فلا أحد يحقّق مع الآلهة. يرفضون حتى إجراء العقاب العادي على المتوحّشين من جنودٍ ومستوطنين. العقاب من حيث هو إقتصاد حقوق معلّقة يؤخذ فيها الجسدُ بنظامٍ من الإكراه والحرمان والمحظورات، يرفضون حتّى طوباويّة الحياء القضائي أي الحرمان من الوجود مع تفادي الإحساس بالألم.

سأل صحافيّ ون من معاريف موفاز رئيس الأركان، كيف تفسّر إختلاف روايات الجيش في قضيّة مقتل الطفل محمّد في نتساريم وكان جوابُه المكابر وكأنّه يبرّ ر الجريمة، بل هو يسوغها : « لم أجر تحقيقاً جذريّاً في الحدث، ولكن الإنطباع لديّ أنّ إحتمال إصابته من نيرانِ جنودنا عالية نسبيّاً ، ولكن يجب أن نذكر أنّه شارك في الإضطرابات ولم يشاهده أحد في مهدافِ سلاحِه ».

محمد الدرّة المقتول في حضنِ والدِه ومحمّد حامد الذي طلب من والدِه صبيحة إستشهاده أن يأتيه ببيجاما من الكويت، ثمّ توجّه إلى مواقع الإشتباكات التي كانت تدور عند المدخل الشّمالي لمدينة البيرة ولم يَرْتَدِ محمّ د البيجاما، إنما لُفَّ بالعلمِ الفلسطيني.

هذان مشهدان من مشاهد كثيرة تثوي في خلفيّ ة المسرح، مسرح التاريخ، أو هي تروح وتجيء كظلالِ الأشكال السحريّ ة ورسومها تدور حول مصباح يمسكه صاحب العرض في لحظة ما من

لحظات الأبديّة . . مشاهد تبيّن كيف أنّ لوم إسرائيل على الإستخدام المفرط للقوّة هو من المضحكات المبكيات، فللعنفِ مفارقاته أيضاً ، بل هو المفارقة ذاتها، مفارقة الأخلاقي يستبعد العنف تشريعاً ، والسياسي يكرّسه ممارسةً ، مفارقة المتوحّش في الإنسان يغوص عميقاً في ماضٍ غابرٍ ، ومفارقة المؤسّسة كما هو الشّأن في الايديولوجيا الصهيونيّة يجري العنف في ثناياها بدءاً باللّغة وصولاً إلى السلطة، وغيرِ ذلك من المفارقات كثير، ولكن المفارقة الأشدّ إحراجاً من بينها ولعلّها جماع القول في شأنها جميعاً هي مفارقة المعرفي يذيب العنف في عدميّة خلو من المعنى مجرّدة من القيمة. ومع ذلك تكون المعرفة في أمسِّ الحاجة إلى أن تستنبت له معنى وتجترح قيمةً حتى يتسنّى لها أن تحاصرَ العنفَ وتتصدّى له، وإنّه لمن اللافت أن يتصدّى الفلسطينيون لهذا العنف الهمجي باللاّعنف، الأمر الذي يزعج المؤسسة الصهيونيّة ويربكها، برغم أنّ إختيار الخطاب ضدّ العنف والمواظبة باستمرار على تنقية هذا الخطاب ممّا قد يعتريه منه، قد يثير أكثر من التباس مفهومي بين الحقِّ والسلطة والقوّة وحتى الضعف . . .

صحيح أنّ فلسفة الحقّ في هذا الصّراع الدائر على أرض فلسطين تقيم في مجملِها تقابلاً منطقيّاً بين العنف والحقّ يتمّ على أساسِه سلب الأوّل من دائرة الثاني، غير أنّ ذلك يبقى في نهاية المطاف رهين تشريع نظري كثيراً ما تعدم وسائل إجرائه ممارسة. وصحيح أنّ بعض أهل الفلسفة يعقد مقايسةً يخلص بموجبها إلى إثبات القوة معادلاً يتوسّط الإفراط (العنف) والنقصان (الضعف) لكن إلى أيّ مدى يجوز تحديد العنف على أساس مقايسة كمّيّة ؟

إنّ معضلة المعرفة تخصيصاً أو إجمالاً هي ما المسافة التي يتوجّب قطعها من العنفِ باتّجاه اللاّعنف. ذلك أنّ الإجابة عن هذا السؤال تبدو شرط إمكان خلع مشروعية على القيم التي يكتسبها الإنسان، وإلاّ فإنّ القيم التي في حوزتِه مكسوبة بغير وجه حقّ ، أي بالعنف. ولا شكّ أن ما يدرك بالعنف يظلّ عديم القيمة (فليس يفوز المرء بقلب إمرأة إن هو اغتصبها).

صبيحة الثلاثاء ٣ أكتوبر كُنّا في الطريق إلى مدينة رام الله. قلتُ لنفسي كان ينبغي أن أكونَ في بلنسية هذا اليوم للمشاركة في ملتقى شعراء المتوسّط، ولكنّي إخترتُ أن أسافر إلى فلسطين في هذا الظّرف الإستثنائي. والحقّ أنّ اللّحظة الفلسطينية هي منذ إحتلال فلسطين وإقامة دولة إسرائيل لحظة إستثنائية في تاريخ الأمّة، حتى عندما يتهيّأ لنا في لحظاتِ اليأس أنّ كلّ شيء قد انتهى، فاليأس من كلِّ شيء قد يكون مفتاح الأمل في كلّ شيء، وبرد اليأس هو من بردِ اليقين أيضاً. هل ضاع كلّ شيء بعد حرب الخليج الثانية ؟ لا أظنّ. الفلسطينيون أنفسهم يقولون إنّ شعبَهم يفاجئهم من حيث لا يدرون ولا يتوقعون. وقد ذهب في ظنّ كثير أو قليل منهم بعد أوسلو أنّ المسألة الفلسطينية في طريقِها إلى حلٍّ منقوص أو جزئي مبتسر . . إنّ الحلم الذي راودنا جميعاً سيظلّ حلماً مبتوراً . . ولكن يتأكّد مرّة تلو أخرى منذ ١٩٩٤ أنّ الحلم يتجسّد على أرض فلسطين في ظلّ قيادة تعي خصوصيّة الآخر (الإسرائيلي) الذي تواجهه لا من خارج الوطن وإنّما من داخلِه. وربما تجلّى ذلك كأظهر ما يكون في ظاهرةِ المقاومة الفلسطينيّة من جهة، وفي هذا الشرخ الذي يضيق حيناً في المجتمع

الإسرائيلي ويتّسع حيناً وفي هويّة فلسطينيّة (عرب ٤٨) لم تستطع المؤسّسة الإسرائيليّة خنقها أو طمسها.

فإذا كان الحلم الفلسطيني مبتوراً حتى هذه الساعة، فإنّ الحلم الصهيوني حلمٌ مبتور هو أيضاً. والحلم عالمٌ مغلق لا قبْ ل فيه ولا بعد، لا داخل فيه ولا خارج، ولكن شتّان بين حلم صهيوني وحلم فلسطيني. فماهيّة الأوّل جغرافيا لاهوتيّة تجعل من إسرائيل في المنظور الصهيوني (دولة الصّعود والعودة والتجمّع وإعادة التكوين). وهذا طرحٌ زائف لا ينهض له سند من تاريخ فلسطين، في حين أنّ ماهيّة الثاني يعضدها التاريخ والجغرافيا. ويبدو أنّ هذا الحلم الإسرائيلي القائم على جغرافيا لاهوتيّة أخذ يتبدّد عند طائفة من الإسرائيليّين ليحلّ محلّه واقعٌ آخر. فقد كتب يوسي سريد (الثابت لدينا هو أنّه ليس ثمّة حلم أكثر إكتمالاً من الحلم المحطّم الذي تجمع حطامه).

هذا الحلم هو ما كُنّا نراه ونحن نقطع شوارع أريحا في صباحٍ خريفي رطب إلى رام الله. كان هناك أطفالٌ يجمعون الحجارة والزجاجات الفارغة ويدفعون العجلات المطّاطية متحفّزين لاشتباك آخر مع المستوطنين والجنود الإسرائيليّين غير مبالين بأسلحتِهم الفتّاكة. وفي الطريق نرى المستوطنات القائمة على التّلال والهضاب مسوّرة بالأسلاك الشّائكة. ولقد راعنا إتّ ساعها وربما تساءل أكثرنا .. أيّ سلام سيستتبّ في ظلّها. وقد رأيت فيما بعد كثيراً منها في رحلتِ نا إلى بيت لحم بما فيها تلك التي تطوّق القدس.

قد تكون هناك نبرة مختلفة عند طائفة من الإسرائيليّين يبدو أنّها لا تتذرّع بالخيال الدّ يني، ولكن لا يقوم لها سندٌ من الواقعِ الذي رأيناه ولامسناه طوال رحلتنا. فأيّهما أكثر عمى (كما كتب بعض الفلسطينيّ ين) الجندي الإسرائيلي أم الطفل الفلسطيني المصاب في عينِه اليمنى أو اليسرى .. يتذكّر زياد أحمد فراح أنّه كان قريباً من مسجد بلال بن رباح في بيت لحم عندما أصاب جندي عينَه اليسرى بعيارٍ معدنيٍّ مُغطّى بالمطّاط .. ويقول تقرير المستشفى إنّ العين كانت قد أُفرِغت من محتوياتها وقت إدخاله إلى المستشفى .. وتقول إحدى الممرّضات (كلّ ما نستطيع فعله هو تركيب عين صناعيّة. وسنحاول أن نختار لوناً قريباً من لون العين الأخرى) .. ولا أحد يحتاج إلى عينين ليرى بشاعة الجندي الإسرائيلي ووحشيّة القوّة والغطرسة. لقد زرنا بعض المستشفيات ورأينا بعض هؤلاء الأطفال والشُبّان المصابين. ولن أنسى صورة ذلك الطّفل المعوّق ذهنيّاً وقد أصابه جندي إسرائيلي في يده وكتفه .. قال لنا المتوكّل إنّ أهل رام الله يحبّونه كثيراً ويستلطفونه وهو يتقمّص بدلة شرطيّ ويسيّر حركة المرور في المدينة .. كان في سريرِ ه يتمتم بكلمات غير مفهومة، وكانت المغربيّة وفاء العمراني إلى جانبي تنشج في صمت .. لا أحد سيجبلنا ثانية من الأرض والطّمي .. لا أحد يبارك ترابَنا .. نعم كان لدينا جميعاً حلم منذ عودة بعض الفلسطينيّين إلى جزءٍ من أرضهم، ولكن يبدو أنّه يتبدّد وقد لا يقدر أحد على سبكِه ثانية .. خاصة أنّ الأغلبيّة من الإسرائيليّين لا تزال تطرح المسألة من حيث هي حقيقة مطلقة. فلا جبل صهيون حتى بالنسبة إلى المسيحي مملكة من هذا العالم وهو لا يعني فلسطين بالتأكيد، فالجغرافيا اللاّهوتيّة فيما يقرّره فيلسوف غربي هو بول ريكور

في نصٍّ قديم له مرحلة ألغاها تاريخ الأنبياء اليهود الروحي. وعليه فإنّ الماهيّة المؤسّسة للوجود الإسرائيلي ليست الماهيّة المؤسّسة لوجود المسلم أوالمسيحي، واعتبار إسرائيل نفسها إمتداداً لإسرائيل الذاكرة إنّما سنده المخيال الديني أو التاريخ.

نبلغ مدينة رام الله. كانت ريحٌ جبليّة تحملنا أبعد فأبعد. نستريح قليلاً في الفندق ثمّ نزور مؤسّسة عبد المحسن القطان .. يهدينا صاحبُها بعض المنشورات، منها كتاب شدّني كثيراً هو كتاب (أزهار فلسطين) وقد قدّم له محمود درويش بلغته النثريّة المذهلة. ولقد قرأتُ هذا الكتاب عند عودتي إلى تونس. وأحسستُ أنّ الحياة يمكن أن تجري أحياناً بكلّ يُسْرٍ .. أنّ كلّ زهرة في هذا الكتاب حديقة تحتفظ بسريرتها الحميمة .. أنّ كلاًّ منها جزيرة خضراء في زحمة هذا الصّراع القاسي .. وكأنّي أراها من مشبّك وأقول لعلّ الفردوس صُنع ليظلّ مسيّجاً .. لا يسكنه أحد .. غير أنّ فلسطين ليست الفردوس المفقود.

نلتقي بالرئيس ياسر عرفات .. وهو يشيد بقدرة الفلسطيني على اجتراح معجزة الصمود والتصدّي. وأُدرك أكثر من أيِّ وقت مضى أنّ شرف الفعل السياسي أو الشّعري في فلسطين ليس في الواقعة المباشرة، وقد تكون غفلاً من المعنى، وإنّما في الترميز، أي في إقامة علاقة دلالة بين الأشياء والكائنات .. لأقُلْ في (التدلال) أي خلق الدلالة، وهو ليس واحداً وإنّما يجريه اللّسان مجرى مخصوصاً ... وهذا ما استكشفتُه طوال الأيّام الستّة التي قضيتها في فلسطين، فلا الرّمز السياسي ولا الرّمز الشعري أو الثقافي لاحق على الوجود وإنّما كلّ منهما يتنزّل في الصميم منه .. إنّه بإمتياز بؤرة الأنطولوجيا ..

سلام هي فلسطين .. إذ تقول وجودنا تقول وجودها الخاص حصراً .. فلا هويّة لنا خارج فضائها .. وهي مقامنا أنّى حللنا .. وهي السّفر .. تناظر فريد بيننا وبينها وهي تبدّد الوهم وتتدبّر أمر كينونتها وتنضجها على نار أصواتِها وتراكيبِها ومفاصلها .. نحبّ وهي التي تحب .. وكلّما ارتجف منّا الجسد لهذه الصّورة أو ذاك المشهد كانت هي التي ترتجف تحت جلدتِنا أصواتاً وتراكيب ومعاني .. بل كانت هي الجسد عينه .. الحقيقة عينها .. أي هذا الحشد المتدافع من الإستعارات والكنايات ومن ضروب تشبيه الأشياء بالإنسان. فإذا حبّة الشهوة تنغلق على طرف اللّسان لحظة تنغلق فلسطين في الجسد وهي التي تنبسط عندما ينبسط .. وهي التي تنقبض عندما ينقبض .. وهي التي .. عندما هو الذي ...

أعود وكأنّي «كريستوف كولومب الحياة الداخليّة»، يستكشف فلسطينَه الحميمة، أعني وطنه الخاصّ. وما الشّعر إنْ لم يكن تسمية .. إنْ لم يكن ملامسة المكان باللّغة.

سلام هي فلسطين.

القيروان – تونس

حر تماماً.. لست سوى
عبد لرغبات مؤجلة وأخرى دفينة

جهاد هديب

سأُصارح.

لا أرغب بهذا الحضور الطاغي كله والمتَسلِّط، راهناً وفي المعرفة التاريخية، لاثنين:

* شهداءُ فلسطينْ.. لقد احتكروا فكرةً واحدةً للافتداء، قَرَنوها بفكرةٍ أبديةٍ للألم. ما زالتا تسيران معاً منذ اكْتُشفت أول حبة من القمح في أريحا.

* أنبياؤها، الذين ما رأوا للتاريخ إلا وجهاً واحداً لا محيد عنه.

قلت، بينما أخاف مصيراً ما، صنيع ما يمكن أنْ يؤول بي إليه مثلُ هذا الوعي.

سأُصارح.

لذلك أنا فلسطيني في معنى ما، وليس وفقاً للمعاني كلها، وربما أقيمُ في جِهَتَيْ فلسطين: الجغرافيا التاريخية وسؤال المعرفة؛ الانتماء الحصيف والعدم العدم.

لذلك سأذهبُ إلى حديقةٍ بعيدة. وفي ظلِّ شجرةٍ سأقرأ رواية غرامية، تخرجُ إليّ كائناتُها التي تتعذّبُ من فرط الحب، وتبكي بين يديَّ.. وربما أكتبُ عن المرأة التي لا أعرف إسماً لها؛ المرأةُ التي من عَسَلٍ مُقَسَّى ولم تَذُبْ، بَعْدُ، في فمي.

سأُصارح.

أُكْثروا، كما تشاؤون، أيها الشهداء. لكنْ أبطئوا في سيركُم. لم أُخْلَق لأحصي فحسب.

مرةً، أَوْقَعَتْني القافلةُ سهواً عني.. سهواً عنكم.

* * *

لي أنْ أتألَّم بصمتٍ فيما أرى «محمداً» الدرة يُقْتل.

لي أنْ أتأمَّلَ بصمت تذكارهُ في ماضينا؛ ماضي ذلك الجيل الذي دخل إلى مدارس وكالة الغوث الإبتدائية في منتصف السبعينات وما تلاها.. كان لأيٍّ منا نحن، أن يكونَهُ. إنما من غير أعداء أو كاميرا أبو رحمة.

لقد كنّا أطفالاً نهرم في مخيمنا آنذاك. جاءت «الكوليرا»، وفي عَصْفِها حملت أحد عشر محمداً درةً، عدّاً وحصراً، في قرابةٍ شهر من عامٍ واحد.. وظلّ فارغاً في المقعدِ نفسِه المكانُ الذي جَمَعَ أحدَهُم إليّ.

هل كان الله قريباً مني إلى هذا الحدّ؟ لا أعلم. لكنْ شَهِدْتُ محمد «الدرة» يرتعدُ ثم يموتُ في حضن والده.. هو طائر في الجنة الآن. أنا ما زلتُ منذ ذلك الوقت أرتعدُ والجنة ما زالت هي الجنة!!

«كِنّا ثْودَّعْنا وْصَوْتَكْ غاب»

* * *

حين عدْتُ إليه، قال الذي نسيتُه مرةً في المرآة :

«نِحْنا ثْخَبَّيْنا من دربْ الأعمار.

هِنِّ كِبْ روا،

وبِقينا زْغار»

مِشْ هيك؟ لا ثْرد عاحدا. ولا تِعْتَبْ.

* * *

لا أجدُ تفسيراً لخوفٍ سرى في أَوْصالي وانقباض، لحظةً أنْ بدا ذلك الشابُ العشريني أو أقل، وظلت صورتُهُ تتكرر في خاطري، مَزْهُوًّا بكفَيْنْ تَغَمَّسَتا بالدم يُشهرهما عالياً فيما يركض خارجاً من ذلك المكان حيث قتَل الغاضبون «مستعربيْن» أسيريْن احتُجزا في رام الله التي كنتُ غادرتها منذ أيام.

حقاً، ما جاءا إلى المدينة التي ودعتْ شهداءها نهاراً في نزهة ليلية ولا دخلاها بسلام دون مآرب.. فهل خوفي لأنني أريد لفلسطين أنْ تبقى تاريخ حضارتنا الذي يُقاس بنا لا بالغزو فالثارات، أم لأن هذا القتلَ لأسيريْن هو ردُّ فِعْل جمعي لذاكرةٍ مثقلة إلى حدّ أنها تستبدلُ القتال وإدارة المعركة بمحض الانتقام من عدوٍ شرسِ القلبِ والطِباع تَسْتَجْمِعُهُ ـ أي الذاكرة ـ في أسير منزوع السلاح كان من الممكن مبادلتُهُ بأكثر من سواه بكثير؟؟ لماذا تتنازل «تراجيديا» نا عن روحها عند الإمساك بأسيرين لا نُبْلَ فيهما مبتلَّيْن بخوفٍ من هياجٍ شعبي؟ من أجل لحظة زهوٍ عابرة يتنازل «هاملت» عن قضيته التي لو ألقى خطابها في صخر سوف يدمع؟؟

أثِقُ بأنني خائفٌ من المقبلِ كلِّه، ولا أثقُ بما قلت. لست ممن هناك فأعرف. لكنْ وَدَدْتُ لو أنَّ للمسألة وجهاً آخر، طرفُه ليس يَتَبدّى لي.

* * *

أنا

وذبابةٌ عمياء، وَحْدَنا إلى آخر هذا الليل، نلوب في غرفة حَسَنة الإضاءة ومكتبة وطاولة إلى جوارها مدفأة، وفي الحائط صورة للفتى غيفارا في فمه سيجار كوبي، سوف تأتيه الشمس بعد ساعات قليلة من النافذة، وربما أشْعَلَتْه.

هنا. في البعيد، يشعر المرء بالبرد.

ومن هناك، جِئتُ برداناً وأرتعد. كانت صواريخ اللاو تقصف، والرشاشات تقتل في الشوارع والبيوت ليلاً ونهاراً، والشهداء على الأكتاف، والحناجر تتوعد.. والأمهات، منذ الأزل، يواجهن

مصائرَ أبنائهن المحتومة والمنتظرة برشقة ملحٍ خُلِطَ بأرز؛ بدمعة صريحةٍ رافقتْ زغرودة مكتومة سواءً بسواء.

كأنما لستُ من هنا
كأنما لستُ من هناك
كلُّ شيء يشي بذلك.

* * *

مَنْ قتَلَ طفلاً في الشجاعية، تَنَبَّأ بمصير طاغية
مَنْ قصَفَ منزلاً في بيت جالا، عبّدَ طريقاً إلى الجحيم
مَنْ اغتصب زيتونة، أوصى بهجرة «قبيلةٍ» إلى الأبد
والذي صلب بحراً، يخاف من الدم أنْ يُغرقَ هاويةً بين مُتَحاربيْن.

«عُدْ مرةً أخرى لو استطعت.. الناسُ، قبلُ، غيرهم الآن. لقد اختلفوا» يقول وليد أبو بكر. وتضيف إيمان عون وهْيَ تنظُرُ في عينيَّ تماماً «تبدو قَلِقاً لأنك لا ترى بعينيك أنت.. سَهْلٌ الاعتياد. سهل أنْ ترجُمَ بحجر، وأسهَلُ مشيُك بين حاجزٍ ومستوطنة حيث الموتُ طيف يُرى في الهواء أو يتجول في هيئة قطيع من غربان.. أَلَمْ يكنْ أنك ستبقى، لِمَ عُدْتْ؟

يقولان، دون القصد بالتوجه بذلك إليّ، بل دون الحاجةِ إلى سياق أصلاً.
لا يدرك القادمون من ذلك المكان المتخيّل والعميق في أيّ أَلَمٍ تقع كلماتُهم.

* * *

إنْ بَقيتُ هناك.
هل أُحْسِنُ عَدَّ الشهداء بلا خطأٍ أو تأخذني خطى الأنبياءِ إلى «يقينٍ» لا يصلُ بي إلى «إيمان»؟
إنْ بَقيتُ هنا.
هل أُحْسِنُ غير الاقامة في البياض حيثُ لا شيءَ يُتَذَكَّرُ.. حيثُ لا شيء يُنْسى؟
وعادةُ المخيم؛ شِبْهِ المنفى، أنْ تبقى بلا رجاء أو أمل.. لا يدان لكَ فيه فتُصَفِّقُ لأحد. مشاعرٌ غامضةٌ ومحتدمةٌ.
غاضباً ومُلْتَبساً؛ هكذا أنتْ: حرٌ تماماً.. لستَ سوى عبدٍ لرغبات مؤجلة وأخرى دفينةً.

عمان

ما ثمة مجاز

طاهر رياض

كيف يمكن للغة أن تنجو من لغوها، وهي يحك بعضها بعضاً ، في محاولة (ما أشد يأسها!) للتعبير (ما أسخفها كلمة!) عما انطبع وينطبع في الذات من مشاعر وخواطر، يثيرها ويركض أمامها حدث الروح الفلسطيني الأعظم : الانتفاضة ؟!

وبعيداً عن التجريد المشخصن الذي آلت إليه كلمة « الانتفاضة » وعن تصدرها قائمة أسهم الخطاب في بورصة العجز العربي الثرثار، بل بعيداً حتى عما تفجره من تداعيات معنوية وحلمية، أجدني أميل الى العودة إلى التجسيد، إلى القبض على الشيء والمعنى بالحواس المتأتئة، قبل أن تقنصهما التسمية، وتحبسهما في أقفاصها الرنانة.

وما كنت لأجرؤ على مجازفة كهذه، لولا أنني كنت هناك، على الأرض التي ينتفض لحمها البشري، فشاهدت وشهدت، وإن كانت مشاهدة لم تخرج من حيز الشهود ـ أسفاً ـ إلى فضاء الاستشهاد!.

ثمة سؤال أبله يدور في خلدي، قد يصلح ليكون بداية، وإن كانت فجة، للملامسة المقصودة هنا: لماذا يجب على الشعراء أن يكتبوا، شعراً أو نثراً ، عن الانتفاضة؟!.

هو سؤال أبله كما ترون، ولكنه، ككل أبله، يلح في طلب إجابة شافية، وككل أبله لن ترضيه الإجابات المحاتلة، أو تلك المبنية على الركون إلى البدهيات والأعراف.

والوجوب المفترض من الشعراء (أو المفروض عليهم!) هو إما نابع من ضمير الشاعر نفسه، من ضيقه بما احتشد في وجدانه من مشاعر وانفعالات صاخبة، لن تهدأ حتى يخرجها كلمات على الورق؛ أو أنه نابع من إحساس الشاعر بواجبه في التعبير عن مشاعر وانفعالات الآخرين ممن حرموا القدرة على الكتابة، وفي كلتا الحالتين يراد منه أن يكون اسهاماً في الفعل الجاري على الأرض ـ الانتفاضة.

وكأني بالشاعر ما يزال يعتبر نفسه، ويعتبره الآخرون، صوت أمته، وضميرها الحي، الحامل لهمومها وأفراحها وآلامها، المعدد لمناقبها، الممجد لانتصاراتها، الرائي لقتلاها، الشاتم لأعدائها... وربما هو كذلك، أو كان كذلك، في جاهلية انقضت (أو هكذا حسبناها!)، قبل أن تخرج الأمور عن مجرد نزاعات قبلية بالسيف والرمح على مرعى وكلأ، وقبل أن تتعقد العلوم والاختصاصات، فيتولى آخرون فيما بينهم تلك المهام التي كانت منوطة بلسان الشاعر وفصاحته، وأعني بهم علماء الاجتماع وعلماء السياسة وعلماء الاقتصاد وعلماء التاريخ وعلماء الحرب وعلماء النفس وعلماء الإعلام.. حتى علماء الكلام!.

لكن الناس ينتظرون من الشاعر، الشاعر وحده، أن يقول ويكتب! وهو في داخله يحس أنها مهمته هو، دون غيره! وكأنه راسخ في وهمه أن حركة التاريخ، وسيرورة الواقع، ورياح التغيير مرهونة

بما سيسيل به قلمه على لوح الأقدار المكشوف، هذه المرة، لا المحفوظ! وكأننا ما نزال ننظر إلى صراع وجودنا نظرة شاعرية، تستبدل الحركة والفعل الناتجين عن الدرس والتحليل والرصد الموضوعي، بانثيالات عاطفية، وتهويمات مدغدغة، وبلاغات لفظية، لا تعمل على تحويل الدم إلى حبر فحسب، بل أيضاً على تحويل الشهادة إلى رمز، والألم البشري إلى مجاز، والفجائع اليومية إلى استعارات وتوريات!.

والسؤال الأبلة السابق يلد أسئلة أخرى ليست أقل بلاهة: هل تُعد قصائد الشعراء وكتابات الكتّاب وخطابات الخطباء مشاركة في الانتفاضة، أم أنها ليست سوى تعويض مرضٍ عن العجز عن المشاركة الحقيقية فيها؟ بكلمات أخرى؛ هل من شأن هذه الكتابات أن تسهم في تحرير الأرض وإنقاذ الإنسان، أم أن جدواها تقتصر على تحرير ضمير كاتبها من وطأة الإحساس باللانفع، وإراحة ضمائر متلقيه من الرهق الذي يرين عليها، بسبب ما تعانيه من شلل شامل؟!.

وحين يستعمل أحدهم لغته لتصوير رمية حجر أو نظرة غضب أو مصرع طفل أو نواح أم... هل يكون في روعه أن صوره أصدق وأبلغ وأبعد أثراً من صورة الحقيقة التي رآها عياناً، أو عبر ما تبثه أجهزة الإعلام صبح مساء؟!.

وحين تعلو أصواتهم بالحمد والتمجيد آناً، والحزن والتفجع تارة، والوعيد والبشرى تارة أخرى، هل يحسبونها تبلغ علو أصوات الدم المراق على الإسفلت وحول الحواجز وفي المستشفيات؟ بل هي حين تهدأ أسيانة، هل يرونها تداني الهدوء والأسى اللذين يغلقان وجوه الشهداء المرفوعة أمام سماء عمياء؟!.

وهل في ظن أحدهم أن أولئك البسطاء الواقعيين، ولا أقول الأسطوريين، المنتفضين على القهر والظلم والاحتلال، كما ينتفض الجسد الحي تحت وخز الإبر، يقرؤون قصائده، أو يفهمونها، أو يتخذون من تكاثرها وتراكمها ذخيرة لهم في مواصلة نضالهم، وهم الذين ما انتظروها حين أشعلوا هذا النضال واشتعلوا به؟!.

وإذا كانت هذه القصائد موجهة إلى بقية الشعب والجماهير والحكام وصناع القرار، أن «تنبهوا واستفيقوا أيها الـ...»، فلماذا لم تصل رسالتها بعد، على الرغم من تلال القصائد المتلّ لة، التي تكرر الفحوى ذاتها دون هوادة، بالألفاظ ذاتها دون هوادة، عبر أكثر من نصف قرن من الخيبات... دون هوادة؟!.

أما إذا كان يراد من هذه القصائد والكتابات أن تكون أعمالاً فنية جمالية، تسعى، بأدوات دقيقة ومحترفة، إلى استلهام الحدث لتخليده، وجعله عبرة وراقة وجدانية أصيلة، تنفعل بها وتتعلم منها الأجيال القادمة، فلعمري ألا تكفي قصيدة جيدة واحدة، أو بضع قصائد لتلبية هذا المطمح؟.

أجل، إنها أسئلة بلهاء، لا أظنها ترد على خاطر كثير من الشعراء وغيرهم من ممتهني الحرف، وهم ينتظرون هبوب الحدث فعلاً، لكي يندفعوا في هبوبه.. قولاً!.

ولعل هذه أن تكون إحدى شؤون الانتفاضة وغاياتها، أن تكشف فنياً بلاهتنا، وتفضح ادعاءاتنا وأكاذيبنا على صفحة مرآة صدقها الجارحة، وتثير فينا شهية الانتفاض، بدورنا، على ما تواتر واستتب

حتى أصبح أعرافاً وتقاليد، وتحرك فينا ما أسن من أفكار وأساليب، علها تتنفس هواءها النقي الطازج.

*

« ما ثمة مجاز، الكل حقيقة! » قال ابن العربي، ذات كشف بعيد. وكأنه كان يعطينا مفتاح الرؤية السحري، الذي به، وبه فقط، يمكن فضّ مغاليق المعنى، وملامسة الانتفاضة، وجس نبضها الحارق.

كنت أود أن أكتب كلاماً آخر، أعبر فيه عن مشاعري تجاه ما شهدته على الأرض الفلسطينية المنتفض شعبها، وعن تفاصيل لقائي الأول بها، الذي أبت الأقدار إلا أن ينشأ بعد سنوات، حتى يتزامن مع انطباق الفكرة على معناها، وتماهي الحلم مع حقيقته.

ولست خجلاً من الاعتراف بأنني لطالما حاولت، طوال ما يزيد على الشهرين، أن أفعل ذلك، لكنها محاولات كانت أشبه ما تكون بتثبيت قطرة زئبق على لوح خشبي.. بمسمار!.

لقد جردتني الانتفاضة من أدواتي اللغوية والبلاغية جميعها، ومسحت بمحاة واقعيتها كل ما حفظته من كلمات وتعابير، وما خزنته من أسماء وتشبيهات، وأوقفتني هكذا، مذهولاً مبهوتاً، أمام حقائقها العارية!.

ما ثمة مجاز، هذا أول الكلام!

فلسطين ليست مجازاً. الاحتلال ليس مجازاً. الشهداء ليسوا مجازاً. الأمهات العائدات إلى بيوتهن بعدد من أطفالهن لسن مجازاً. أشجار الزيتون التي تقتلع والبيوت التي تهدم ليست مجازاً. الفتية المشمرون عن سواعدهم المغذاة بشمس بلادهم، يرجمون البغي ويقاومون القمع ليسوا مجازاً. محمد الدرة ليس مجازاً. الآخرون الذين سقطوا برصاص الاحتلال الحي (الحي؟!) ولم نحفظ أسماءهم، ولم يحظوا بمصور عابر ينقل تفاصيل إعدامهم ليسوا مجازاً. ما يجري على الساحة السياسية، بموازاة كل هذا، وخفية عنه، ومتاجرة به، ليس مجازاً. الكل حقيقة. الكل حقيقة. هذا منتهى الكلام!.

عمّان

إنها تحاول إنجازنا!

خيري منصور

بدءاً، لا بد من تصحيح أكثر القراءات رواجاً للإنتفاضة، تلك القراءة التي حذفت أبجدية المقاومة الفلسطينية، وبدأت من الياء، فانتفاضة الخريف الأخير التي اجترحت ربيعها التاريخي من صلب الجغرافيا الرسولية، هي واحدة من قيامات مهّدت لها، وهي تجلٍّ من تجلّيات قرن أوشك أن يكون إسرائيلياً، لولاها.

أما القراءة المتدنية الثانية التي لم ترتق إلى مرتفعات هذه الظاهرة الفذّة، فهي التعامل الموسمي مع رياحها، وكأنّها عَوْد إلى صفر البدايات، وسلسلة من العتبات التي لم تُفْضِ إلى أي بيت!

لهذا ازدهرت الكتابات (عنها) و« حولها » وقلما كانت (منها) أو (فيها)، ليس لأنّها لم تتمدد خارج

نطاقها الجغرافي، بل لأنّ ظهيرها العربي والإسلامي يفتقر إلى رشاقة الإستشعار، وبالتالي لا يتذكّرها إلاّ إذا لامس وجهه رذاذ الدم ! فالكتابة عنها كرصد خارجي وأفقي، بدأت تحصي أيامها، وأسابيعها، وشهورها. أكثر من عشرين صحيفة ومجلّة عربية أحلّت الإحتفاء مكان التحريض والمشاركة.

فبدت البشائر بأن الإنتفاضة دخلت شهرها الثالث، كما لو أنها مقدمات لبشارة قادمة، تَعِدُ العرب بأن الشهر التاسع سيكون المخاض الأخير، وهكذا تنجز الإنتفاضة وحدها « وطناً » واستقلالاً ، وتحريراً لمقدسات تخص ملياراً ونصف المليار من البشر!

هذه الإنابة، يتنازل بموجبها ثلاثة آلاف عربي ومسلم ليهودي واحد، وكان بمقدور طفل فلسطيني كالشهيد (الدرة) أن يفك الأحجية بعملية حسابية لا تحتاج إلى حاسوب !

لقد أدّى الترميز المبالغ فيه لإسناد الإنتفاضة المحاصرة، إلى جعلها شبه جزيرة، محاصرة من إسرائيل من الجهات الثلاث.. والجهة الرابعة هي البَحْر، وبالطبع تختلف أشباه الجزر عندما تكون سياسية أو تاريخية عن مثيلاتها في الجغرافيا الصمّاء!

كان أسبوعها الأوّل زلزالاً ، خلخل حالة الإستنفاع السياسي والإجتماعي وحتى الثقافي في الوطن العربي، لكن إغاثات متعاقبة حصّنت النظم والأتوقراطيات من هذا الزلزال، وبالرّغم من الإنحسار الذي أصاب « الظّهير »، إلاّ أن الانتفاضة كدينامية كاشفة وفاضحة أسقطت جملة أوهام دفعة واحدة، وَهْم الشقيق اللدود، والحليف غير المأمون والإركان إلى سلام أنكى من أيّة حرب.

وأوشكت أيضاً على إسقاط الأبويات السياسية والإجتماعية وسائر تربويات الوصاية. ولعلّ هذا التهديد الذي اقترن بوهجها هو ما حفّز الخائفين إلى استدعاء كل الاحتياطيات لتدجينها، وتحويلها إلى مجرّد جملة معترضة في كتاب العرب الإمْتِثالي، وفي قرن جديد من ألفية، بدت منذ ميلادها مطوّبة للولايات المتحدة وضاحيتها الإستيطانية شرق البحر المتوسط.

إنّ إنتفاضة « مُتلفزة » لهي محظوظة بمقياس ما بالنسبة إلى سابقاتها، منذ عشرينات القرن الماضي. لكن « التلفزة » أيضاً لها أعراضها وأخطارها الجانبية، فبدا الإعلان للحظة يقتسم الجنازة على شاشة واحدة.

وبدت الندوة بديلاً عن أيّة مشاركة، وهكذا تَحوّلت فروض العين إلى سلسلة لا نهائية من الإنابات والترميز، والإراحة من شرّ القتال!

وكأن التّرميز تحديداً في بعده الإقتصادي كالتبرّع وتوائمه قد اختزل التراجيديا كلّها إلى مجرّد حادث سير كبير، أو نكبة طبيعية، وكأن الفلسطيني قد اندلع من القمقم، وطفا على دمه من أجل الخبز أو إعادة بناء بيت منسوف.

إنها حرب استقلال، تعرضت إلى تحريف، وأصبحت الآن في حاجة إلى إعادة (تعريف) كي لا تغتسل الذاكرة الآثمة بحفنة دولارات، وتحقق التوازن الوهمي في لحظة أصبح الدم فيها يحدد منسوب كل شيء!

بقي أن أنتهي – رغم مراوحتي في البدايات – إلى أن الوجدان الأدبي حَوّل الإنتفاضة إلى (ممدوح) جديد، فتشابهت المدائح حتى الشّحوب، وتغذت على الظاهرة ولم تُغَذّها، وفي غياب الجدل الحيوي بين المكتوب عنه والكاتب، تكون الخسارة محتمة للمكتوب عنه، لأنه يتعرض إلى تنميط، واختزال، وبالتالي لا يُقرأ من البحر كلّه إلاّ سطحه الأزرق المتموّج.

فالإنتفاضة مبثوثة في الأنساغ كلّها، وعلى من يبحث عن موقع بجوارها، أو في مدى توهّجها أن يعثر على إنتفاضته، لغةً ورؤىً ، وأن يستغيث بها للتحرّر من تراثِ المديح الذي تورطت به الثورات العربية كلّها خلال نصف قرن !

وسيبقى السؤال مفتوحاً على آفاق لا آخر لها، تنبعث فيها الإنتفاضات كالعنقاوات وهو.. أيّهما أنجز الآخر؟ أيهما سينجز الآخر ، الوطن أم إنتفاضته؟

أم كلا الإثنين، سينجزان عربياً حُرّاً خطوته الأولى على هذه الأرض.. فلسطينية؟؟

سأكون بين اللوز ...

حسين جميل برغوثي

بعد ثلاثين عاماً أعود إلى السكن في ريف رام الله، إلى « هذا الجمال الذي تمت خيانته » . نفيت نفسي، طوعاً ، عن « بدايتي » فيه، واخترت المنفى، وأنا ممن يتقنون « البدايات »، وليس « النهايات »، وعودتي، بالتالي، « نهاية » غير متقنة .

كان القمر بدراً ، والهواء صقيعياً في جنائن اللوز حول بيتنا وأنا أتجول بين الظلال وأتأمل في هذه « النهاية » . أرجعني إلى هنا مرضي بالسرطان، ووجع في أسفل الظهر مستمر إلى حد الملل . والملل، كما قال عنه كيركيغارد، « مرعب إلى حد لا يمكنني عنده أن أصفه إلا بالقول بأنه مرعب إلى درجة مملة » . والمرض، عندي، وجهة نظر في الحياة .

لم يعد لي من مكان في كل هذه « الإنتفاضة » إلا التردد، بشكل ممل أيضاً ، على مستشفى رام الله، فهو الآن كعبتي أو حائط مبكاي الأخير . هناك متسع لي بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة حفظ الموتى تحت . أعني بأنني معاق تماماً ، وأطوف على حافة الأحداث، في ضواحي الأشياء . مثلاً ، في ممرات المستشفى الغريبة، ممرات تسكنها كائنات بقبعات خضراء وأردية خضراء، خبيرة في « التشريح »، تمشي وراء عربات عليها مخدرون لم يفيقوا بعد، أو لن يفيقوا أبداً . وفي باب غرفة الطوارئ تتدفق سيارات إسعاف عليها رسم هلال أحمر كالذي كنت أراه خلف الجبال، جرحى وشهداء، وأنا تائه أسأل عن دكتور أمراض الدم . فترد ممرضة متوترة : « نحن في حالة طوارئ، ألا ترى؟ » . فأدرك أنني شخص زائد عن الحاجة، مريض متطفل يمشي نحو مصيره وحده، بهواجس فردية، لست « زائراً »، ولا « معافى »، ولا جريحاً ولا على وشك الشهادة، بل « مريضاً عادياً »، أي لفظة حائرة بين قاموسيّ الموتى والأحياء، بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة الموتى في الطابق السفليّ . بماذا يشعر كائن قدره أن « يراقب »، ممنوع عليه « التدخل »، ويشم رائحة الأدوية، بدل الزعفران، بين طابقين؟ .

هذا ما أرجعني إلى الريف، إلى جمال سبق وخنته، رجعة غير محكمة الحبكة .

كنت أخطط للعودة من زمن . فزرت جبال طفولتي، ليلاً . كان القمر كاملاً ، والصمت شاملاً ، بين خرائب « دير » قديم ومهدم، في قمة جبل بعيد عن القرية . وقفت هناك أتأمل البدايات والنهايات . فجأة حدث شيء غريب فعلاً . سمعت صوتاً يشبه بالضبط بكاء طفل صغير، يأتي من جنائن التين والزيتون المقمرة، وقف شعر رأسي من الذهول، وحدقت في تفاصيل الظلال، والصخور البيضاء، ولم أر أحداً . بدا الصوت وكأنه يأتي من كائن لا يرى في هذا البر الواسع .

مشيت نحوه بحذر، خائفاً ومندهشاً ، فواصل بكاءه، ولكنه كان يبتعد كلما اقتربت . أسرعت ولم أصله . قطعت عدة جنائن وكان لم يزل بعيداً عني بنفس المسافة . رجعت من حيث أتيت، وقلت بأن هذه جبال بها شبه الجنون، أو مسكونة بالجن، أو مختلفة، ببساطة . ولكن الصوت لحق

بي، واقترب إلى حد محرج ومخيف. حملت عصا واتجهت إليه، وأنا لا أرى غير شجر قصير مقمر. كان في الحقل الأول، ولما وصلت بدا وكأنه يأتي من الثاني، واحترت تماماً. فكرت بأن هذا قد يكون «ضبعاً» . ولكن ليس لضبع صوت بهذه الرقة، بهذا الحزن، والطفولية، والشعور الماورائي. على كل، قد يكون «ضبعاً» . والضبع يخشى من النار، ويهاجم المنفردين مثلي، وقيل بأنه يرشق بوله على وجه الضحية كي يتخدر حسها بالأشياء. أخرجت علبة كبريت من جيبي، ورجعت نحو خرائب الدير، ووقفت هناك أفكر.

كانت أمي يتيمة، وعاشت زمناً ترقص وتغني في مواسم فلاحي المنطقة. وتبناها عم لها يدعى «قدورة»، شيخ عملاق وصلب، كان يسكن مع أخيه، على ما أعتقد في هذا «الدير»، وكانا قاطعي طرق مسلحين، أيضاً. إن اختفت فرس أو بقرة قالوا إنها في «الدير الجوّ اني»، ولم يجرؤ أحد على الذهاب إلى هناك.

في ذات ليلة كان راجعاً إلى الدير على ظهر حماره، ورجلاه تتأرجحان فوق الطريق المقمرة، فلقفت قدمه اليمنى أفعى «زعراء» (قصيرة وملونة وسامة جداً) . نزل، وقفز قفزات متوالية قبل أن تفلت قدمه من نابها، ووصل الدير منهكاً، ومات هنا، حيث أقف، ربما. كانت أمي تقسم لي، وأنا طفل، أنها رأت نفس الأفعى «الزعراء» تطير فوق الجبال المقمرة وتزغرد لأنها قتلته. ومرة قالت بأنها أفعى لها قرنا ثور هرم، ويتحرك العشب اليابس من زفيرها، وتدعى «أفعى القصبة».

خطرت ببالي «ذاكرة المكان» هذه، وأنا واقف فوق الخرائب. غرباً، في قمة جبل مغطى بغابات صنوبر وسرو وبلوط، تشع أضواء النيون من مستعمرة إسرائيلية تدعى «حلميش»، عندهم، و«مستعمرة النبي صالح»، عندنا. أضواء باردة، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة. وبدت المستعمرة معلقة في الفضاء، ربما بسبب الضوء أيضاً، ولم تلمس الأرض، ولا التاريخ، بعد.

ماذا يرى مستعمر جاء من روسيا أو أستونيا، ربما، قبل سنة فقط، حين يفتح الآن شباكه، ويحدق في نفس هذه الجبال التي أنا فيها؟ ماذا يرى، أو يدرك من هذه الجبال التي تسبح في تاريخها وتبزغ منه؟ لن يرى، حتماً، الأفعى الملونة التي تطير وتزغرد فوق الخرائب، ولن يسمع هذا الصوت الذي يبكي، ولا هذا السر الذي يجعل حتى مصابا بالسرطان يمشي فيها في الواحدة ليلاً! لن يلمس التاريخ، ولو كان عرافاً، ليس تاريخي أنا، على الأقل، ولو كان إلهاً.

وأنا واقف فوق الخرائب تلك، شعرت بفرق شاسع بين نوعين من «الضوء»: القمر والنيون في المستعمرة. كان الأخير مرتباً، ومهيمناً، حاد البياض، منتشراً حتى وراء الأسلاك الشائكة التي تعزل كل مستوطنة عن محيطها، أشبه ما يكون بـ«رؤيا مسلحة»، باحتلال بصري، ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلحة ومضاءة بالنيون. وبدت المستعمرة كلها كتاباً في النفس أيضاً: في العلاقة بين «القوة» و «الضوء»! لم يدرس أحد، بعد، العلاقة بين القوة والضوء!.

وبدا لي بأنني أرى «ذاكرتين» معاً: ذاكرة الأفاعي التي تزغرد وهي تطير، وذاكرة من رؤى وأساطير مسلحة تحلم بإبادة الأفاعي. (أو لم يقل إسحق شامير، رئيس وزراء اسرائيل السابق، في الانتفاضة السابقة، بأن العرب «أفاع»؟). وبين الذاكرتين، ذاكرة الضحية وجلادها، ما يشبه الوادي، أو «الهوّ ة»،

صدع عميق ما، وأنا واقف على شفير هذا الصدع اللامرئي. هل يمكن لهذا الصوت الغريب الذي يشبه بكاء طفل صغير في هذا البر المقمر أن يكون قادماً من أعماق الصدع؟.

لما رجعت إلى بيتنا سألت خالاً لي، أكبر سناً مني، وذاكرة، عن الصوت قال: «هذا صوت حيوان صغير يدعى الـ«غريريا». كانوا قديماً يطاردونه بكلاب الصيد والبنادق، ولحمه لذيذ، والآن انقرض تماماً. ربما أنك سمعت صوت آخر غريريا في هذه الجبال!». قلت لنفسي: لا، رأيت غريريات أخرى كثيرة في مستشفى رام الله، كن يلدن ويولدن في الطابق العلوي، فوق، أو يحفظن في ثلاجة الموتى، تحت، لكن رأيتهن...

رام الله

أقواس لإنتفاضة خارج الأقواس

أحمد دحبور

تقتادُك الإنتفاضة من يد روحِك، وتمضي بك لا إلى فردوس الطمأنينة، بل ربما إلى النقيض. فأنتَ إزاء هذا الفعل الإنساني الجبّار، حائرٌ على غير مستوى. ثمّة دمٌ يُراق ولا تملك غير الحِبر، وما من حِبرٍ يرقى إلى منصّة الدم. وحتى حين يمور الدّم في جسدك باحثاً عن مخرج، فإنّك حينئذٍ فدائي لا شاعر. وليس معنى هذا أنّ الفداء ينافي الثقافة، أو أنّ الثقافة متعالية على الميدان، ولكن لا بد من تفادي خلط الأوراق، فلا يمكن للممارسة أن تتحوّل إلى حكم قيمة أدبي، مع أنّ الحِبر عرضة لاختبار دائم – لقد خلصنا من ترفِ الكتابة للكتابة وهي ذي الإنتفاضة، بوهجها وضرائبها اليومية، تعيد إنتاج السؤال التقليدي عن جدوى الكتابة، وإذا كان السؤال قاسياً أو عصياً على الجواب، فلنبحث عن صيغة ثانية: «هل من عزاء في الكتابة؟» ويرسلك هذا السؤال إلى مستوى آخر من المشكلة، يتصّل هذه المرّة بكينونة المثقف المتورّط بوجوده في زمنٍ ملتهب: «هل قدَرك أن تلبس هذا اللّبوس الماسوشي، مقرّعاً حيّزك الفيزيائي المحدود، بدعوى عدم صعوده إلى لحظة الإشتباك؟»... وحين يدخل المثقف العضوي – مع الإعتذار من غرامشي – على الخط، فإنّك في مستوى ثالث من الحيرة: كيف أمارس كمثقف وكيف أكتب كمحارب؟ وفي كلتا الحالتين: ألستُ مثقلاً بأسئلتي الوجودية، أنا المفرد في فضاء محذوف؟ فكيف أتحوّل إلى خليط فعّال في نسيج الجماعة؟ ولك أن تعتبر، في طفرة يأس أو ضجر، أنّ ما سبق ليس إلاّ دلعاً لغوياً، وأنّ عليك أن تعود إلى سؤال الأسئلة عن دورك،

مثقفاً في هذه الملحمة. وساعتها لا مناص من مستوى جديد يدعم حيرتَ لك الأولى، هو أنّ الإنتفاضة هي نشيد الجماعة ومرآتها، وليس الفرد إلاّ نبرة في إيقاعها الجمعي المتكاثر. بهذا لن تكون ذاتك إلاّ بالحدّ الذي تسمح به الإنتفاضة، فهي تهدّد شخص الثقافة بالتنميط. وحين تنأى عن الإمتثال للثقافة السائدة، فمعنى ذلك أنّك اخترتَ الغربة – أمغترب ومثقّف ثوري في آن؟ كيف تلتئم المعادلة؟

١

على أن حرارة الجو تعفيك من التفلسف، وتضعك في عين العاصفة مباشرة. وللجوّ أن يشتعل حتى ولسعة البرد الخريفية تمسّ منك العصب. وبين أن تنشغل ببرد زاحف وحرارة موقف محتدم، تنسى دور المثقف أو تتذكر أن المثقف لا يملك دماً أزرق. إنّه في المحنة كالآخرين فماذا عن الآخرين الآن؟ سأقتطع فقرة من مادّة تشبه اليوميّات، فلعلّ «الآخرين» عايشوا تلك الليلة كما فعلت: أسجل هذه الكلمات في الدقيقة العاشرة بعد السادسة من مساء الإثنين الموافق ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠ من غزة. لقد قطعت ما بدأت به أعلاه. لسبب بسيط: إنقطعت الكهرباء وبدأ القصف. من أين؟ إلى أين؟ كل ما أعرفه الآن أنّ القصف جوّي وبحري. صوت الطائرات يملأ المكان، ووسط الظلمة تلوح من البحر أضواءٌ حمراء تطلقها الزوارق الحربيّة، ولأنّني أكتب من غير تدبير مسبق، ومن غير أفكار مرتبة، فإنّني أسجّل كل ما يخطر لي أوّلاً بأوّل. مثلاً: هذه أوّل مرّة أتعرّض للخطر وأنا في بيتي الشخصي. فقد كانت المخاطر تجول معي وتنتقل، كما حدث لآلاف الفلسطينيين من أبناء جيلي: من عمّان ١٩٧٠، إلى جنوب لبنان ١٩٧١، إلى درعا – جنوب سورية عام ١٩٧٢.

ويجب ألاّ تفوتني الفترة التي عملتُ فيها مراسلاً ميدانياً في غور الأردن الشمالي بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠. كان للطائرات خرير خبيث، أشبه بهذا الذي أسمعه الآن.

لحظة، ثمة دويٌّ كبير، إنفجارٌ آخر، لعلّ القصف قريبٌ جداً. الكهرباء مقطوعة فلا تلفزيون بالتالي ولا أدري أين يوجد الراديو؟ وأكتشف المفارقة: فحين تتعرّض للخطر بعيداً عن أهلك تكون مشكلتك بحجمك، أمّا حين يأتيك الخطر إلى البيت فأنت مسؤولٌ أمام حيرتِك... وعجزك وغضبك. ما علينا؟ ها هي أصوات أطفال البناية تصلني إلى هنا: الله أكبر...

ياه! الله أكبر... كنّا أطفالاً عندما سمعنا هذا النشيد أوّل مرّة، يا هذه الدنيا أطلّي واسمعي، جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي. وأتذكّر ذلك النص المثير للمحامي الفرنسي جاك فرجيس الذي دافع عن الأسير الفلسطيني الأوّل محمود بكر حجازي. لقد سأله: على من تعتمد؟ إنّ الجيش الذي تحاربونه هو أقوى جيش في المنطقة: فقال له محمود: نعتمد على الله... ويقول جاك فرجيس: «لقد ارتجفت عندما سمعتُ تلك الكلمة.. الله.. إنّها الكلمة التي سمعتها أيضاً من ثوّار الجزائر».. ولكنني لا أتوقّع الآن تدخّلاً من الله وبطبيعة الحال، أستبعد إحتمال أيّ تدخّل عربي رسمي.

لا أتحدّث عن البطولة ولا أعرف ما سيحدث بعد دقائق. لكنّني أقرّر حتى هذه اللحظة أنّني لن أغادر. لقد غادرنا كثيراً، ولجأنا كثيراً، وهذا أوّل سقفٍ يغطّي رأسي ويكون لي. صحيح أنّني لم أسدّد أقساط بيتي، ولكنّه لي. لن أتركه، فقد بكى أبي بما يكفي وكان يقول: «ليتني سمعتُ جارنا

الحلاّق «أبي جورج» وهو ينصح ألاّ أغادر حيفا». ولن أغادر إلاّ إلى حيفا.. لا يوجد عندي زيتون ليقصفه الجنرال. ولكن أمام بيتي بحيرة سمك. يجب أن يقصفوها، لم لا؟ أليس السمك – مثل الزيتون – من أعداء السلام؟

٢

(إكتشف العلماء أنّ المخلوقات الحيّة جميعها تغيّرت منذ أن وُجدت على وجه الأرض حتى اليوم إلاّ العقرب. فقد وجدت متحجّرات من العقرب منذ مئات آلاف السنين تدلّ على أنّ العقرب بقيت على صورتِها الأولى التي وجدت عليها).. ليس هذا فصلاً من بحث في علم الأحياء، ولكنني ورثتُ عن أبي المسحر في رمضان تقليداً شعبيّاً، هو إقتناء مفكّرة يومية، فأقتطع كل يوم ورقة منها تدلّ على التاريخ بالتقويمين الميلادي والهجري، وأقرأ، على ظهرها، حكمة أو مأثورة أو معلومة.

ويوم الإثنين الموافق ٢٣ / ١٠ / ٢٠٠٠، المتوافق مع ٢٥ رجب للعام ١٤٢١ الهجري، قرأت في تلك الورقة، هذه المعلومة عن العقرب..

وفي ذلك الإثنين، كنتُ عائداً من عملي إلى البيت، فبشّرتني زوجتي بأنّ الجنرال أصدر أوامره بإغلاق المطار الفلسطيني في رفح، وردّاً على النار بالمثل، بشّرتها بأنّ الجنرال المذكور أمر بوضع حاجز بين غزّة وخانيونس، ففصل بذلك قطاع غزة بعضه عن بعضه الآخر... تماماً كما فعل في الضفة...

أمّا الشخص الذي إسمه يغئال كرمون مما يسمى معهد أبحاث صحافة الشرق الأوسط، فقد ظهرت صورتُه، على عينك يا عربي، في إحدى القنوات الفضائيّة العربيّة. وكان كصهيوني شديد التهذيب يسخر من رغبة الشعب الفلسطيني في الإستقلال، ويتهكّم على دماء الشهداء قائلاً: «إنّ الفلسطينيين يريدون صنع الإستقلال بدم أطفالهم الذين يضطر الجنود إلى إطلاق النار عليهم... كونوا مكان الجندي الذي يتعرّض للحجارة، ماذا يفعل؟» ثمّ أعلن يغئال كرمون حزنه الصهيوني كاملاً غير منقوص على الشهيد محمد الدرّة، موضحاً بموضوعية صهيونية أكاديمية أنّ التحقيق لم يثبت أنّ الطفل الدرة تعرّض لرصاص الجنود... وبشيء من الحسبة المنطقية الصهيونية، وإذا كان الجنود لم يقتلوه، فإنّ الفلسطينيّين هم الذين أطلقوا النّار؟.. ومن يدري، فلعلّ الخبير في أبحاث صحافة الشرق الأوسط الصهيوني سيعلن قريباً أنّ والد محمد الدرّة هو القاتل؟؟

وأمدّ نظري إلى صفحة اليوم – أحصي متاعب النهار وآلاء الإنتفاضة، فيكون قد مرّ بنا الكثير. وعلى طريقة العرب في التعبير أقول «على سبيل المثال لا الحصر»... فيكون أمامي هذا المثال: هذا رجلٌ طيّب، وجهه يطفح نبلاً وتعاطفاً و..فضولاً. إنّه صحفي أوّلاً وأخيراً، مهنته البحث عن الحقيقة فهو يسأل. ولهذا فإنّ العتبَ مرفوع ما دام السؤال لا يعني وجهة نظرٍ مسبقة. قدّم نفسه بأنّه بلجيكي. فضحكت معقّباً: «ونحن بلجيك أيضاً..»، إبتسم وظنّ أنّ ثمّة خطأ في الترجمة، فأكدت له أنّ الفلسطينيّين، في أحد الأقطار العربيّة، يُطلق عليهم إسم البلجيك، لا إنتقاصاً من شعب بلجيكا، بل ليُقال إنّ الفلسطيني غريب عن العرب كالبلجيكي، إلاّ أنّ هذا موضوع آخر. وكان السؤال الأوّل هو: «ما تعقيبكم على راديو باراك الذي يقول إنّكم ترسلون أولادكم إلى الموت

وتختبئون في البيوت؟».

مساء ذلك اليوم، صرّحت ملكة السويد بأنّها تنتقد الفلسطينيّين الذين لا يرحمون أبناءهم، فهم يزجّونهم في الحرب، مع أنّهم أطفالٌ صغار، وكان بإمكان الفلسطينيّين أن يلفتوا أنظار العالم إلى قضيّتهم بأسلوب غير هذا، وإنّ عليهم أن يراعوا حقوق الإنسان..

في يوم واحد يُعاد إنتاج السؤال ثلاث مرّات، وبنوايا مختلفة، لكن مصدر البرابجندا واحد، والرواية واحدة: إنّ الفلسطينيّين يرسلون أبناءهم إلى الموت.. وبالتالي فهم المسؤولون عن موت أبنائهم. ولو بذل العقلُ (شرط أن يكون عقلاً) جهداً بسيطاً في مشاركة الضّمير (شرط أن يكون ضميراً) لمشاهدة التلفزيون (اللهم إلاّ من فضائيّة السي إن إن) لرأى ما تراه البشريّة في القارات الخمس: شباب فلسطين ينادون بالإستقلال، فيردّ عليهم الجنود بالرّصاص الحيّ الموجّه إلى الرؤوس والقلوب أساساً، وإذا كان الجنود يسجّلون رقماً قياسيّاً في قتل الأطفال، فإنّ عدداً لا يستهان به من الشهداء، تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين. لقد نجح الرصاص الصهيوني في تحقيق عدالةِ الأعمار: لقد قتل الرضيع، وتلميذ المدرسة، وربّة البيت، وطالب الجامعة، وأبا الأطفال الخمسة..

وكان الجميع في الشوارع يرفعون الهتاف، ويضعون الشهداء على الأكتاف، فيندلع الرصاص من غير تمييز أو رحمة..

ناشدت الصحفي البلجيكي أن ينزل إلى الشارع، بكاميرا ومن غير كاميرا، فالمهم أن يشاهد ويشهد وأتاني شاحباً، بل إنّه أجهش بالبكاء، ثم لم يلبث أن اجتاحته نوبة من الغثيان والدوار..

وأما ملكة بلاد نوبل، فرجاؤنا عندها أن تفتح التلفزيون على نشرة الأنباء. ولأنّنا نؤمن بحسّها الإنساني نناشدها ألاّ تأمر – مع أنّها تملك ولا تحكم – بإلغاء تلك المناظر المرعبة، وإنّ كنّا نتضامن مع رغبتها لو وجهت نصيحة إلى الآباء والأمّهات السويديين والسويديّات بأنّ يحجبوا ويحجبن تلك المناظر عن الأطفال، حتى لا تحلّ السوداويّة محلّ الجنسية السويديّة...

وبالعودة إلى الأكاديمي الصهيوني أدون كرمون، تنقطع أسباب الحوار الذي لم يدر لحظة واحدة، إنّه في بيتي وهذا هو الأمر الحقيقي بشأنه. ولهذا فإنّ من حقّه أن يبكي على جنودِ جيشِه الذين يتعرّضون للعنف من دفاتر تلاميذ المدارس، ومن أشجار الزيتون المحترقة، ومن الأمّهات الثكالى، ومن الأطفال المفزوعين.. ومن صورهم على شاشات التلفزيون وهم يقتلون أطفالَنا فيسبّبون الرّعب لأطفالهم هم.. طويلاً تأمّلت ملامحَ السيد كرمون، وتمعّنت في دقّة تعبيرِه وهو يتكلّم اللغة العربية. ترى هل يعرف معنى كلمة عقرب؟

٣

كان صوت السيّد المسيح يتدحرج من ليلة الليالي تلك إلى أيّامنا السوداء هذه: «أَعنّي.. أَعنّي..» أمّا محمد درّة فكان يقول: «إحمني يا أبي» وكان الفتى المصري أحمد محمد شعراوي يطلق صرخة على طريقته. فقد هزّنا لأنه اهتزّ.. أفزعه ما جرى لمحمد الدرة، وبقيت صورة الطفل الشهيد تلاحقه أثناء النوم، وفي المدرسة، وعلى مائدة الطعام.. وكان يعزّ على الفتى المصري أن يرى أباه

يبكي عاجزاً عن تقديم شيء لأيّ محمد درّ ة يموت على الهواء مباشرة، أو في صمتِ التعتيم : مات الولد مات مات.. من؟ وكيف؟ ولماذا؟

ولم ينم أحمد محمد شعراوي تلك الليلة... كانت فلسطين تنادي، ولم يكن يحلم بشجيع السينما أو فتوة الحارة، بل كان يسأل نفسه عمّ ا يمكن أن يقدّم لفلسطين. وهكذا اختفى أحمد من البيت في اليوم التالي. ظنّ الأب والأم، في البداية، أنّ ه يدرس عند أصدقائه، ثم واسى أحدهما الآخر بأنّ من حقّ إبنهما المجتهد بعض اللّ عب، لكن الليل إنقضى ولم يظهر أحمد..

أما هو فكان تلميذاً شاطراً في الجغرافيا، وفي الدروس كلّ ها، والجغرافيا تقول إنّ هناك بلدتين لهما إسم واحد : رفح، وأنّ إحداهما مصريّة والثانية فلسطينيّ ة، فهما متجاورتان.. وعلى هذا فإنّهما تشكّلان منطقة الحدود.. وحتى يصل إلى رفح المصريّ ة ثم الفلسطينية، فإنّ عليه أن يعبر صحراء سينا، وهو يعلم بطبيعة الحال أنّ مدينة العريش هي عروس سيناء.. ولكن كيف الوصول إليها؟..

ذات يوم، حين تنعم بلادُنا بالسّ لام والطمأنينة، سيظهر مذيع فلسطيني على شاشة التلفزيون الوطني الفلسطيني في عاصمة فلسطين الأبديّ ة، القدس.. وسيروي حكاية الولد المصري الشجيع أحمد محمد شعراوي.. ولأنّ ني في لهفة إلى تلك النشرة، فإنّني آمل ألاّ يكون هذا الولد قد أصبح عجوزاً وهو يروي وقائع رحلتِه المثيرة من حيّ الحلميّ ة في القاهرة، إلى الإسكندريّ ة، إلى الإسماعيلية، إلى القنطرة، إلى العريش، إلى رفح.. على أمل أن يدخل فلسطين. لقد أعيد أحمد إلى والديه. كانت الأمُّ تحتضنه وتبكي. كانت تكابر حتى لا يظهر الفزع في وجهها، فهي، مثل أيّ أم، تخاف على طفلها... مع عدم الإعتذار من ملكة السويد..

٤

في مسرحيّ ته التاريخية « هنري السادس »، يقدّم شكسبير شخصيّ ة فتاة في مقتبل العمر، ويركّز على أنّ إسمها جان لا بوسل، ويحرص على ألاّ يناديها عدوّ أو صديق إلاّ بهذا الإسم. وهذه الفتاة الفرنسيّة تتمكّن – كما هو مُ ثبت في التاريخ – من إنزال ضربات مؤلمة في الجيش الإنكليزي، حتى أنّها تذلّ اللورد تالبوت، فارس الإنكليز الشجاع. وما كان لسيّ د المسرح على إمتداد العصور، وليم شكسبير، إلاّ أن يعترف ببطولة هذه الفتاة، وينقل على لسانِها أنّها تشارك في جهاد بلادها بوحيٍ من السّماء. لكنّها حين تقع أسيرة في يدِ الإنكليز، تكشف عن وجهٍ آخر أراده لها المؤلّ ف الإنكليزي، ولم تثبته وقائع التاريخ حتى في أقلّ النصوص أمانة، وهي أنّها تستجير بالسّحَرَة والشياطين والأرواح الشرّيرة صارخة :

العون أيّتها الرقى الساحرة والتعاويذ
وأنت أيّتها الصفوف من الأرواح
إظهري وأعينيني على هذه المهمّة
لقد دبّ الضعف في تعاويذي القديمة

وعندها تتدخّل الشياطين من غير أن تستطيع أن تقدّم لجان لابوسل أيّ نفع، وحين تقترب النار منها – لأنّ الإنكليز يحرقونها – تتراجع في ادعائها، فهي ليست عذراء طاهرة كما كانت تقول، بل إنّ في أحشائها جنيناً تنسبه إلى غير أب، ولكن من غير جدوى..

بقي أن نتذكّر أنّ شكسبير كتب هذه المسرحية عام ١٥٩٢، أي في نهاية القرن الذي شهد تلك الوقائع الحقيقية التاريخية. والأهمّ من ذلك أنّ شاعر الإنكليز الأكبر هذا، لم يكتب هذه المسرحيّة تلقائياً، بل كان يأخذ بالإعتبار إرادة القصر الملكي.

... ولكن هل انتصر شكسبير العظيم – ووراءه الملكة اليزابيث المعظّمة – على الفتاة الفرنسية جان لا بوسل؟.. دعونا نسأل مكر التاريخ..

لم يبق من اللورد تالبوت، إلاّ ما يمكن أن يحفظه تلميذ إنكليزي نجيب من درس التاريخ، أمّا ما بقي من الفتاة التي إسمها جان لا بوسل فهو كثير.. بقي منها أنّها ليست في الحقيقة، إلاّ بطلة فرنسا وقدّيستها جان دارك...

وحين تهزم الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً أعظم صوت أدبي أوروبي في العصر الوسيط، فمعنى ذلك أنّ ثمّة خلَلاً في قدرات هذا الصوت الجبّار حتى لو كان شكسبير بجلالة قدره. ولهذا يبدو طبيعيّاً ما تقوم به الآلة الإعلامية الصهيونية الجبّارة. دبّاباتهم تطحن عظام الأطفال، وإذاعتهم تسرق خطاب الضّحيّة.. فنحن المعتدون. وزيتوننا آثم، وبرتقالنا شرّير، أمّا نخيلنا فيكفي أنّه عربي.. يا للنخيل الغوييم! على أن قوّة السرّ لا تكمن في القوّة المجرّدة للحقّ المجرّد من القوّة. بل في هذا التيّار الذي لا يمكن القبض عليه باليد. بهذا الذي قاربه محمود درويش، وهو بعد فتى، بالريح التي لا تجرحها ضربة سيف. كانت جان لا بوسل – ومنذ الآن سنعيد لها إسمها : جان دارك – تحارب وفي قلبها فرنسا. وهذاما يفعله الشاب الذي يقذف الحجر وفي نبضه إيقاع فلسطين. كان هناك شكسبير شاهق البناء. ويوجد الآن أقمار وتلفزيونات وصحف وقوى ضغط.. بحيث يمكن التشويش على الشاشة، ووضع النجم السداسي على رأس محمد الدرّة وكأنّه طفل يهودي قتله الأغيار... لكن هذه الغول الإعلامية لم تستطع أن تمسح عبارة مكتوبة بالأحمر القاني على الجدار الذي أوى إليه محمد وجمال الدرّة، وأستغرب كيف لم ينتبه الكثيرون لتلك العبارة التي قالها جمال عبد الناصر قبل ثلاث وثلاثين سنة من تلك اللّحظة : ما أُخذ بالقوّة لا يُستردّ إلاّ بالقوّة.. ثلاث وثلاثون سنة.. إنّه عمر المسيح على الأرض، والمسيح إبن بلادنا.. وعلى هذا فلا نطلب العون من الرقى والتعاويذ. بل من هذه الأرض.

٥

لقد منحت الإنتفاضة، في العقد الأخير من القرن العشرين، لغات العالم كلمة جديدة ودخلت كلمة الإنتفاضة بحرف الضّاد على مختلف الألسنة، ثم أنّها منحت شاشات تلفزيونات عام الألفين،

عدداً من الصور التذكاريّة الخالدة : الطفل محمّد الدرّ ة يستشهد في حضن أبيه، الطفل فارس عودة يلتحم بالدبّ ابة العملاقة ويرجمها بالحجر، الولد السبع شادي أبو دقّة يتسلّ ق السارية، تحت مطر من الرصاص فيلقي بالعلم ذي النّ جم السداسي إلى الجحيم، فيما يتصدّ ر المشهد ولد – سبع آخر، يرفع العلم الفلسطيني هناك، مكان العلم العدو . . .

صورٌ تتناسل من صور . ودم يرث الدم . أمّا علم فلسطين فهو علم الثورة العربيّة الكبرى الذي قلبته النكبة فجعلت اللون الأسود في الأعلى، حداداً أو عبوساً في وجه زمن المظالم هذا، وانزاح المثلث الأحمر ليحتلّ الرّكن الأيسر . . . فهو من العَلَ م محل القلب من الجسد الإنساني، لكن اليد على القلب لا لتحرسه، بل لتعبّ ر عن الحياء والأسف، لأنّني أبحثُ عن عَلَ م بلادي، في مواكب الشهداء، فأخشى ألاّ أراه بالبهاء الذي له، وأحدّق إلى الموكب ثانية : لن يندم شادي أبو دقّة لأنّه جازف بعمره الطري مقابل إسقاط العَلَم السداسي وإطلاق عَلَم الثورة العربية الكبرى . مع أنّ ما يحدث . . مع الأسف . . هو هذا الذي يحدث . نتأمّ ل المسيرات وجنازات الشهداء، فماذا نرى؟ ثمّة رايات حزينة : رايات خضراء وحمراء ومزركشة . رايات تتدافع وتتسابق . . . هي راياتنا على أي حال، وقد سقط في ظلالِ ها مئات الشهداء وآلاف الجرحى، ولكن أين عَلَم فلسطين؟

دعونا للمناسبة نتذكّر واقعةً أليمة : عندما استشهد غسّ ان كنفاني في الثامن من تموز عام ١٩٧٢، كانت تمرّ بنا الذكرى الأولى لأبي علي إياد الذي استشهد في الثالث من تموز ١٩٧١ . واجتهد القائمون على مجلّ ة « فلسطين الثورة » يومها . فوضعوا صورة الشّهيد أبي علي إياد على واجهة غلاف المجلّ ة، فيما تركوا صورة صغيرة في خلفيّة المشهد للشهيد غسان كنفاني الذي لم يكن دمُه قد جفّ بعد . وكان رئيس تحرير « فلسطين الثورة » كما هو معروف، هو الشهيد كمال ناصر الذي ما إن رأى الغلاف حتى جنّ جنونه، وجمع المحرّرين ليلقي عليهم خطبة حقيقيّة ناريّ ة، مزمجراً : « منذ متى كان الفلسطينيّون يتبارزون بأسماء الشهداء؟ وهل الجبهة الشعبيّة وحدها هي التي فجعت بالشهيد غسان كنفاني أم فلسطين كلّها والأمّ ة العربية جمعاء؟ وهل كان الشهيد أبو علي إياد ليرضى عن ذلك الغلاف المتحزّب الذي يسيء لجوهر رسالة فلسطين الثورة » . . . واعتذر يومها المسؤولون عن تلك الفعلة، واستدركوا الأمر في العدد اللاّحق من المجلّة . .

وما دمنا قد شرعنا بتلميع الذّ اكرة – وهو، للمناسبة، تعبير يحبّه الأخ أبو عمار – فلنأخذ الدّرس من إسم المجلّة « فلسطين الثورة » نفسها . . .

فقد كان إسم المجلّ ة، كما هو معروف، مؤلّفاً من كلمة واحدة : « فتح »، وكانت جريدة « فتح » قد حظيت من القيادة الفلسطينية مجتمعة يومذاك، بأن تكون هي الجهة الإعلاميّ ة الوحيدة، النّاطقة بإسم الفصائل جميعاً ، بإسم منظمة التحرير الفلسطينيّة . ولم يلبث الشهيدان الكمالان ناصر وعدوان أن اتّفقا على إنطلاقة الإعلام الفلسطيني الموحّ د . وذلك صيف ١٩٧٢، وإلغاء الأسماء والعناوين ذات الإشارات التنظيميّ ة، فتحوّلت « وكالة فتح للأنباء » إلى وكالة الأنباء الفلسطينيّة « وفا » وأصبحت « إذاعة العاصفة » هي « صوت فلسطين، صوت الثورة الفلسطينية »، وحلّت محلّ جريدة « فتح » مجلّة « فلسطين الثورة » . . هكذا انضوينا جميعاً تحت الراية الأعلى، راية فلسطين . .

والآن، بعد ملحمة الصّمود في لبنان ١٩٨٢، وبعد الإنتفاضة المعجزة التي فرضت إسمها على لغات العالم، وفي ذروةِ الإنتفاضة المتجدّدة، نجد من ينسلّ وهو لا يدري أنّه، بهذه النسبة أو تلك، يبتعد عن علم الأعلام. فتحلّ القبليّة الحزبية محل الوطن، والراية الفئويّة محلّ علم فلسطين...

وعلى غير سعادة أو إحتفال بذاكرة عنيدة، أذهب إلى عام ١٩٧١، عندما كتب المثقّف الفرنسي جيرار شاليان كتاباً نوعيّاً عن الفدائيّين الفلسطينيّين: صدقهم وفعاليّتهم. فسأله صحفيّان من بلادِه عن نقطة ضعف هؤلاء الفدائيّين، فقال: إنّهم شجعان.. ولكن تنقصهم روح الفريق، روح الجماعة...

ولقد ظننت ما يجب ألاّ يكون ظنّاً، بل هو جمرة يقين، أنّ معموديّة الماء والنّار قد أعادتنا خلقاً آخر، وأبطلت نظريّة شاليان: لكنّني حين أرى المتسابقين إلى رفع راياتهم مكان عَلَم فلسطين، أنتكس، ولا يسندني إلاّ الولد السّبع شادي أبو دقّة.

٦

الإثنين ٢٧ / ١١ / ٢٠٠٠ – الموافق الأول من رمضان ١٤٢١

يتسلسل رمضان كماءِ النّبع العتيق فترتوي الذاكرة من عطش الصيام، وقد ترك التاريخ علامتين من الشّهر الفضيل. ففيه بداية القرآن، وبداية القرآن: إقرأ.. ومن حروف القراءة والكتابةِ يتشكّل وعيُنا بالوجود والغيب – وفيه أوّل إنتصارٍ عسكريٍّ للإسلام، وأوّل إنتصار هو بدر، والبدر ذروة القمر، ورمضان ذروة التقويم القمري...

على أنّنا إذا أخذنا هاتين العلامتين للزّرع في حديقة الرّوح، فإنّ رمضان الحديث له في أرواحنا وأجسادنا ذكريات وذكريات...

حين عشتُ جوّ المجازر، لأوّل مرّة، قبل ثلاثين سنة، كان الوقت رمضان، ولقد رأيت بعيني يومها ذلك الرّجل الذي كان يحمل سطل الماء، ليبل ريق الأسرة في الإفطار، لكن الرصاصة عاجلته فاتّكأ على ناصية الدّرج، هناك في وسط المدينة وكان الدم ينزّ من جسدِه قطرة قطرة على ماءِ السّطل. مسكين ذلك الماء، لن يشربه أحد، ولن يرطّب جوف الصائم... وحين وقعت حرب ١٩٧٣، كان التاريخ القمري يشير إلى العاشرِ من رمضان، وهي ذكرى بدر أيضاً، ومنها على سبيل الدمعة والمثال، صورة جارِنا محمد زيدان، ذلك الشاب الطيراوي الوسيم، وكنيته أبو الفهد، وكان أخوه فؤاد أبو العمرين قد استشهد قبل بضعة أشهر على طريق البادية المؤدية إلى العراق.. أمّا أبو الفهد، فقد هرع، في دمشق، إلى جهة أركان الجيش، حيث كانت طائرة الميراج تمخر الفضاء كأنّها تنتظره.. ولستُ أدري كيف استدلّ أهله على أشلائه...

وحين اجتاح جيش بيغن وشارون، بالسّلاح الأمريكي الحديث، مدن لبنان وقراه وعاصمته واستمرّ الإجتياح والحصار ثلاثة أشهر، مرّ شهر رمضان في المشهد. لم يحتفل الأطفال بمدفع الإفطار، لكنّهم عاشوا على دويِّ مدافعٍ من نوعٍ آخر، وأرسل البحر شواظ الحممِ والقذائف. ودلفت السماء صواريخ وقنابل، أمّا الأرض فأخرجت بعض أثقالِها، ولكن الحكّام العرب لم يقولوا: مالها؟ وكان على

الفلسطيني والوطني اللّبناني أن يتعمّد في وحدة الدّ م، فكان صيامُهما مقبولاً ، حتى وإن طالبنا بمياه الشّرب التي كان المندوب الأمريكي فيليب حبيب يضنّ بها إلاّ بشروط . . .

واندلعت الإنتفاضة الفلسطينيّة الكبرى أواخر عام ١٩٨٧ واستمرّ ت إلى ربيع ١٩٩٣، فمرّ رمضان بها ستّ مرّات . كان الحجرُ ينطق، والرّ يح تشهق، والتاريخ يحار في الملحمة التي تتشكّ ل بين يديه، وكان العجز العربي الرّسمي هو الفاكهة الدائمة لشعب تعوّد أن يتجرّع العقلم . . ويتقدم . وها هي إنتفاضة الأقصى تخلخل حسابات المنطق، والشهداء يسجّلون الأرقام القياسيّ ة، فتجتمع قمّة خجلى كان مُقدّراً لها أن تتأخّ ر بضعة أشهر، لولا إنفجار الشارع العربي هذه المرّ ة، فكان لا بد من تنفيس هذا الشارع، وظلّ الحجر يقابل الطائرة والدبّابة والمدفع والطرّاد البحري . ويطلّ رمضان على حصارٍ جديدٍ تزفّه جرّ افات تقتلع الزيتون والبرتقال والنخيل من الجذور . لكن الفلسطينيّ ين الصائمين والمؤدّين شعائر الإيمان على مختلف طرائقهم، يواصلون الصعود، وقد يعزيهم كل مساء أن يذهب الظّمأ وتبتلّ العروق . . وثبت الأجر إن شاء الله . لكن المفارقة لها حصّة في الموضوع . لأنّ الجنرال يريد حصّة من هذا الأجر؟ فقد حاول أن يجرّ رمضان بجنازير الدبّ ابة، قبل موعده القمري . إنّ الحصار الذي يشمل المواد الغذائيّة جاء قبل رمضان . وكأنّه إقتراح بصيام مبكّر . المواد تشحّ في الأسواق، والمدن الفلسطينيّة مقطّ عة الأوصال، فلن ينعم الغزّاوي بلبن الجنيدي الخليلي مثلاً ، ولا بموز أريحا . . .

ومع ذلك فللفلسطينيّ أن يهندس يومَه ورمضانَه على مقاسِ الحصار . ويأتي رمضان في موعدِه وما لا يسرّ الجنرال، أنّ العيد قادم بالتأكيد بعد شهر الصّوم الفضيل . . .

٧

السبت ٩ / ١٢ / ٢٠٠٠

فجأة يقدّم الجنرال إستقالته . ردّ الفعل الأوّل : لقد هزمتُ ه الإنتفاضة بحجارة فلسطين وليست الحجارة إلاّ رموزاً من لحمٍ ودمٍ وتاريخ . لقد كان من شأنِ أهلِ البلاغة أن يقولوا : إنتصر الدّم على السّيف . حسناً ، ستقول آلة الجنرال إنّه استقال بهدفِ إدارة معركتِه السياسيّة الداخلية على طريقتِه . ولسنا في وارد المناكفة، فليكن . . ولكن ما كان حقّاً ، هو أنّ الجنرال، حتى لو استقال بدوافع إنتخابيّ ة، فإنّه ما كان ليركب هذا المركب الخشن المعقّ د، لو لم تُلجِئه إلى ذلك هذه الإنتفاضة . وقد يتساءل المراقبُ عمّا كان سيفعل الجنرال في هذه الورطة : الرصاص الحيّ موجّه إلى الرؤوس والقلوب . غول الدعاوة والإعلان تحتلّ شاشات الدنيا وصحفها وشوارعها . اللّ بن أسود، والفحم أبيض .

ولقد تنفّس الجليل غضباً و«عصافير – بلا أجنحة» . . قال الفلسطيني العتيق : ربّوني وأعرف أهلي . الإنتفاضة في الجليل والمثلث أيضاً . . وفي النّ قب تمور نار الغضبِ . هل يملك الجنرال إلاّ أن يقتل؟ ثلاثة عشر شهيداً يليهم ومشروع لمحاكمة الشخصيّات الوطنية . عرب الخط الأخضر يتميّزون بالعقوق . أخضر أو أصفر أو أزرق أو ما شاء الجنرال من الألوان . لكنّهم عرب فلسطينيّون وقد ظلّوا كذلك . ألم يكونوا هكذا يوم الإنتفاضة الأولى؟ فماذا يفعل الجنرال؟

سيذكر هذا كلّه ويذكر الكثير . الشارع العربي العاصف من الرّباط إلى بغداد وما بينهما . أمّا

شارعه فيهتف: الموت للعرب، إقتلوا العرب. لكن الإنتفاضة مستمرّة إ.ن.ت.ف.ا.ض.ة باللغات كلّها. وما زلنا على قيد الحياة. والإنتفاضة لا تقبل إستقالة الجنرال بل تقيله من إبتسامتِه الصفراء.

فلسطين تحصي شهداءها وجرحاها. ويسأل الطفل أباه عن ماهيّة الإستقلال. فيجيب الأب: إنّه أنت...

■

وفي حكايتنا الشعبيّة، يستطرد الرّاوي ويتوغّل في القصص الفرعيّة، ثم يفطن إلى ما بدأ به، فيقول: يرجع مرجوعنا إلى...، والآن أصبح واضحاً، لي على الأقل، أنّ المرجوع إليه هو الإسهام الثقافي في هذا الفعل الجبّار الإنساني الذي إسمه الإنتفاضة، لا أعتقد بأنّ هناك سؤالاً سادياً أكثر إيلاماً من هذا السؤال الموجّه إلى الكاتب: ماذا تفعل في هذه الأثناء؟ والمفارق أن السؤال، على وضوح ساديّته، لا يكف عن إنتاج نفسِه. فقد كانت الإنتفاضة الجديدة في أيّامها الأولى، عندما كنت أحد من فوجئوا بكلامٍ من نوع: كيف تقرأ خارطة الأدب الفلسطيني تحديداً بعد إنفجار الإنتفاضة بهذا الزّخم والنّفَس الطويل...؟

وهذ المرّة لم يرجع مرجوعنا إلى...، بل عملت ما يشبه الإستخارة، لأهتدي إلى جواب، فكان أن بدأ الجواب بسؤال، رحم الله المتنبّي – وكثير من ردّة تعليل، فَرُحتُ أقول، وعمر القراءة يطول:

– أين هذا الأدب أوّلاً؟ لقد قرأت قصيدةً قصيرة، جميلة طبعاً، للشّاعر محمود درويش، وكتبت قصيدة في بداية أيّام الإنتفاضة... ولا شك في أنّ شعراء آخرين قد فعلوا ذلك. ولكن هل يمكن إعتبار هذه الصفحات خريطة جديدة للأدب الفلسطيني أو حتى العربي؟ بسؤال آخر: هل التحوّلات الكبرى في الأدب مشروطة بالمعارك؟ إنّ الشعر العربي الإسلامي، مثلاً، لم يتغيّر بسبب معركة بدر أو أُحد. ولكن الشعر العربي تغيّر بعد الإسلام. بمعنى أنّ هناك تغيّرات نوعيّة من شأنها أن تُحدث تغييراً جوهريّاً في المشروع الثقافي، ولكن ببطء، ولم يحدث أن وقعت تغيّرات في الأدب بسبب هذه المعركة أو تلك، لكنّه أمرٌ شديد الأهميّة أن ترصد حركة الشّعر الحديث وإنتشارها بعد زلزال نكبة ١٩٤٨. فالنكبة مفصل تاريخي نوعي..، والآن نحن أمام إنتفاضة شعبيّة تمتدّ بشكل أو بآخر إلى الحياة العربيّة، فإلى أيّ حدٍّ يمكن لتوابع الزلزال أن تنشئ خريطة جديدة؟ هذا، كما أرى، سؤال من المبكّر أن نجيب عنه الآن باطمئنان...

ولا أظنّ من العدل في هذه الحُجالة، ولهذه المناسبة أن أكون مطالباً بإعطاء أجوبة عن أسئلة متقعّرة تناقش ما بعد الحداثة مثلاً، إلاّ إذا قصرنا الأمر على التناول الخارجي للموضوع، ممّا يمسّ العلاقة بين الإلتزام في الأدب والإكتفاء بنظريّة الفنّ للفن. وهو موضوع سابق على ما بعد الحداثة بطبيعة الحال.. لكن هذا لا يعفي السؤال من حقيقة أنه لا يزال مطروحاً، بغضّ النظر عن المدخل المؤدّي بنا إليه..

وما يمكن أن يُقال في هذا الشأن، ينطبق عليه التشريع الشهير: الحلال بيّن والحرام بيّن. بمعنى أنّ كل وجهة نظر أصبحت واضحة، فهناك جماعةٌ من المتطيّرين الذين تروعهم شبهة الوطن في الأدب بدعوى أنّ الشأن العام يؤثّر سلباً في الذات، التي هي مملكة الفن وجوهره ومآله الطبيعي.

وهناك جماعتنا التي تؤمن، مع التواضع والثّقة مجتمعين، بفهمٍ خلاّق لغائية الفن، فالفن لا يمكن

إلاّ أن يتّجه إلى الآخر. والآخر صيغة متشظّ ية، فهو الصّدى حيناً ، وهو الصادم حيناً آخر، كما أنّه المصدوم دائماً باعتبار أنّ للعمليّة الإبداعية أثر الصدمة. هناك العدو وهناك الذات الجماعيّ ة، هناك المتلقّي النّفعي وهناك المتلقّي الجمالي المجرّ د. وهو ما يجيز لنا أن نسقط دعاوى الذاتيّة المغلقة في الفن. فحتى هذا الذاتي الذي ورث صرخة أوسكار وايلد : « لا نفع في الفنّ إطلاقاً » سيظل في حاجةٍ إلى ذاتيٍّ مثله ليسخرا منّا في أقلّ تقدير. وعلى هذا فقد لا نأخذ تلك الإنعزالية على محمل الجدّ. وتأتي الوقائع النّوعية الجسيمة بحجم الإنتفاضة كالمرآة المكبّ رة، لترسم بصورة كاريكاتورية حجم قصور المثقّ ف، ولكنّه إذا لم يكن قصوراً مشروعاً ، فهو على الأقل يتطلّب الرأفة. ولا شك عندي في أنّ الإنتفاضة رحيمة بنا.. أليست هذه أحد تجلّيات الأم الفلسطينيّة؟

غزة

ليليات

ليانة بدر

١

أتمتع بمرأى النجوم وهي تومض لامعة في مساء رام الله المحاصر. أظن نفسي للوهلة الأولى تحت سماء طفولتي في أريحا، ثم أعاود التذكر والتركيز لكي أعرف أنني هنا، أمام باب بيتي الذي سينفتح بعد هنيهة فأدخل رغماً عني. أمتلئ من ثم بنشوة استمتاع مزدوج بالحياة رغم تهديد القصف الماثل في أية لحظة. بعد هذه الهنيهة المرسومة بمخمل الليل الطري الذي يحمل آلاف ماسات النجوم سوف أدخل إلى تحت سقف يجلل حيطاناً جامدة لا تعرف ماهية مسرى النجوم في العروق. فما عاد ثمة فسحة للتسكع والتمشي تحت أنوارها الخافتة كما اعتدت أن أفعل قبلها.

الناس في جميع الأمكنة في حالة استنفار، سيارات قليلة تعبر الشارع بسرعة خرقاء أحياناً ، وأخرى لها ذات التجوال المتردد لأناس مثلي يريدون أن يستمتعوا بنعمة الفضاء الخارجي كي لا يقتلهم السأم احتباساً واختناقاً داخل أسوار كثيرة.

أتساءل أنا التي شهدت حروباً كثيرة :

ومتى كانت الأسوار تحمي ؟

لكن حكمتي لا تحتمل رفض جبرية الحياة الإستنفارية، فها هي تضطر إلى أن تغادر ملجأها الأول في الطبيعة، كي تحتمي مثل الجميع وراء أبعد الأسوار الممكنة. فبعد قليل سوف تنهال علينا حمم الرشاشات المستعرة من قبل المستوطنة، وسينجرف رواء هذا الليل المبكر ليصبح كتلاً من (اللافا) والسواد المتحجر.

٢

فجأة انتبهت إلى الصور التي كنت ألصقها فوق مكتبي بعد أن بات جلوسي إليه نادراً. نصف منها يروي آثار حروب ماضية، ونصف آخر ملون بالسهرات والورود والأمسيات والأضواء واخضرار الأشجار. كان هذا تماماً مثل قطبي حياتي منذ عودتي إلى فلسطين حين كانا يتجمعان خطوطاً على الحائط الذي ظلل كتاباتي ستة أعوام كاملة قبل أن يبدأ القصف، وقبل أن تتغير عادات حياتي لتصبح من جديد كما كانت أيام الحروب الماضية. غربة قاسية عن الكتابة وقلق عنيف يطيح بالأوراق التي كانت قد كتبت سابقاً.

٣

في مساء رام الله أشهدهم كل يوم في طابورهم. أطفال بين الخامسة والعاشرة يركضون بهدوء ويهتفون بروية بعد أن يهدأ صخب تجمعهم الأول. يلّتمون استعداداً بعد أن كان معظمهم يتناثر في عرض الحارات أو يتسلق أنابيب الماء الصاعدة على جوانب الطريق. يسيرون في التواءات الأزقة وهم يغنون : تعيشي.

تعيشي يا فلسطين.

أسمع صوت مدرسهم وهو يهيب بهم :

دُق الأرض بكعبك أنتَ هناك. وأنت الذي بجانبه... بدي أسمع صوت دق الكعب على الأرض.

يشرعون في الركض كالكبار وربما بانضباط أعلى. بعضهم يرتدي طاقيات صوفية سوداء يقومون بفردها على وجوههم فتحتجب وجوههم المدورة، ولا تظهر من ثمة سوى أسنانهم الصغيرة المغردة وأعينهم البراقة.

مخلوقات ملائكية هم، يطوفون بشوارع مساءاتنا رغم عفرتتهم المكبوحة. يطلقون أينما وصلوا دفق عذوبة يغطي ولو للحظات كمد الأحداث في الخارج. عبر انتظامهم كل مساء يصارعون الخوف اليومي من القصف العشوائي الإسرائيلي، ويحاربون رعبهم الذي كان يتجلى في دموعهم وصرخاتهم ومخاط بكائهم الذي كان يظهر أمام الكبار رغماً عنهم في بداية الأحداث. بعضهم يصير « زورو » بقناع طاقيته الصوفية السوداء، وكل منهم يحس في قرارة نفسه بأنه « فدائي » يجتاز الحدث المرعب دون أن يخاف. هؤلاء ابتدأ طابورهم بعد قتل الطفل (محمد الدرة).

أتكون هذه المسيرات واسطة لإمتصاص الرعب الذي يعصف ببيوت الناس العاديين الذين لم يشهدوا قبلاً كل هذا القصف الثقيل؟

أيكون القناع حامياً للطفل، أم أن فحواه الرمزي هو الذي يرفع من معنوياته؟

هل يحمي القناع الطفل حين يرخيه على وجهه ويصير واحداً مغفلاً بين الجميع، لكنه يرمز إليهم جميعهم في الوقت ذاته؟

في حكاية ليلى والذئب، تخفى الذئب في ثياب سيدة عجوز كي يلتهم الطفلة.

في مساء رام الله يخفي الأطفال وجوههم مثل اخوتهم الكبار الذين يتحدّون الوحش الإسرائيلي

على الحواجز، في إشارة إلى أن القناع قد يحميه هو الطفل من أن يصير فريسة للذئب المسلح بالأنياب والموت.

٤

الطفل الذي كان يقف في الملصق حاملاً مقلاعه أمام جسد الدبابة الضخم استشهد بالأمس، تخبرني صديقتي ونحن نحدق سوياً في الصورة المعلقة على حائط مطبخها. كيف تسللت هذه الصورة أصلاً إلى الجدار لتلصق مقابل كيس الخبز على المائدة، وتندمج بين أغراض متناثرة، ثم تضيء مثل ماء الشرب اليومي المتدفق من الحنفية. صورة ولد صغير أذهلت العالم يشبه أن يكون عصفوراً يتصدى لسديم معدني أولد دبابة هائلة. صحن فضائي يحمل أقنعة الشر كلها. بشاعة الدبابة المصفحة وثقل كتلتها العملاقة تشبه أن تكون وحشاً حديدياً هبط بغتة على كوكب يحكمه الأولاد الصغار.

مات الولد بعد أيام من مصرع ابن خالته الذي كان يماثله عمراً ، وفي مكان المواجهات ذاته. للوهلة الأولى عندما حدقت في الصورة قبل موت الصبي خلال توزيعها في ندوة حول الإنتفاضة هالني جسد الدبابة الهائل وهو يوشك أن يطبق على الأمير الصغير، الذي لا يطاله اليأس في قصة «سان اكسوبيري». كانت قبضته الصغيرة تلوح بمقلاع هو سيفه السحري الذي سوف يخلصه من جنون الوحش الفالت.

الآن وأنا أعاود التحديق بعين الأسى والحزن بعد استشهاد الطفل برصاصة من نوع ٥٠٠ قطعت معظم شرايين وأوردة رقبته، أنتبه من جديد إلى يده الصغيرة، إلى ملابسه البسيطة، أرى حذاءه المدعوك. أتذكر فارس الذي أرق وما عاد ينام بعد استشهاد ابن خالته شادي، والذي كان مغرماً بأغنية يدبك عليها مع رفاقه في المدرسة

(لو كسروا عظامي مش خايف
لو هدّوا البيت مش خايف)

وأرى وحشية الحديد المدرع حين يهجم به جنود إسرائيل لينقضوا على حلم الأمير الصغير الذي كان يقطن في غزة.

٥

في وسط رام الله ميدان «المنارة» اجتهدت بلدية رام الله كي تثبت فيه منحوتات تمثل أسوداً حجرية تقف حول بركة تعيد إلى الأذهان ذلك الميدان القديم الذي عرف بإسمه الشهير في السابق.

منذ أن جرى تركيب الأسود الجديدة التي تتماز بضخامتها صارت هواية الأطفال تسلق واعتلاء الأجساد الحجرية لملوك الغابة في ليل رام الله الصيفي. في بداية المواجهات كان هناك من أتى ووضع أكاليل الجنازات الذابلة على أعناق المنحوتات التي بدت وحيدة وكئيبة.

الآن، لا يمر مساء إلا وقد ازدادت أعداد الأطفال الذين يتنافسون على اعتلاء هذه الأسود.

الفارق الوحيد هو أن أجساد هذه الأسود المرمرية باتت مغطاة بملصقات كثيرة لأطفال آخرين.

٦

من جديد تختلف علاقتنا بالظل والنور. قبل هذا القصف كنت أعنى بأن ألاحق شذرة الضوء الأخيرة قبل الغروب فلا أسدل الستائر. الآن، أقفل أغطية الشبابيك (الأباجورات) بحرص بالغ وكأن اقتفاء آثار الغروب يشبه جريمة عقابها القصف المؤبد. صار للنور واشعاعاته الشمسية شروط وجودية أخرى تتضمن الحماية من أية أنوار ليلية.

أستمتع بالقراءة على قليل من ضوء المصباح الجانبي حينما يكون مخفياً لا تتسرب أسراره من وراء الستائر السميكة. فأصبح كمن يجد نفسه مشدوداً إلى طوف وسط فيضان عات قد يعد بالوصول إلى فردوس سحري وعالم أخاذ. كل العوالم ساحرة حين تخلو من عين المستوطنة السيكلوبي الذي يراقبنا ليل نهار.

بالأمس كان هنالك رجل يعمل على تركيب أشغال الكهرباء في بناية قريبة من الحاجز الإسرائيلي على المدخل الشمالي لمدينة البيرة قرب مستوطنة بيت إيل، حين قضى بطلقات رشاش هائل شطرت جسده إلى أجزاء. وكم كان السبب في غاية البساطة، فقد ظن الإسرائيليون أنه يحمل سلاحاً بيده رغم أن مسافة كيلومتر على الأقل تفصل بينه وبينهم.

لا أحد يصدق ما نراه إلا إذا عاش على حافة هذا العالم السوريالي الذي يحمي جرائم اسرائيل ويغض الطرف عنها.

هكذا، تطل أبراج المستوطنات العالية قرب جميع المدن والقرى الفلسطينية لتخبرنا عن حقد عنصري لا مثيل له إلا في قصص خيالية.

٧

تنقض المستوطنة على مساكن البيرة ورام الله وخصوصاً تلك التي تواجهها وكأنها بثرة قيح في جسد مريض. حقد ينفض آفات جرثومية، ويلوث ليل العالم الجميل من حولنا بصواريخ وقذائف ورشاشات ثقيلة لها قدرة تدميرية هائلة.

هذه المستوطنة التي انتزعت بالقوة من أراضي البيرة ورام الله لم تنشأ إلا في عام ٨٤.

الرقم نفسه معكوساً كان عام استيطان البلاد الإستعماري سنة ٤٨. هنا أتم الإحتلال الإستيطاني عمله بسهولة فائقة لم تزد عن إصدار أوامر مصادرة الأراضي من قبل الحاكم العسكري. كم حصل الغزاة على أراضٍ سرقت من أصحابها دون أن يتكلفوا شيئاً سوى اصدار الأوامر بانتزاعها. كأن تمزيق الأراضي وتدمير الزراعة المحلية أسهل عندهم من شرب فنجان من القهوة السريعة.

وها هي النتيجة، جسم غريب عن البيئة لا يمتلك من مقومات الوجود عدا العزلة عن المحيط، وزرع القهر والكراهية لكل من يجاوره.

جيراني نظرياً ، أعدائي عملياً حسب جميع القيم والمواصفات. فهم لا يحلمون إلا بإزالتنا من

الوجود كي يسرقوا كل الأرض دون مساءلة من أحد.

مساء كنت أحاول النزول من السيارة في الشارع الرئيسي الموصل بين القدس ورام الله، حينما أزّت القذيفة في فضاء الشارع آتية من المستوطنة، ثم هبطت على معهد الإعلام العصري التابع لجامعة القدس. شحنة ثقيلة من الهواء الساخن تصطدم بالأرض فتدك سوراً وتجرح رجلاً كان واقفاً بالصدفة خارج البناء المجاور.

ليس إلا الطمع وحده من أحضرهم إلى هنا. فبيوتهم مُشَيَّدة بأحجار بلادنا البيضاء، ومبنية بأيدي عمالنا وفوق أراضينا، وهم يسطون على حقول زيتوننا ويجرفون أشجار اللوز والبرقوق كي يقيموا طرقاً سريعة تدمر بيئتنا الطبيعية وتقتل الحيوانات البرية التي عاشت آلاف السنين في هذه الجبال والوديان. وعلى صدى آلامنا ودموعنا تستثمر شركاتهم المتعددة الجنسيات أموالاً تجنى لإبادتنا ولتسليفهم قروضاً سخية لأرقامها وقع الخيال.

وهم ... وهم ...

ورغم كل هذا، فالأرض أرضنا ... والحياة حلوة رغم هذا الليل.

رام الله

مدخل وعنوان وحجر من ياقوت

علي الخليلي

سيارة مرسيدس أُجرة تنزل بنا من الطابق الثاني في المحطة المركزية برام الله، وتتجّه إلى الرام شمالي القدس، السائق يفرك زر المذياع على صوت فلسطين، تصعد الأغاني التي تمجّد الحجر وأطفال الحجارة. في المقعد الأمامي إلى جانبه، يختفي رأس راكب تحت الحطة والعقال. ما أن تمرّ السيارة أمام مبنى الشرطة الذي دمَّره القصف الإسرائيلي قبل بضعة أسابيع، حتى يضرب هذا الراكب كفاً بكفّ، ويلتفتُ إليّ في المقعد الأوسط، أو إلى الشابين قربي، ويحكي مع نفسه، أو معنا: «لحقونا بالصواريخ حتى إلى هنا. أخذوا السهل والبحر، وطاردونا للوعر. يا ناس، هل هذا معقول؟». نصمتُ. ويواصل وحده الحكي عن الانتفاضة، وعن السلطة الوطنية، وعن جيش اسرائيل، والمستوطنين اليهود، وعن العرب والمسلمين، وعن أميركا، وعن الدنيا كلها. ثم يسكت، ليعود إلى ضرب كفيه والهمهمة بكلام تطغى عليه الأغاني. أغمض عينيّ، وأفكّر بمدخل مؤثر لمقالتي. فكرة المقالة موجودة. وهل يمكن لفكرة هذه المقالة، أو غيرها، أن تبتعد في هذه الأيام، عن أجواء الانتفاضة؟ فقد عاد شعار «لا

صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة» ليتصدّر الخطابين السياسي والثقافي معاً، وهو في صدارته يستجيب لحتمية تلقائية، أكاد أحسّ أنه لا علاقة للسياسيين، أو للمثقفين فيها! غير أن «المدخل» في كل مرة، هو الذي يصنع سيولة الكتابة أو جفافها. وثمة، أجد نفسي، رغم امتلاء الصدارة، حائراً مثل المأخوذ على حين غرّة، أو كمن يكرّر مقالاته السابقة، في سلسلة من التساؤلات الثقافية المكرّرة أيضاً، منذ ثلاث عشرة سنة. أرفض هذا التكرار الذي يتلبّسني على شكل هاجس يتضخم في داخلي، وأتجاوز مسألة المدخل إلى العنوان.

سأجعل عنوان مقالتي «بحر الانتفاضة». أمواج متدفقة، وكلمات حية ساخنة أدفع بها فوراً على الورق، من انتفاضة أولى إلى ثانية. في الأولى كان الوصول إلى المفاوضات والسلطة الوطنية، وفي الثانية الآن، لا بدّ من الوصول إلى الاستقلال والدولة. لكنني أعود بذاكرتي إلى بدء النشوء والتكوين لمفردة «الانتفاضة» ذاتها. كنا نلوب على هذه المفردة العزيزة الغالية في صحافتنا الفلسطينية تحت الاحتلال، في العام ١٩٨٧، وما تلاه من أعوام، حتى مؤتمر مدريد، فلا يتسنّى لنا نشرها في خبر أو مقال، إلاّ مستبدلة بتسميات شتى، مثل «أحداث دامية، موجات عارمة من التظاهرات وأعمال الرشق بالحجارة، اشتباكات عنيفة، صدامات..». وكانت كل هذه التسميات باردة وبليدة وعاجزة إلى حد القهر، عند وصولها إلى مفردة «الانتفاضة» الممنوعة بسبب الرقابة العسكرية الإسرائيلية الصارمة. وقد اندحرت هذه الرقابة المعادية. وصار لنا إعلام فلسطيني جديد، في فضاء واسع، وتقنيات حديثة، وانتفاضة صمدت وتغلّبت على كل التسميات والمصطلحات البديلة. غير أن الهاجس يدهمني في مزيد من قلق الأسئلة. لماذا ينزاح المثقّف إلى إشكالية «التسمية والمصطلح» دائماً؟ هل هو انزياح إلى العمق، أم أنه خروج إلى الهامش الفكريّ، ولربما إلى الترف الفكريّ في بلاغة الإنشاء؟ ولماذا يصير للكلمات على مختلف أشكالها ومعانيها، كل هذا الضغط المتفجّر في عقل المثقف، إزاء المسافة بينها وبين حركة الأحداث، أو حركة الفعل التاريخي على الأرض؟ وما هو «الفعل التاريخي»، ليس في مرحلة ما على وجه التحديد، وإنما في كل يوم، وفي كل جملة يشتمل عليها النص؟ أم أن مرحلة معينة تفرض شروطها، فيزداد الضغط ليصبح الأنزياح من المنفى إلى الهامش أو العكس، قلقاً وجوديّاً يستولي على عقل الكاتب؟

إن النار والدم والأجساد المثقّبة برصاص العدو في الشارع المنتفض، هو المشهد البارز. فما هو مشهدي الثقافي فيه؟ أسرعتُ إلى كتابة قصيدة عن الطفل الشهيد محمد الدرة، احتفظت بها عدة أيام، غير راض عن مستواها الفني، وعن قدرتها في استكناه غضبي وأحزاني. ثم نشرتها في صحيفة «الأيام». لقد أنجزت هذه الكتابة مثل عشرات (مئات، ألوف) الشعراء على امتداد الأمة العربية. لا بدّ لي من «إنجاز» أعمق وأكبر، يتجاوز الانفعال بالمشهد التلفزيوني إلى المشاركة بالفعل ذاته. ماذا أفعل؟ يستغرقني القلق الغاضب المتسائل. هل هو قلق البحث عن «دور ما» للمثقف الفلسطيني، كلما جرى التحديق في المسافة بين الكلمة والرصاصة، أو بين الكلمة والحجر؟ وكأنّ هذا «الدور» غائب، ولا نتحسس غيابه المزعوم، إلاّ بضغط الرصاصة مرة، وضغط الحجر مرة ثانية؟ هل هي صفات التمزّق التي تضرب المثقف في تناقضه بين «أنا» ثقافية متضخّمة لا ترى العالم إلاّ من خلالها، و«أنا»

دونيّة منكمشة في إطار ذاكرة مدرسيّة « السيف أصدق أنباءً من الكتب »، و« تكلم السيف، المدفع، الحجر، فاسكت (اخرسْ) أيها القلم »، . . إلخ؟

اضطرب بشدة، فافتح عينيّ ، وأصحو على حوار فيه ما يشبه زقزقة العصافير، بين ركّاب المقعد الخلفي. أعرف من هذا الحوار أنهنّ جدة وابنتها وحفيدتها. لا ألتفتُ. وانصت للحفيدة التي تكرّر « تيتا، تيتا » . لعلها في الخامسة من العمر. ثم تكشف هذه الحفيدة التي تعلو زقزقتها على الأغاني، وعلى همهمة الكهل، وعلى الصمت المطبق للشابين قربي، عن سر صغير، هو أن أباها كان يرفض أن تسافر هي وأمها من نابلس إلى الرام، خوفاً عليهما من اليهود. تغضب الحماة. ولكن الحفيدة تقول للجدة : « تيتا، تيتا، لا تخافي، معي حجر، إذا رأيت اليهودي قرب بيتكم، سأضربه في بوزه » . فتصيح الجدة : إوْعِكْ! إياك ياحبيبتي! إرمِ الحجر من الشباك، ارمِهِ . سوف يقتلونك، ويقتلوننا كلنا! » . كانت السيارة قد بدأت تتجاوز « سطح مرحبا » وتتسلق ببطء وحذر تلال قرية « كفر عقب » عبر طريق فرعي ضيق ومحفّ ر، ضمن صف طويل من السيارات بمختلف أنواعها وأحجامها، ذلك أن الشارع الرئيس الذي يربط رام الله بالرام مغلق بحاجز عسكري إسرائيلي عند « سمير اميس » منذ عدة أسابيع، مثله في هذا الاغلاق الذي يمزق شرايين الوطن، مثل كل الشوارع بين مختلف المدن والقرى. الجدة تصرخ مجدداً ، آمرة حفيدتها برمي الحجر. ألتفتُ إلى ورائي هذه المرة. الطفلة تزقزق وترفض أن تفتح أصابع قبضتها عن الحجر. الجدة والأم تخلّصان الحجر الذي هو في حجم حصوة صغيرة لونها بُنيّ مشرّ ب بالخضرة، كأنها ياقوت، من قبضتها الطرية، فتتلقّفه الجدة وتلقي به من الشبّاك.

أتابع الحجر أين استقر بين أشجار الزيتون. تبكي الطفلة، فقد أخذوا منها لعبتها، وألقوا بها بعيداً عنها. أحسّ بالحنو الشديد نحوها، وأودّ لو رفعتها من مكانها بين جدتها وأمها، وحملتها إلى حضني. ثم أحس فجأة بالرعب، بما يشبه لطمة البرق الخاطف. ماذا لو واجهنا بالفعل، حاجزاً اسرائيلياً متنقلاً ، عند مدخل مخيم « قلنديا » مثلاً؟ تقوم الطفلة بإلقاء حجرها فجأة. يعني تلعب بلعبتها، فيردّ جنود إسرائيل بزخة من رصاصهم القاتل فوراً ، على الطفلة وعلينا جميعاً؟

واصلت الطفلة بكاءها. ثم نامت. وفي الصمت الذي ساد السيارة، كنت استرجع حجر الطفلة، وأعيده لعبة ياقوتيّة بُنيّ ة خضراء، إلى أصابعها الغضة الرقيقة.

الحجر؟ الحجر الفلسطيني بالنسبة للإسرائيليين « سلاح » بكل ما يعنيه السلاح من عنف وشراسة وقتل. وزير عدلهم، وهو وزير سياحتهم في آن، ابراهام شارير، يقول في العام ١٩٨٨ أن « الحجر سلاح » . واسحق شامير رئيس وزرائهم آنذاك يقول « أنها حرب حقيقية، هؤلاء بحجارتهم يحاولون هزيمة اسرائيل » . واسحق رابين الذي حقّ ق شهرته في تكسير عظام أطفال وشبان الانتفاضة، يصرّح أنه لم يستخدم الطائرات والدبابات بعد، فمن ذا الذي يتحدث عن هزيمة اسرائيل؟ وكي يُغطيّ ذلك التصريح نفسه، قبر رابين بعد اغتياله بيد يهودي، ها أن ايهود باراك رئيس حكومة اسرائيل وزعيم حزب العمل نفسه، يستخدمها الآن. وحين يسخر أحد أعمدة الليكود موشيه عميراف، في ذلك الحين، من « هذا السلاح الحجري »، إزاء القنابل الذرية، قائلاً : « اسمعوا، نحن نملك قنابل ذرية. أية حجارة هذه إذن؟ »، فإن شمعون بيريس يطوّر من اسرائيلية هذه السخرية بقوله : « إن التاريخ لا

تصنعه الحجارة». وأما بن اليعزر، من كان يسمّى بالحاكم العسكري الاسرائيلي للضفة الغربية المحتلة في العام ١٩٨١، فيقول: «إن سلطات الحكم العسكري تعتبر كل حجر صغير بمثابة قنبلة يدوية». فيا طفلتي الصغيرة، أنت بذلك، كنت تقبضين على قنبلة يدوية!

ولكننا في السيارة، ما بين مطار قلنديا ومخيم قلنديا، نواجه ما توقعناه، أطفال وشبان المخيم من جانب، وجنود اسرائيل وراء سياج مدرج المطار من جانب آخر. حجارة ومقاليع وإطارات مشتعلة، ورصاص، فوق رؤوسنا. يندفع السائق إلى الأمام، بين عشرات السيارات، وتراكم النفايات والخردة في الشارع. لقد اعتاد، واعتدنا كلنا على هذا كله. الطفلة تبكي مجدداً. والكهل يصمت. والسيارة تصل أخيراً إلى مفترق الرام. ألتفت إلى الطفلة وأبتسم لها. ما اسمك يا صغيرتي؟ كأنني كدتُ أن أسألها حقاً. أسكت. وأنزل إلى حال سبيلي نحو البيت. في البيت، اشمّ بقايا رائحة الغاز المسيل للدموع. لعلّ قنبلة غاز انفجرت في مكان قريب، أضغط على الرموت كنترول، فتضيء شاشة التلفزيون. من محطة إلى محطة، أتابع الانتفاضة المصوّرة. ما الفرق بين الانتفاضة على التلفزيون، والانتفاضة في الشارع؟ أظنّ أنه الفرق ذاته، بين المثقف في مخيلته وحيرته للإبداع المنتفض من جهة، وبين احساسه العميق بضرورة المشاركة الميدانية المنتفضة، من جهة ثانية. ندوات، معارض، أمسيات، مسيرات، . .إلخ. لماذا إذن، لم نحتفل بيوم التراث الشعبي الفلسطيني في ٧ تشرين الأول؟ كنا في وزارة الثقافة، أعددنا ملصقات جميلة لهذا اليوم، وبرامج لكل المحافظات.

هل يتعارض الاحتفال التراثي مع فعاليات الانتفاضة؟ أم أنه على الأصح، جزء منها؟ لم يعد الأولاد من مدارسهم، ولا أُمهّم من مكان عملها بعد. لقد غادرت مكتبي في الوزارة مبكّراً. لا شيء في الوزارة. قراءة جرائد. راديو ترانزستر. أخبار. لحظات مع الانترنت. صحف العالم العربي. تعليقات وأخبار مكرّرة. نقاش مع بعض الزملاء الذين تمكنوا من الالتفاف حول الحواجز والوصول إلى مكاتبهم. لا بدّ من «فعل ثقافي بارز» للتلاحم مع الانتفاضة! كيف؟ هل نجتمع مرة ثانية أو ثالثة، ونصدر بياناً ثقافياً جديداً؟ جدل وغضب وأحزان. نخرج من مكاتبنا ونشارك في جنازة تشييع شهيد. يسأل أحدنا هل يجوز الاضراب التجاري في كل يوم؟ ملصقات صور الشهداء وكتابات نعي الشهداء على الجدران، تزداد يوماً بعد يوم. هل تبقى الانتفاضة سلمية أم تندفع إلى الحرب؟ بالنسبة لإسرائيل، هي الحرب في كل الأحوال. القصف ليلة البارحة. هل ستظهر المروحيات الإسرائيلية هذه الليلة أيضاً؟ والدبابات؟ والبوارج؟ هل قرأت ما يقوله قنّاص إسرائيلي في لقاء معه أجرته صحيفة هآرتس ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٠؟ يقول: «تعليمات الجيش لنا تنص على اطلاق النار القاتلة على من هم في سن ١٢ فما فوق». كم عدد الأطفال الشهداء حتى الآن؟ إن الصحافي الإسرائيلي الشهير زئيف شيف لا يكترث بهذا الرقم فهذه «الحرب» بالنسبة له، «لا تدار بمنظمات الأمهات» كما يقول. أرأيت؟ ولكن الانتفاضة تحتاج إلى منظمات الأمهات الفلسطينيات ليشرحن أنهن لا يرسلن أولادهن إلى الموت. لماذا يكون على الضحية أن تشرح للقاتل، سبب قتلها؟ انتبه لخفقان الضوء على شاشة التلفزيون. خبر عاجل: الدبابات الاسرائيلية في مستوطنة جيلو تجدّد قصفها لبيت جالا. ماذا أعمل؟ أتحرك إلى الورق للكتابة. اضطرب. لو يأتي الأولاد، الآن! ألمح كتاب «أفكار لأزمنة الحرب والموت» لسيغموند فرويد، متنحياً

قرب وسادة مطرزة، بين فوضى مئات الكتب، في كل مكان بالبيت. لماذا رغبت بقراءة هذا الكتاب ليلة أمس؟ كم مرة سبق لي أن قرأته؟ أرفعه إلى عيني. أفتحه على صفحة تركت طرفها مطوّياً: «من المستحيل اصدار أي حكم شامل على حروب الغزو، فبعضها مثل الحروب التي شنّ ها المغول والأتراك، لم تجلب إلاّ الشر. وبعضها على النقيض من ذلك، أسهم في تحويل العنف إلى قانون على طريقة إقامة وحدات أكبر، وجعل استخدام العنف داخلها مستحيلاً، وأدى نظام جديد من القوانين فيها إلى حل الصراعات. بهذه الطريقة أعطت غزوات الرومان للبلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، السلام الروماني الذي لا يقدّر بثمن». ماذا يقول هذا الفيلسوف أو المحلّل النفسي؟ لو قُدرّ له أن «يحلّل» حرب اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، هل كان سيرى فيها امتداداً «للسلام الروماني» المزعوم؟ أحسّ بالهلع من كل أشكال الفلسفة والتحليل النفسي. ورغم أن فرويد يكتب مقالته في هذا الكتاب تحت عنوان فرعي «لماذا الحرب»، عن محصلة الحرب العالمية الأولى، إلاّ أنه يكتبها بالنسبة لي، كما لو أنها الآن، عن محصلة حروب القوة ذاتها في القرن الحادي والعشرين، ضد الشعوب الفقيرة والضعيفة، وفق مقولته هو نفسه «الحق هو قوة جماعة». اسرائيل – أميركا قوة جماعة، مثلاً؟ ملسوعاً، أُلقي بالكتاب الذي اهترأ غلافه الأزرق واتسخ كثيراً، من يدي. وأعيد تصفّح الجرائد واقفاً، ثم منكمشاً على وجع في صدري، على أريكة في الصالة.

رام الله

الانتفاضة وتجدد الأسئلة الصعبة

جميل هلال

ليس من السهل الكتابة عن حدث لم ينته بعد. كما يصعب للكلمات أن تضيف لما تسجله الكاميرا من مشاهد لحركة شعب يجدد ثورته ضد احتلال استوطن، ويذكّر العالم أن ما فيه استعمار. ويريد، كما أراد غيره من شعوب، أن يرفع علماً للحرية وأن يمارس الحياة.

تضيف الذاكرة الفلسطينية الانتفاضة الجديدة إلى تاريخ كفاحي طويل، ليس أوّله هبّة البراق عام ١٩٢٩، وثورة العام ١٩٣٦، ويوم الأرض عام ١٩٧٦، وصمود حصار بيروت عام ١٩٨٢، ومن بعده النهوض بعد مجازر مخيمات بيروت، وانتفاضة عام ١٩٨٧، وعلى الأرجح لن تكون الانتفاضة الجديدة آخره. لعلّ ما يميّز الانتفاضة الجديدة أنّها تجمع بعض سمات ما سبقها من هبّات وثورات وانتفاضات ومجابهات، وتعيد تكوينها في زمنٍ كوني جديد بثورة المعلومات والاتصالات تنقل الحدث اليومي وإن أغفل بعضها، أو أغلبها، أو شوّ ه أو تجاهل معانيه. أعتقد جنرالات حرب إسرائيل،

في الانتفاضة السابقة، أن تكسير سواعد المنتفضين سيوقف رجم الاحتلال. ونجدهم الآن قد طوّروا أساليب حربهم لتشمل قتل الأطفال الفلسطينيين، واثقين من أن العالم المتحضّر سيلقي باللوم على أمهات الأطفال لأنّهن أتَحْنَ فرصة قتلهم لجنود الاحتلال. فلوم الضحية وتجريدها من إنسانيتها كان دوماً منطق القوة المشبعة بالعنصرية والتي تنصب نفسها حكماً أوحد لحركة التاريخ.

يتمثّل غنى الانتفاضة كأيّ ة ثورة، في إتاحتها فسحاً جديدة لإعادة صياغة مفردات لغة الذات، ووضع الآخر عنوة أمام المرآة. وها هي تعيد شيئاً من الاعتبار إلى لغة التحرّر من قيود تفاوض عبثي سُوّ ق لنا، أو نحن سوّ قناه لأنفسنا، تحت عنوان «عملية سلام»، وصاغه الآخر المستعمر كمعادلة يُقايض وفقها جزءاً من أرضنا بالتخلي عن حقنا في الحرية والعدل. وتراءى له أن المصالحة التاريخية التي سعينا إليها، ولا نزال، ليست سوى مجرّ د شعار نرفعه ليحتفل هو بقيدنا، ولنباركه نحن على منحه لنا «بنتوستانا» ولنشكره على ميّزات فصله العنصري لنا.

تطرح الانتفاضة على الآخر السؤال: هل وبعد أن فشل تكسير العظام وقتل الأطفال وتجريب مختلف أنواع الحصار سيعيد، هو ومن تواطأ معه، النظر في المرآة؟ وهل سيُعيد صياغة مفردات لغته ومشروعه ويدرك أنّ الضحيّة التي كان قد انتقلت إلى موقع الجلاّد؟ وهل سيُدرك أنّه قد آن الأوان ليسعى للسلام القائم على الحريّ ة وبعض العدل، وأنّ الآخر إنسان؟ هل يعي جنرالاته، وقد غرّر بهم شبق الأمن وحجم ترسانات السلاح، أنّ معاني الانتفاضة لا تُ قاس بكم ونوع آلات الحرب ولا بمفردات اقتصاد السوق؟

قد نقرأ الانتفاضة الجديدة بلغة الصراع على تخوم ومصطلحات الدولة الفلسطينية، ونترقّب فعلها داخل حدود الحقلين السياسي والثقافي لإسرائيل. وقد نستبشر بأن قيام دولة فلسطينية بات أمراً حتمياً بعد أن تولّ دت قناعة عند مراكز القرار الإسرائيلية والإقليمية والدولية بأنّ لا مفرّ من الاعتراف بدولة للفلسطينيين. ونسمع من داخل المؤسّ سة الحاكمة الإسرائيلية، ونُخبها السياسية والاقتصادية والثقافية، أصواتاً تدعو لقيام دولة فلسطينية، حرصاً على أمن إسرائيل وحفاظاً على سمتها اليهودية. ونغذّ ي رؤيتنا لحتمية الدولة الفلسطينية بما تبديه النُظم العربية من حرصٍ على رؤية قيامها حتى ولو كان الدافع وراء ذلك إزالة عبء المسألة الفلسطينية عن كاهلها، أو خشيتها من انتقال عدوى الانتفاضة إلى عواصمها. ونقرأ بيانات مراكز القرار الدولي، عسى أن نجد ما يؤيد قيام دولة فلسطينية رغم انحيازها للمشروع الصهيوني، ونعرف أن غايتها هو ضمان استقرار مصالحها في المنطقة.

لكنّ المسألة الفلسطينية غير قابلة للاختزال في ثنائية أن تكون دولة فلسطينية أو أن لا تكون، ولا على أيّة مساحة من أرض فلسطين تقوم. بل وفق أيّة شروطٍ وحقوق. وهُنا تتباين الرؤية الفلسطينية لوظيفة الانتفاضة. فالبعض يحصرها في تحسين شروط التسوية لتشمل حدود الدولة الأراضي التي احتلت العام ١٩٦٧، بما فيها القدس الشرقية، ورحيل المستوطنين أو معظمهم، وإيجاد صيغة لا تسلب الحقوق الجماعية والفردية للجزء اللاجئ من الفلسطينيين. والبعض يرى في الانتفاضة فعلاً تثويريّاً يكتفي بذاته وينتظر إلى أن تتوفّر شروط دولة فلسطينية على كلّ أرض فلسطين التاريخية. وربّما يكتفي البعض إن نجحت الانتفاضة في إعادة المفاوض الفلسطيني إلى طاولة المفاوضات بتحسينات

ما على صيغة المشروع الأمريكي – الإسرائيلي للدولة الفلسطينية، حتى إن تطلّب ذلك الدخول في تسويات مرحلية جديدة.

لكن هل يقف سؤال الانتفاضة عند حُدود جلاء الاحتلال عن الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧؟ أم أنه يمتد ليختبر حدود طاقتنا على تذليل الصعاب وحدود مخيلتنا على تحويل الضرورة إلى إمكانيات؟ ربّ ما علينا إعادة صياغة السؤال ليكون: هل ينتهي مشروع الانتفاضة، بما هي فعل يومي مقاوم للاحتلال، عند حدود دولة تُ ضاف إلى قائمة دول جمعية الأمم المتحدة؟ هل تمنحنا الانتفاضة وتجربة سنواتٍ طويلةٍ من التفاوض وحكم الذات، حريّ ة محاورة الذات، بما تراكم لنا من وعيٍ على مدار قرنٍ من الزمان، ونحن نقف على عتبة ألفيةٍ جديدة، حول ماذا نُريد أن نكون وأيّ مُجتمع يستحقّ الأحياء منّا وقد ترك لنا الشهداء أحلاماً جميلة؟ هل من حقّنا أن نُ حاور الأسئلة الصعبة، من نوع لماذا فشلت ثورة العام ١٩٣٦، ولماذا انتهت انتفاضة العام ١٩٨٧ إلى ما انتهت إليه، وكلاهما انحدرا إلى عنفٍ داخلي وبروز أشكالٍ جديدة من الفكر والممارسات السَلَفيّ ة، ولماذا اعتبرت سلطتنا الوطنية نفسها غير معنية بالقيم والمبادئ التي احتفل بهما إعلان الاستقلال عام ١٩٨٨؟

إذا كان محرّ ك الانتفاضة الجديدة هو رحيل الاحتلال ومستوطنيه، وهو كذلك، وإن كان انقشاع الأوهام التي راهنت على الوصول إلى سلامٍ عادلٍ وفق الآليات والأُسُس التي صاغها اتفاق أوسلو، هو مُفجّ ر هذه الانتفاضة، فإنّ وصولها إلى هدفها الوطني هو مسؤولية المُجْتَمَعَيْن السياسي والمدني.

ويصعب، حتى اللحظة، على الأقلّ تقديم شهادة بوجود ما يحوّل تصميم الحركة الشعبية إلى تشكيلات تنظيمية أو من يمدّها برؤية لا تُقيّد فعلها عند حدود الحاجة التفاوضية رغم أهمية هذه. فلدينا كثيرون ممّ ن يعتقدون أن تخوم الوطنية الفلسطينية تقف عند حدود مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وهي تُحقّق ذاتها لحظة قيام الدولة. وهو فهم يحمل مخاطر أوّلاً على مشروع الدولة نفسه. فهل تتوقف الوطنية الفلسطينية، بما تحمله من مضامين تحرريّ ة، قوميّة ومدنيّة وإنسانيّ ة، عن إعادة إنتاج نفسها بعد قيام الدولة؟ ألا يحقّ لنا القلق إزاء من يُريد كسر أجنحة طموحنا بأن تقوم الدولة العتيدة على المواطنة الحرّ ة والمجتمع العصري المنفتح؟ وأليست المواطنة، بما هي ممارسة فعلية للحريّة والمسؤوليّة في آن، حقٌّ لكلّ شعب، بما فيها شعب امتدّ نضاله التحرّري قرناً من الزمن؟

فكما لا يجوز العودة إلى التفاوض مع الآخر، ومن يتواطأ معه، وفق أُسُسٍ وآليات ما قبل الانتفاضة، كذلك لا يجوز العودة إلى التعاطي مع قضايانا الوطنية الحيوية في الغرف المغلقة أو استمرار الارتجال في تنظيم شؤون مجتمعنا وحياتنا وفق رُؤى ومُمارسات كشفت عن عُ قمها. وكما يمكن أن تكون الدولة كياناً (بما هو مُؤسّسات وقوانين وثقافة ورُموز) لممارسة التفرّد والتسلّ ط والقمع، ويمكن أن تكون كياناً يحيل المواطن إلى فرد خائف يتوسّل حقوقه وإنسانيته (وعالمنا لا يشكو من قلّة دول على هذه الشاكلة)، كما يُمكن أن تكون الدولة كياناً حاضناً وحافظاً لحقوق كلّ أفراده، نساءً ورجالاً، بما فيها الحقّ في حريّ ة الرأي، والتعبير والتنظيم والمُ عتقد، وأن تكون كياناً يُمَأْسِ س قيم العدالة والتكافل الاجتماعي، ويُوفّر البيئة التي تستقبل وتُشجّ ع الإبداع الفكري والثقافي والفني، وكياناً مُنفتحاً على مُحيطه القومي والإنساني وفاعلاً فيهما. وهنا التحدّي الأكبر في تجديد الذّات لمؤسّسات مُ جتمعنا السياسي والمدني، من سلطةٍ وأحزاب وجمعيّات واتّحادات وجامعات ومُنظّمات أهليّ ة، بعد أن تكشّف قُصورها.

رام الله

حصاة مشتعلة ..

أنطوان شلحت

ما مِن شيء أكثر سهولة في إسرائيل من عودةِ المتخصّصين في الدعايةِ للحربِ إلى العملِ ، كلّما استلزم الأمر. وداخل هذه العودة الأخيرة يجتاحنا، منذ انفجار إنتفاضة أيلول ٢٠٠٠، فيضانٌ من الكتاباتِ السّاخنة بالعبريّةِ تسير في وجهةِ «إكتشاف» أسباب هذه الإنتفاضة وتحليل ما ترتّب عليها من «إنجرافٍ» فلسطيني معها داخل تخوم «الخطِّ الأخضر»، في الجليل والنّقب والمثلّث، فضلاً عن السّاحل و«المدن المختلطة».

ويمكن القول إنّه بمقدار ما كان هذا «الإنجراف» تعبيراً بسيطاً عن ردِّ الإعتبارِ لذاتِنا الوطنيّة، فإنّ معظم تلك التعليقات لم يعوزها العناء لترى أنّه كان خذلاناً للتّوقّعات الإسرائيليّة من الفلسطيني المعلّب المفترض أن يكونه كائنٌ بشريٌّ يُسمّى «المواطن العربي في إسرائيل» !

ولا يُنبئ النصّ المكتوب بما يحمله، على الصّعيد النظريّ ، فوق أسطحِ الورقِ فحسب بل يؤثّر أيضاً على المشاعرِ الإعتياديّة للإسرائيلي العادي، تلك التي تتكشّف، على الصّعيد العملي، في الحياة اليوميّة : حياتهم وحياتنا.

قلتُ إنّها دعايةٌ للحربِ ، ولذا فإنّ تقطيع المفاهيم نادراً ما يختلف باختلافِ أصحابِها.

وفي الحربِ كما في الحربِ كلّ شيءٍ مباح، بما في ذلك، بل في المقدّمة، الإنكشاف التّلقائي لأغوار البشرِ الباطنيّة التي كانت مكبوتةً لدى البعض في «زمان السلام».

من المتعارفِ عليه لدى الخبراء أنّ الدعاية، التي تكون مؤهّلة لأن تعدّ جزءاً من «المجهودِ الحربيّ» لأيّة دولة محاربة، هي الدّعاية التي تتّخذ صبغة «الحرب النفسيّة». وهي، كما يقول ف. تايلور، قذائفٌ من الكلماتِ التي تُختار بعناية وتُصاغ بحساب دقيقٍ مستهدفة التّشكيك في العدوِّ وفي قدرتِه على تحقيقِ النّصر. فكيف تكون الحال حين تسقط مثل هذه الدعاية، في أوضاعِ إسرائيل، على آذانٍ صاغية لجمهورٍ مستهدفٍ لا يتقنُ شيئاً أكثر من العنصريّة الجامحة وتنميط شخصيّة الإنسان الفلسطيني من أجلِ تدعيم «تصوّره الذّاتي» ؟

حربٌ نفسيّة سرعان ما تهضمها حالةٌ نفسيّة، أو عصاب جماعي تتمثّل بعض مواصفاتِه في إشارات «صافية وصريحة» تَوَصّل إليها مؤخّراً بروفيسور إسرائيلي في علم النّفس، يرأس أيضاً «الشركة العالميّة لعلمِ النّفس السياسي»، بعد أنْ مدّد المجتمع الإسرائيلي على أريكةِ التّحليل النّفسيّ.

مهما يكن أمرُ هذه الخلاصات، فإنّ واحدةً منها تتعلّق بالتّنشئةِ الإجتماعيّة، أومأت إلى أنّ الأطفال اليهود، منذ عمر الثّانية والنّصف، يتشكّل لديهم تصوُّرٌ سلبيٌّ عن العربِ تحت تأثيرِ العواملِ الكثيرةِ المحيطةِ بهم، المتداخلة في تنشئتِهم، ما يعني أنّ هؤلاء الأطفال يفتقرون إلى مرحلةِ السّذاجةِ البريئة. ويبقى العربيُّ ، في تصوّرهم، مفردةً ملازمةً لصفاتٍ سلبيّةٍ وشرّيرة. وهذا التصوّر يُعبّرُ بكيفيّة ما، عن مجاراة مع ما تبثّه كتُبُ التّدريس العبريّة، التي لا تنفكّ تكرّس النّزاع مع العربِ والفلسطينيّين

وتجمّده في إطارِ الحربِ تثبيتاً على الماضي، من غيرِ أدنى تغييرٍ يتناسب على الأقل مع سيرورة « عمليّة السّلام ».

يبدو أنّ السلام، حتى في شروطه الكائنة، بقي خارج حدودِ المدرسة. وهذه الأخيرة هي، بطبيعة الحال، خليّة حيّة مصغّرة عن المجتمعِ الأوسع.

من ينظر إلى السّلام، قال هذا البروفيسور، فإنّه يفعل ذلك بوصفِه إمّا شيئاً ما ينتمي إلى « السّياسة » لا أكثر، وتختلف الآراء حوله، وإمّا بوصفِه إنحرافاً عابراً وطفيفاً عن مسارِ التّاريخ (الإسرائيلي) الحافل بالحروب . . . تبعاً لهذا، فإنّ لسانَ حال الجميع هنا يقول بمنطقِ التّشكيك : ما جدوى تغييرِ كتبٍ وغير ذلك إذا كان هذا السّلام، وفق المَنظورِ السّالف، مجرّد فصلٍ قصيرٍ ، وقد لا يصمد طويلاً ؟!

ما أبانت عنه تصرّفات الجمهور الواسعِ في إسرائيل يحيل، إذاً ، على واقعٍ قديمٍ يعيد تجديد نفسِه : الإسرائيلي العادي لم يباغت بأننا فلسطينيون، لأنّنا في الأصلِ عربٌ أيضاً. لكن ما بوغت به « حَمَلَةُ القلمِ » هو أنّنا لا نندمُ على كونِنا كذلك.

وقد لا نعثر على دليلٍ يؤكّد ذلك أفضل ممّا يمكن أن نستخلص من تحليلِ الجانبِ المضموني للكثيرِ من تعليقاتِ أصحابِ النّزعة الثقافويّة.

ها هو أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة حيفا، البروفيسور دافيد بوكاعي، يعيد إلى أذهانِ قُرّائه أنّ الإشكاليّة الرئيسيّة في النّزاعِ الفلسطينيّ – الإسرائيليّ هي إشكاليّة ثقافيّة.

ومِمّا كتبه : يمكن أنْ تسألوا الخبراء في اللّغة العربيّة كي تطّلعوا على مسألةٍ مثيرةٍ : ليس في العربيّة كلمة تحمل دلالة « ندم » أو تبكيت ضمير. ثمّة كلماتٌ تتطرّق إلى أمورٍ مشابهةٍ لكنّها بعيدة جداً عن تحديدِ النّدم وتحمّلِ الذنب، وبالتأكيد على المستوى القومي !

واضحٌ أنّ مثل هذا الهذر الرّخيص لا يستهدفُ النّقاش في اللغة وإنّما تعزيز موقف « بني قومِه » من زاوية الإفتراء بأنّ لغتَهم تبدو، من وجهةِ ما يقوله، أغنى بالمفاهيم الإنسانيّة.

أمّا التصوّر الذّاتي لليهودي الإسرائيلي، ورؤيته للعربي في حدودِ ما يفترضه مثل هذا التصوّر، فقد انعكس في قولِ الشّاعر حاييم غوري : « لقد إعتدنا حتى الآن أنْ نراهم عرباً خاصتنا – إسرائيليّين ».

والنّاقد إيهود بن عيزر قال، ضمن أشياء أخرى : « إذا إعتقدنا سابقاً أنّه في الحروب سليتزم عربُ إسرائيل جانبَ الصّمتِ ، فإنّ مثل هذا السيناريو يبدو بعد الآن مستحيل التحقّق ».

إنّ أقلّ من عشرِ سنواتٍ من الصّراع على « إتّفاق السلام » كانت كافية لِبن عيزر كي يُطلِقَ الأعنّةَ لخيالِه في إفتراض أنّ التّوحيد ممكنٌ بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، لإنتاج شيءٍ لا وجود له كشيء إلاّ في ذاكرتِه الإفتراضيّة. وبمثلِ هذا الخيال يتمّ إختزال المسافةِ بين فعلِ الإفتراض وبين تدافع جماهير الغوغاء لإرتكاب مذابح غطاؤها صيحات : الموت للعرب !

ولم تبلغ هذه الصيحات مَسْمَعي، كما كان في العادة، عبر وسائلِ الإعلام المرئيّة فقط، وإنّما أيضاً عبر المشاهدة المباشرة والحيّة، أكثر من مرّة واحدة، لهؤلاء الغوغاء في مدينتي « المختلطة ».

إحدى هذه المرّات كانت في ساعاتٍ متأخّرة من ليلة من ليالي أكتوبر، مصحوبة بإعتداءات على

محالٍّ تجاريّةٍ يملكها فلسطينيّون. لم نتفاجأ بهذا. لكن هذه الليلة إنحفرت عميقاً في أذهان الأجيال الصغيرة من الأُسَر الفلسطينيّة، الذين كانت عيون مجايليهم من الفتية اليهود المتوهّجة بصيحة «الموت للعرب» أشبه بطرف حصاةٍ مشتعلةٍ في ليلةٍ دامسة الظّلام، مؤشّرة إلى ما يحدث على هذه الأرض منذ أكثر من مئةِ عام.

عكا

حكاية عائلية

حسن خضر

تبلغ ابنتي في هذه الحرب مقدار عمري في حرب عام ١٩٦٧. وقد بادرت إلى الاتصال بها خلال موجة القصف الأولى بالطائرات. أنا في رام الله وهي في خانيونس، في البيت الذي تعرّض للقصف بمدافع الهاون قبل ثلاثة وثلاثين عاما. كانت طائرات الهليوكوبتر تقصف المدينتين، وكانت ابنتي فريسة رعب يشل اللسان.

ورغم ذلك، تبدو البنت أسعد حظا من أبيها ـ حتى الآن على الأقل ـ ففي ذلك البيت شهد أبوها مصرع أبيه، عندما سقطت قذيفة هاون على البيت فأصابته إصابة مباشرة، قصفت عمر الوالد، هدمت جزءا من البيت، وأصابت الولد يجرح في قدمه، ما زال واضح المعالم حتى الآن.

وليس في مفارقة البنت التي تعيش في بيت شهد مصرع جدها، لتشهد حربا أخرى لم تنته بعد، ما يمكنني من تجريد الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي في فلسطين وعليها من شبهة الحكاية العائلية. فقد خرج أبي مطاردا ومطرودا من قريته في عام ١٩٤٨ بقوة الحراب، ليلحق به مطاردوه إلى مخيم للاجئين بعد ١٩ عاما. هناك، صفوا حسابهم معه، لكنه تمكن بين حربين من إنجاب أولاد وبنات في مجرد وجودهم الفيزيائي على الأرض ما يجعل خاتمة الحكاية العائلية بعيدة المنال، وكذلك الصراع.

ففي البيت نفسه يتعلم المشي طفل جاء إلى الدنيا في الذكرى الخمسين للنكبة قبل عامين. إنه ابن شقيقي الأصغر، الذي كان عمره أقل من ثلاثين يوما في حرب عام ١٩٦٧. وليس من قبيل الصدفة أو المفارقة أن الطفل يحمل اسم جده، أيضا. وأرجو أن تمن الحياة على الاسم بما يمكنه من النهوض في جسد فتي جديد.

ربما في الحكاية العائلية ما يحرّض على القيام بعمليات حسابية دائمة. ففي عام ١٨٩١ ، زار فلسطين رجل أطلق على نفسه اسم آحاد هاعام، وكتب بعد الزيارة بقليل مقالة بعنوان « حقيقة من فلسطين ». سأورد مقطعا من تلك المقالة بعد قليل، لكنني حريص على التذكير بحقيقة لن يذكرها

أحد من المؤرخين: كان جدي على قيد الحياة، آنذاك، ربما كان طفلا يتعلم المشي. لذلك لا يندرج ما كتبه آحاد هاعام في تاريخ الاستيطان اليهودي في فلسطين وحسب، بل يندرج في كتاب الحكاية العائلية، أيضا.

قال آحاد هاعام في وصف المستوطنين اليهود في فلسطين: « أقنان كانوا في ديار الدياسبورا، وفجأة نالوا حريتهم، فأيقظ فيهم تبدل حالهم ميلا إلى الاستبداد، يعاملون العرب بعدوانية وقسوة، يحرمونهم من حقوقهم، يسيئون إليهم دون سبب، ويتباهون بتلك الأعمال، ولا يوجد بيننا معارض لهذا الميل الخطر والبغيض ».

لنتذكر أن هذا الكلام كان قبل نهاية القرن التاسع عشر. فما الذي تغيّر بعد مائة عام. سأصف مشهدا يوجز المعاملة في نهاية القرن العشرين: كانت طائرات الهليوكوبتر، التي قصف رام الله مؤخرا تغير على المدينة في تشكيلات تتكون من ثلاث طائرات، تحرسها طائرة مقاتلة ـ وربما أكثر ـ من فوق، بينما تتولى طائرات، يتم التحكم فيها عن بعد، نقل صور حية للمواقع المستهدفة قبل القصف وبعده.

تابعت المشهد باهتمام فائق. تحوّ م طائرات الهليوكوبتر لفترة من الوقت على ارتفاع شاهق، ومسافة بعيدة عن المواقع التي تستهدف قصفها. فجأة، تكف الطائرات التي تشبه جنادب معدنية هائلة الحجم، وتطلق طنينا مرعبا، عن الحركة، كأنها جمدت في الهواء. تتقدم واحدة منها إلى الأمام، تطلق صاروخها ثم تتراجع إلى المؤخرة، بينما تخطو طائرة أخرى إلى الأمام، لتأخذ مكانها وتعمل عملها، وهكذا دواليك.

لا شك أن المناورة التي اتبعتها الطائرات المغيرة تنسجم مع أفضل وأحدث تكتيكات القصف من الجو، ومبادئ الحرب الحديثة، ويمكن النظر إلى الطائرة المقاتلة، التي تقوم بالحراسة من أعلى، والطائرة بدون طيّار التي ترسل صورا حيّ ة على مدار الساعة، كعلامات على مدى الدقة في التنفيذ والتخطيط الذي لا يترك مجالا للصدفة.

ومع ذلك، في هذا المشهد ما يثير السخرية، ويدعو إلى تأمل سيرة الأقنان الذين وصفهم آحاد هاعام، أكثر مما يدعو إلى التفكير في تقنيات الحرب الحديثة. فطائرة الحراسة المقاتلة غير ضرورية لأن الفلسطينيين لا يملكون طائرات مقاتلة قد تشكل تهديدا محتملا للجنادب المعدنية، كما أن القصف من ارتفاع شاهق غير ضروري، أيضا، لأن الفلسطينيين لا يملكون أسلحة مضادة للطائرات. والأكثر مدعاة للكوميديا السوداء أن الطائرات تقصف مدينة مأهولة بالسكان، مدينة لا توجد فيها معسكرات لجيوش مدربة ومسلحة، لا تقصفها تمهيدا لاحتلالها كما قد يحدث في حرب شاملة، بل كنوع من العقاب، الذي أصبح ـ بكل بلاغته التقنية المعززة بالدبابات والمدفعية ـ من الطقوس شبه اليومية.

ألا يحمل مشهد أواخر القرن العشرين ما يعيد التذكير بذلك الميل غير المبرر إلى القسوة في نهاية القرن التاسع عشر ؟ الفرق الوحيد أن طاقة الأذى أصبحت أكثر كفاءة مما كانت عليه قبل مائة عام.

نعثر على فرق كهذا في الواقع، أما في الخطاب فلم تتغير أشياء كثيرة: بررت القسوة نفسها في الحالة الأولى بعدم وجود خيار آخر، وما زالت تستخدم الذريعة نفسها في الحالة الثانية. فالقصف جزء من مفاوضات تستهدف تحقيق السلام.

وإذا كنتُ لا أستطيع فصل الصراع في فلسطين وعليها من شبهة الحكاية العائلية، فإنني حريص على تمكين أفراد العائلة من امتلاك أدوات ضرورية تساعدهم على فهم طبيعة وخصوصية تلك القسوة، لما لهذا الأمر من صلة بحاضرهم ومستقبلهم من ناحية، وبحكم العلاقة الحتمية والمؤكدة بين السيرة الذاتية والتاريخ القومي العام من ناحية ثانية.

برّر الخطاب الصهيوني ـ بمختلف ألوان الطيف التي كوّنها وكوّنته ـ تلك القسوة استنادا إلى فرضية بسيطة وتبسيطية مفادها اصطدام حركتين قوميتين في فلسطين. وقد انخرط في ما يشبه الرثاء الذاتي، عندما أعلن دامع العينين: لن يكف الحظ السئ عن ملاحقة اليهود، أبدا. فقد تصادف ظهور مشروع الحركة القومية اليهودية مع ولادة الحركة القومية الفلسطينية، وبالتالي جعلت مصادفة التوقيت من الصدام مسألة قدرية، بقدر ما هي مأساوية ومحزنة.

وقد تطوّع شخص كان مولعا بالخطابة والحلول المتطرفة، بتحويل القسوة الناجمة عن مصادفة التوقيت إلى نظرية كاملة شحنها بتاريخ وكوابيس يهودية أوروبا الشرقية والوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأطلق على نظريته تسمية الجدار الحديدي.

يعرف المطلعون على تاريخ الصهيونية، بالتأكيد، مقالات زئيف جابوتنسكي الشهيرة عن الجدار الحديدي، في سياق مرافعاته اللاذعة ضد نفاق الصهيونية العمالية والتواء سياستها تجاه الفلسطينيين.

ويعرف المطلعون، أيضا، أن العماليين تبنوا تلك النظرية ـ بعد تمويه أصولها الأيديولوجية وبلاغتها الجارحة ـ وطبقوها على الأرض، لتصبح سياسة رسمية لقيادة الييشوف اليهودي، والدولة الإسرائيلية بعد قيامها.

قال جابوتنسكي آنذاك: يحب الفلسطينيون بلادهم كبقية شعوب الأرض (على طريقة البدائيين وأقل من الشعوب المتحضرة، إذا تحرينا الدقة) لذلك لن يقبلوا بمشروعنا، ومن العبث التفكير في حلول وسط معهم، فما علينا سوى حماية المشروع بجدار من الحراب، وعدم المساومة أو التفكير في حلول وسط، بل دحرهم بعنف كلما حاولوا اختراق الجدار وهدم المشروع. بهذه الطريقة، فقط، وبعد هزيمتهم، وقبولهم بنا كأمر يستحيل الانقلاب عليه، يمكن التوصل إلى اتفاق معهم.

ربما جاز لشخص هبط من المريخ، للتو، تأمل حقيقة أن قبول الفلسطينيين بعشرين في المائة من وطنهم التاريخي، الذي يحبونه، من أجل السلام مع الإسرائيليين، يحوّل بلاغة الجدار الحديدي إلى ما يشبه النبوءة. فهذا معنى ومبنى اتفاقيات أوسلو، في نهاية الأمر.

لكن تأمل هذه الحقيقة لا يستدعي الاستعانة بكائنات من خارج الأرض. فقد حاول مؤرخ يدعى إيان لوستيك تحليل الكيفية التي تحوّلت بها فكرة الجدار الحديدي من نظرية إلى استراتيجية لمختلف

أجنحة المشروع الصهيوني، وعبّر عن حيرته العميقة بشأن تصرّف الإسرائيليين بعد اقترابهم من خط النهاية. فكل ما فعلوه يدل على تخريب متعمد لاستراتيجية الردع والتراكم واستثمار الفوز.

يمكن ترجمة هذا الكلام إلى مفردات متداولة ومألوفة من نوع الجهود الاستيطانية المحمومة، ومصادرة الأراضي، وزيارة عدد المستوطنين، وتفتيت الكثافة الديمغرافية الفلسطينية وتقطيع أوصالها حتى ـ وخاصة ـ في ذروة التفاوض على السلام مع الفلسطينيين. وهي جهود كانت لحكومات العماليين فيها، وما زالت، حصة الأسد.

الخلاصة أن لحيرة لوستيك ما يبررها. فمن الواضح ـ رغم كل ما يقال ـ ان الاحساس بالاقتراب من خط النهاية لم يتحول إلى فكرة سائدة في أوساط النواة الصلبة لمشروع الدولة اليهودية في فلسطين. أو ربما كانت فكرة الوصول إلى نهاية ما مبعث قلق عميق.

ومع ذلك، الحيرة هي وصف ما يتركه الواقع من أثر على أشخاص يحاولون فهمه أو التعاطي معه، وليست، بهذا المعنى، وصفا للواقع نفسه. وهذا الأمر يستدعي القيام بخطوة إضافية تستهدف مقاربة الواقع، أو محاولة وصفه. ولعل في الأدبيات الصهيونية التي تغطي مائة عام من النشاط الاستيطاني والدولاني اليهودي في فلسطين ما يحقق بعض هذا الطموح.

زاوية النظر في هذا الشأن هي الموقف من السكان الأصليين، كما صاغته الرواية الرسمية، التي تشكل ديانة مدنية للمجتمع الإسرائيلي: يتعلمها التلاميذ في المدارس، ويعبر عنها بتنويعات مختلفة عدد لا يحصى من الكتّ اب والصحافيين والفنانين والباحثين. وبما أن الرواية خطاب، والخطاب مؤسس على عملية انتخاب وإقصاء دائمة، فمن المثير ملاحظة ما صرّح به الخطاب وما سكت عنه. ولتكن فكرة القسوة، هنا، الأداة الوحيدة لاختبار الخطاب.

نعثر في أدبيات الرواية الرسمية على فكرة مفادها أن الآباء المؤسسين لم يفكروا في احتمال الصدام مع السكان الأصليين، بل فكّ ر بعضهم أن البلد تكاد تخلو من السكان، وفكّر البعض الآخر أن المنافع الاقتصادية والتحديث الاجتماعي القادم مع المستوطنين سيحرّض السكان الأصليين على الترحيب بالقادمين الجدد.

لكن الأبحاث التاريخية في العقدين الماضيين تشير إلى حقيقة أن محاضر اجتماعات الأحزاب الصهيونية في فلسطين وخارجها منذ مطلع القرن العشرين، إلى جانب محاضر اجتماعات النقابات العمالية، وقيادة الييشوف تعرّ ضت للتحرير والتنقيح لحذف كل ما يمت إلى العرب بصلة، أو تقليصه إلى الحد الأدنى. فقد كان السكان الأصليون مصدر قلق عميق، وكانت فكرة الصدام معهم في صلب الموقف الصهيوني.

تترافق البراءة المزعومة للمستوطنين الأوائل، عادة، وتنسجم مع الكلام عن أيديولوجية اشتراكية حكمت سلوك ومواقف بناة اليوتوبيا الجديدة. لكن النزعة العمالية المساواتية لبناة الييشوف اليهودي في فلسطين أصبحت موضع شك عميق في السنوات الأخيرة. ويكفي التذكير في هذا الصدد

بكتاب زئيف شتيرنهال المعنون « الأساطير المؤسسة لإسرائيل »، الذي يبين أن الاشتراكية الصهيونية لا تختلف من حيث الجوهر عن الاشتراكيات القومية التي عرفتها أوروبا بين الحربين الأولى والثانية، أما كلام العماليين عن القيم الإنسانية العليا للإشتراكية، وأخوّ ة الشعوب، فلم يكن في حقيقة الأمر سوى قشرة خارجية. لذلك لم يثر بناء تعاونيات عمالية على أرض جرى طرد أصحابها الأصليين، والتنكيل بهم في حالات عديدة، اهتمام أحد.

وكما جرى حذف الكلام عن السكان الأصليين في محاضر الاجتماعات، جرى حذف العلاقة بين وجودهم الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من ناحية، ونشوء الييشوف اليهودي وتطوّره الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من ناحية ثانية. فقد حرص منتجو الرواية الرسمية في حقلي التاريخ وعلم الاجتماع على دراسة الييشوف في فلسطين الانتدابية كوحدة اقتصادية واجتماعية منفصلة تحركها ديناميات يهودية داخلية، بينما تجاهلوا كل تأثير محتمل لوجود الفلسطينيين.

مرّ ة أخرى، تعرضت الرواية الرسمية في هذا الجانب لنقد عميق. ففي دراسات غيرشون شافير، وأوري رام، وباروخ كيمرلنغ الجديدة، ما يبدد حقيقة التطوّر المنفصل والمستقل للمجتمع اليهودي في فلسطين، وللدولة الإسرائيلية في وقت لاحق. فقد كانت علاقة التفاعل السلبي والإيجابي مع السكان الأصليين، والصراع ضدهم، هي العامل الحاسم والمقرر في كل ما يتصل بمؤسسات المجتمع الإسرائيلي، وثقافته السائدة، أما العوامل اليهودية الداخلية فتأتي في المرتبة الثانية من حيث الترتيب.

لكن ما أظهرته الرواية الرسمية من كفاءة في تجاهل وجود السكان الأصليين في زمن الييشوف يشحب أمام محاولتها طمس ما أصابهم في حرب عام ١٩٤٨ ، حيث حاولت التنصل من المسؤولية المباشرة عن ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. ولعل هذا الجانب من الرواية هو الأكثر تعرّضا للنقد في السنوات الأخيرة، وهو الأكثر شيوعا بين الناس، أيضا. ففي كتابات بيني موريس، وإيلان بابي، وآفي شلايم وغيرهم، ما يمكّن من العثور على تفاصيل دقيقة لعملية طرد استهدفت زحزحة تجمعات ديمغرافية فلسطينية كبيرة من مراكز استراتيجية معينة، أو دفعها خارج البلد.

يُ لاحظ أن القاسم المشترك بين ثلاثة تجليات للموقف من السكان الأصليين في الرواية الرسمية يتمثل في محاولة تجاهل أو تقليص وجودهم. وفي هذه المحاولة التي يمكن العثور عليها بصيغ مختلفة في تجليات لا يتسع المجال لذكرها ما يبرر الشك والارتياب: لماذا حاولوا تجاهل أو حذف الوجود الموضوعي للسكان الأصليين ؟ ولماذا حاولوا طمس معالم القسوة التي وسمت علاقتهم بالسكان الأصليين ؟ ولماذا برروا تلك القسوة عند افتضاح أمرها بعدم وجود خيار آخر، أي أضفوا على أنفسهم صورة قاتل يبكي على نفسه وعلى ضحيته في آن.

من حقي كواحد من السكان الأصليين البحث عن إجابات مناسبة تحرر الحكاية العائلية من شبهة الأقدار العاتية أو المصادفات الناجمة عن سوء الحظ، ففي سيرة أربعة أجيال من عائلة واحدة ما يبرر البحث عن ناظم يعقلن السيرة، أي يضعها على سكة التاريخ.

وأشعر أن كلمة القسوة، التي تمثل الناظم المشترك لكل التمثيلات السابقة، كلمة مخادعة وفارغة. فقد تكون ذات دلالات معنوية أو أخلاقية، لكنها لا تعني أو تفسر شيئا بالمعنى التاريخي. ففي كل موضع وردت فيه يمكن وضع كلمة الكولونيالية في مكانها، وإعادة تأمل المشهد من جديد.

فالمشروع الذي حاول جابوتنسكي تسييجه بجدار من الحراب، كان في الواقع مستوطنة بيضاء لا تختلف من حيث المعنى والدلالة والخطاب والأدوات عن مستوطنات أخرى عرفتها شعوب وبلدان في أميركا الشمالية وآسيا وأفريقيا منذ ثلاثة قرون مضت. وإذا كانت ثمة خصوصية تسم المستوطنة الصهيونية البيضاء في فلسطين، فهي تتمثل في ثلاث حقائق: ظهورها المتأخر في زمن تصفية الاستعمار وظهور حركات التحرر القومي في المستعمرات، وغياب المركز الكولونيالي الأم، وضعف الطاقة البشرية القادرة على ضخ دماء جديدة في عروق المستوطنة بصفة دائمة.

في هذه الحقائق ما يفسر محاولة تجاهل أو تقليص الوجود الموضوعي للسكان الأصليين، ومحاولة إخفاء معالم الجريمة ضدهم، أو تبريرها بعدم وجود خيار آخر. ففي الوقت الحالي ـ كما في كل الأوقات السابقة ـ نستطيع نحن الأحياء، وشهود المشهد، البرهنة على وجود أكثر من خيار يمكن الطرفين من التوصل إلى حل وسط في الواقع. لكن في تجربة السنوات السبع الماضية بعد اتفاقيات أوسلو، وتكثيف الجهود الاستيطانية، وسياسة إسرائيل المعلنة بشأن الفصل الديمغرافي، وعنف الحرب الحالية، ما يشير إلى تصميم آخر المستوطنات البيضاء في أواخر القرن العشرين على حماية نقائها عن طريق نظام الأبارتهايد، الذي عرفته وجربته أنظمة كولونيالية في أماكن أخرى من العالم.

وإذا كانت حيرة لوستيك قد أصبحت خارج السياق، فإن كلامه عن فشل الإسرائيليين في استثمار الفوز بعد وصولهم إلى ما يشبه خط النهاية، وعن دور الفشل في تحريض الخصم على تبني استراتيجية الجدار الحديدي، أيضا، يفتح فصلا جديدا من فصول حكاية عائلية بدأت منذ مائة عام، ولا نعرف متى تنتهي.

ثمة أشياء تحدث الآن وهنا. أشياء نعرفها. أقيم، مثلا، في بناية تبعد أقل من كيلومتر واحد عن فندق السيتي إن ومستوطنة بيت إيل، إحدى أكبر المستوطنات في الضفة الغربية، ومقر الإدارة المدنية الإسرائيلية. أصبح الفندق الذي قام الجنود الإسرائيليون باحتلاله في الأيام الأولى للانتفاضة، من أكثر نقاط التماس سخونة في الانتفاضة الحالية. فمن هنا تخرج طلقات القنّاصة، وقذائف المدفعية والدبابات، ومختلف أنواع المقذوفات النارية للأسلحة الرشاشة الخفيفة منها والثقيلة، إلى جانب أصوات سيّارات الإسعاف، التي لا تكف عن الحركة معظم اليوم وحتى وقت متأخر في المساء.

يشحذ هذا القدر من القرب عددا من الحواس أهمها حاسة السمع، التي لا تكتفي برصد الأصوات، بل تحاول تمييزها. فدوي رصاصة واحدة يعقبها بوق لسيّارة إسعاف يعني أن قنّاصا أطلقها، وأن جريحا، أو شهيدا سقط على الأرض. كما يعني دوي انفجار في مكان قريب أن القذيفة لم تسقط على أم رأسك، أو في مكان ما من البناية، فعندما يحدث أمر كهذا لن تمنح سرعتها الفائقة حاسة السمع لديك رفاهية التمييز. وبالقدر نفسه تكتسب مع مرور الأيام كفاءة التمييز بين أنواع الانفجارات،

وإمكانية تخمين أنواع الأسلحة التي أطلقتها.

واظبت على الصعود إلى سطح البناية في الأيام الأولى لمراقبة سحابات الدخان التي يحدثها القصف: تصعد بيضاء، خفيفة ومتماوجة في البداية، ثم تزداد كثافة وميلا إلى السواد، كلما اتسعت مساحة انتشارها. أما في الليل فتطلق ضوءا أصفر تشوبه حمرة قاتمة، عنيفة، وسريعة الانطفاء، ما لم تشعل حرائق صغيرة.

لكن رغبة مشاهدة القصف فترت بعد أيام قليلة، وكذلك رغبة البحث عن زاوية أكثر أمنا في البيت، لأن النوافذ تحتل مساحة واسعة في كل الحجرات، كما أن القذائف لا تعجز عن اختراق الجدران. لا بد، إذاً ، من قدر محسوب من اللامبالاة كي لا نمكن الخوف من تحويلنا إلى كائنات مذعورة. ولعل تلك الرغبة تفسّ رإصرار عدد كبير من الناس على ممارسة طقوسهم اليومية المعتادة، بما لا يمكن الخطر المحدق بهم من شل قدرتهم على الحياة.

لذلك، عادت الحياة بعد يومين من صدمة القصف بالطائرات إلى سياقها اليومي. يكتظ دوار المنارة بالشباب في ساعات ما بعد الظهر، تفتح المحلات التجارية والمقاهي والمطاعم أبوابها، ويزدحم الشارع الرئيسي في رام الله بالسيارات التي يغضب أصحابها من اختناقات مرورية تؤخرهم وتحرضهم على الشكوى الدائمة.

في دوار المنارة تطل وجوه فتية بصفة شبه يومية من ملصقات كثيفة الألوان تجاور ملصقات أقدم عهدا. ربما كان أصحابها في هذا المكان يوم أمس. من المؤكد أنهم مرّ وا من هذا المكان. وربما كان بين الفتية الجالسين على سور الكنيسة شهيد محتمل.

لا تستطيع الغالبية العظمى من الناس مغادرة رام الله أو الدخول إليها. هناك أعداد قليلة تتمكن من القدوم من القدس أو مدن أخرى، لكنها تحتاج إلى ثلاثة أضعاف الوقت المعتاد، وإلى سلوك طرق ترابية مرتجلة تم « اكتشافها » بعدما أغلق الإسرائيليون الطرق الرئيسية. لكن الطريق إلى بير زيت ما زالت سالكة حتى الآن.

أرى الطريق من نافذة البيت. حاول الإسرائيليون أغلاقها في الأيام الأولى، لكنهم تعرّضوا لوابل من النيران. ويبدو أن صعوبة التواجد في ذلك المكان بصفة يومية لأسباب أمنية محضة، دفعتهم إلى التراجع عن تلك الفكرة. في رؤية السيّ ارات الصاعدة إلى بير زيت ما يمنح المشهد الصباحي قدرا من الألفة والعادية، لكن صوت الرصاص القادم من السيتي إن وبيت إيل يبدد العادي والمألوف.

أصبحت أصوات القذائف والرصاص متقطعة في الآونة الأخيرة، لكن ذلك لا ينفي احتمال عودتها، ولا ينفي عدم وقوعها أو ازدياد كثافتها في أماكن أخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة. فالواضح والمؤكد أن ما نشهده الآن وهنا مرشح للاستمرار في المدى المنظور.

رام الله